لأكنس الشمس عن السطوح

جنان الشيخ

دار الآداب

www.ibtesama.com

أكنس الشمس
عن السطوح

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

حنان الشيخ

أكنس الشمس عن السطوح

دار الآداب - بيروت

www.ibtesama.com

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٩٤

www.ibtesama.com

فريز أحمر

تكاد البوسطة تصيح، تضرب سقفها بنوافذها، تودّ أن ترتمي تحت عجلات نفسها وتشدّ فراملها كمن تصعد روحها منها وتخرّ على الأرض. فالطّريق ليست متعرّجة فقط وكأنّها أمعاء تشابكت وعجز أكبر الأطباء عن تفريقها وإعادتها إلى مكانها، بل كانت واقفة تنظر إلى أعلى، كأنّها جبل، ثمّ نائمة كأنّها سهل، كأنّها لولب، كغضروف الأذن، ومتاهتها. كانت صفيّة ترى روحها تمخر أمامها كلّ شهر وكأنّها رقبة خروف. فتختلط عليها الهزهزة والخضخضة فلا تعود تعرف إذا كانت معدتها هي الّتي تنقلب أم زلعومها هو الّذي يضيق بها، أم أنّ فيضاناً يجري في مياه اتّزانها، أم أن بصرها هو الّذي...

مع ذلك كانت لا تتّقي شرّ هذه الزّيارة بل تطلبها وترغبها كلّ يوم. كلّما اهتزّ جسمها ومال حتّى كاد يلامس صفيح البوسطة، تشبّثت يداها بحديد المقعد أمامها، عرفت أنّها في الطّريق الصّحيحة وأن ما ينتظرها حال توقّف البوسطة هو الّذي لا تطلب سواه.

كانت في طريقها لزيارة زوجها المُودَع منذ ١٦ عاماً في سجنه الّذي كان يقع خلف هذه التّعاريج والجبال في شبه جزيرة لا تصلها إلاّ هذه البوسطة الّتي وضعتها إدارة السّجن خصيصاً لنقل أهالي المساجين فتضمّهم بين صفيحها مع أولادهم وحوائجهم وكأنّها آلة

www.ibtesama.com

خلاطة الاسمنت شكلاً ومفعولاً، إلى أن ثُبّت لها سقف بعد أن كانت تُتْرَكُ رؤوس الرّكاب في العراء، تعصف بها الرّيح، تلوّحها الشّمس الّتي من جرّائها ماتت رضيعة في شهرها الثّاني وهي في حضن أمّها. لكنّ هذه الرّحلة كانت من أصعب الرّحلات، إذ كان على صفيّة أن تمسك طوال الطّريق بعلبة كرتون صغيرة ملأتها بحبيبات فريز حمراء قطفتها هذا الصّباح من الصّندوق الّذي كانت تطلق عليه اسم الحديقة.

هذا الصّباح هرعت صفيّة إلى الصّندوق ككلّ صباح وقلبها في يدها ورأت اللّون الأحمر يطغى على الصّندوق وعلى كلّ الدّنيا حولها. صاحت بسعادة كأنّ عيني زوجها رأتا اللّون الأحمر معها.. كأنّ الدّنيا حرّة، كلّ ما بها حرّ. لا أوقات زيارة. ولا سجون ولا مواصلات. كأنّ على المرء أن يتمتم لنفسه ولمن حوله: «كن فيكون..» لكن ما إن اعتادت على الحبيبات الحمراء حتّى وجدت نفسها في قلب الواقع الّذي كان يشبه غرفة ذات نوافذ ولكنّها عالية لا تَبْلُغُها اليد ولا العين، وعرفت أن الحبيبات الحمراء لن تأتي لها بزوجها إلى قلب الغرفة ولن تبدّل الواقع بل هي عبارة عن حبيبات ساكنة.

كادت علبة الكرتون تسقط منها الآن أكثر من مرّة، ولو أنّها تؤمن بالعين الحسودة لاتّهمت الراكبة إلى جانبها بأنّها السّبب في ذلك، إذ إنّ عينيها لم تكونا تفارقان العلبة.

تتمنّى صفيّة لو أنّها اصطحبت ابنتها هذه المرّة، حتّى تتّكئ عليها. إذ كانت بحاجة إلى من يكون صاري السّفينة. شراع القارب، المعيار الثّقيل حتّى لا ترجح دفّة الميزان، مياه الأذن المتوازنة.

www.ibtesama.com

لكن ابنتها لم تعد تتلهّف كما في الماضي للمجيء معها. لم يعد تحضير الطّعام والترقّب لرؤية والدها والصّعود في هذه البوسطة هو محور أيّامها، بل إنّها لم تعد تترقّب الأخبار عن قضيّته كما من قبل وتجلس بين أيدي الأقارب الّذين كانوا يلاحقون القضيّة ويأخذون الأمّ لزيارة الأعيان والسّياسيّين». بل أصبح لها عالم آخر. يضجّ بموسيقى المذياع وصديقات الدراسة وأسرارهنّ بدلاً من بنات السّجناء اللّواتي كانت تتواعد معهنّ للعب في باحة السّجن مرّة كلّ شهر.

البوسطة تتلوّى وتعلو وتهبط وصفيّة مغمّضة العينين، وما إن شعرت بأنّها قد توقّفت عن الاهتزاز للحظة عندما نزل سائق الشّاحنة لمعاينة دولابه حتى رفعت غطاء العلبة تسترق النّظر إلى حبيبات الفريز وتبتسم لها وهي تعيد الغطاء فوقها حتى يبقى لونها الأحمر وشذاها عالقيْن بذهنها وبحاسّة شمّها. وإذا به يطغى على البوسطة، على لون الركّاب الشّاحب، على لون ملابسهم المهلهلة، حوائجهم القديمة، أكياسهم الّتي كانت تحوي الطّعام المطبوخ ورائحته غير الشهيّة. ويبدو أن المرأة الراكبة إلى جانبها رأت ما في داخل العلبة أخيراً، فعادت برأسها الفضولي تسنده إلى المقعد وهي تزفر زفرة ضيق. إذ من أجل هذه الحبيبات لم تستأنس وتسترخِ، ولم تنم كعادتها حتى تقطع روتين هذه الرّحلة الطّويلة. إذ سكنها الفضول لمعرفة ما في العلبة منذ بداية الرحلة وهي ترى صفيّة تمسكها بكلّ قوّة تارة، وبكلّ رقّة تارة أخرى، تميل معها غير مبالية بحشرها، والآن عدا عن فضولها وضيقها بجارتها ذات العلبة، اشتهت حبّة من هذا الثّمر الغالي الثّمن لتبلّل به فمها في هذا الحرّ اللاّهب.

www.ibtesama.com

لابدّ أن وجود هذه العلبة بين الراكبتين قد وتّر الجوّ بينهما، إذ اعتادت النّساء على قطع رتابة السّفر بالتّحدّث والاستعلام عن سجين كلّ منهنّ.. عن مدّة عقوبته.. وكم مرّ من الوقت وهو سجين وكم بقي من الوقت.. متحاشياتٍ موضوع سبب العقوبة..

تتمنّى صفيّة الآن أن ترى الخطّ الأزرق.. إنّ إطلالة البّحر معناها الوصول، معناها أنّ زوجها حقيقة.. معناها أنّه بمتناول اليد، لا أن تسمعه في الفكر دائماً بل سوف تتحدّث معه وتلتصق به، رغم معرفتها مسبقاً بأنّها لن تنسجم معه، رغم ابتهالها لنفسها كلّ مرّة ولطوال الأيّام الّتي كانت تسبق الزّيارة لأن تزيل كلّ شوائب الأفكار وأن لا تفعل شيئاً ما إن يصبحا معاً سوى أن تتمسّك برجلها عميقاً عميقاً حتّى تطغى حرارته وشوقها له على الذّبذبات الّتي كانت تطنّ في رأسها والّتي كانت تشوّش كلّ كيانها حتّى جسمها.

إذاً ما الّذي كان يجعلها تستمرّ في هذا الصّبر.. الخيال والترقّب لأن يحلّ الانسجام بينهما أم استعادتها لأوقاتها معه، تلك الّتي كانت تحتلّ الفراغ الموجود في حياتها بين زيارة وأخرى، والّتي كانت تترك آثارها كالخطوط في الخشب الّذي يدلّ على عمر الشّجرة. كأنّ هذه الزّيارات وجدت لها إطاراً ذهنيّاً نمت في ظلّه آمنة مستترة تماماً كما يفعل السّجناء حتّى يتحمّلوا سجونهم، وكذلك عمّال المناجم حتّى يعيشوا في ظلمة مناجمهم، وكذلك البحّارة بتقسيم أوقات النّهار واللّيل حتّى يمنّوا أنفسهم برؤية شيء آخر أمام ناظرهم غير البحر أيّاماً بعد أخرى.

www.ibtesama.com

تعود صفيّة فتسترجع شتات روحها المدلوقة ما إن ترى طرف البحر الّذي معناه أن البوسطة سوف تكرّ الآن من أعلى إلى أسفل، وأنّ على الجميع مسك قلوبهم إلى أن تتوقّف في المكان المحدّد لينزلوا مع أشيائهم إلى باحة تقع على مقربة من السّجن مخصّصة للزّائرين.. وهناك يباشرون بفرش متاعهم وتحضير ما أتوا به من طعام وأخذ قسط من الرّاحة ريثما يحين موعد زيارة من أتوا من أجلهم في بناء خصّصته إدارة السّجن للقاء المتزوّجين للخلوة، بينما يضجّ أولادهم في الباحة يلعبون شتّى الألعاب. تجلس صفيّة سعيدة على كومة متاعها وهي ماتزال ممسكة بالعلبة الّتي اهتزّت وعلت وهبطت معها وكأنّها فوق رفاص سرير يحيد بها من جهة إلى أخرى ومع ذلك بقيت بين يديها. تفتحها أخيراً وإذا بالحبيبات قد فقدت رونقها وذبل انتعاشها وغاصت في دموع حمراء أرجوانية لطّخت بياض علبة الكرتون. رغم أسفها لمنظر الفريز الحزين، لم تفكّر صفيّة إلاّ بأن هذه الحبّات سوف تبهج عيني زوجها ولسانه. ثمّ فطنت فجأة لأمر هام غاب عن بالها من قبل.. فهذه الحبيبات قد ساعدتها أيضاً على المضيّ في علاقتها معه.

كان زرع الفريز من أصعب ما قامت به خلال السّتّة عشر عاماً. فقد جرّبت أكثر من موسم واحد أن ترى الحبيبات الحمراء بين الورقات الخضراء ولم تفلح، كانت تبقى صغيرة كرأس الإبرة، أو بثرة في الوجه ولونها الأخضر المائل للاصفرار يبشّر بموتها، وأمّا الأوراق فتنمو وتخضرّ من غير أن يتورّم الغصن وينبت الثّمر. هذا العام، ومع مزيد من الصّبر والعناية، كبرت الأوراق الخضراء

www.ibtesama.com

واشرأبّت بينما وعدها لون الثّمر وحجمه بالتّفاؤل. وهكذا من غير أن تدع صفيّة اليأس يدخلها، ابتدأت بزرع الحبّ منذ مواسم ولم تفلح، قصدت مزرعة في أقاصي البلد لتأتي بشتلة. وعندما زرعتها في المرّة الأولى كان مصيرها الموت لأنَّ هذه الفاكهة هي في منتهى الحساسية إزاء الحرّ الخانق أو المطر الشّديد، أو جلبة الصّباح. لذلك كانت صفيّة تنقل الصّندوق من مكان إلى آخر، فارشةً فيه القشّ حتّى لا يتمرّغ الثّمر في التّراب، وقد قامت بِريِّه بماء بخّرته من الملح. غطّته بالبلاستيك، رفعت عنه البلاستيك، غطّته بالقماش، رفعته عنه، هكذا شهراً بعد آخر. لابدّ أنّ كلّ هذا قد ألهاها عن وحدتها ومصيبتها. قبل الفريز كانت تصبغ الصّوف بألوان تخلطها وتحوكه بالصنارتين. تجفّف الورد وتعمل منه باقات ومن الأغصان والأوراق أشجاراً. من قشور البّصل أوراقاً للكتابة.. لكنّها تركت كلّ هذه رغم أنّها كانت سنداً ماديّاً وأخذت تنخرط بما يحتاج إلى صبرها الطّويل ونفس دؤوبة. تعاملت مع من له روح. اتّخذت هواية عمّها وأخذت تعلّم العصافير العاديّة ذات الحناجر غير الصّادحة لأن تقلّد من كانت تشدو بعذوبة، فتذهب إلى الحقول بمسجّلة تسجّل شدو الكنار والشّحرور ثم تترك التّسجيل بين العصافير لتقلّد بعد وقت ما كانت تسمعه.. لكنّها انصرفت عنها بعد سنوات لأن هذه الهواية كانت بحاجة إلى كلّ شجاعتها وقوّتها إذ كلّما فتحت صفيّة نوافذ الأقفاص وطيّرت العصافير بعد أن قامت بتخريجها من معهد الموسيقى شعرت بألم لفقدانها. تنظر صفيّة من جديد إلى الثّمر الذّابل قبل أن تضعه جانباً ريثما تسرّح شعرها بمشط تتناوله من حقيبة يدها وكأنّ رؤيتها لوجهها في المرآة الصّغيرة لأوّل مرّة منذ هذا

www.ibtesama.com

الصّباح تعباً منهكاً جعلها تستغرق الوقت وهي تزيد من أحمر شفاهها ومن ظلّ العيون الأخضر على أجفانها. ومن محاولة اقتلاع شعيرة سوداء نبتت في شاربها غير دارية أنّ النّمل الأسود أخذ يغزو الثّمر الأحمر الذّابل بنهم شديد.

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

أرض الشّمس

تدحرجت السيّارة مرّات عديدة قبل أن تخرّ على الأرض كطير مذبوح، لتبدو من بعيد وكأنّها سراب أوجدته الصّحراء في المسافات الّتي تكاد العين لا تحصرها من شساعتها.

أسرع شابّ من نقطة ملوّنة باتّجاه هذه النّقطة الخضراء بكلّ اندفاع. ما يجري الآن هو الحدث في هذا الخلاء السّاكن من كلّ شيء، ما عدا حرق الشّمس للرّمل كلّ نهار من غير ملل، واشتداد السّراب والتماعه وهبوب الرّيح وحلول الصّقيع في اللّيل.

كانت النّقطة الملوّنة عبارة عن خيام منصوبة في عراء الصّحراء تعيش بإطار وقع يومي هادئ لا يشوبه إلاّ اكتدار الأحلام المزعجة من حين إلى آخر، وكانت تأتي عادة من خيبات أمل تتركها بهم الأفاعي والسحليّات الّتي عثروا عليها وتربّصوا بها ومع ذلك أفلتت من كمائنهم. هذه النّقطة كانت فريقاً مأجوراً يرتحل أفراده من مكان إلى آخر إلى درجة التيه في الصّحراء بغية الانقضاض على ما لم يزل يعيش بين رمالها من جلود نادرة اللّون.

كان جاسم هو أوّل من وصل إلى هذه النقطة الخضراء الّتي كانت لاتزال ترتعد مفاصلها ويصدر عنها الصّخب والجلبة لما عانته من تدحرج وهزّات عنيفة وصياح جمل ارتمى بعيداً يتخبّط بالرّمل وكأنّه

www.ibtesama.com

زوبعة مخيفة، طغت على صوت سائل السيّارة المترقرق على الرّمل، وأنّات خفيفة مختلفة الوقع والصّوت كانت تنبعث منها.

وكان من الممكن أن يقف جاسم مصعوقاً لمدّة طويلة قبالة هذه الآلة الّتي بدت وكأنّها سحلية من نوع آخر بعد اصطدامها بالجمل، لكنّه تنبّه فجأة للأنين وأسرع محاولاً سحب أحد الرّاكبين من نافذة السيّارة بعزم يشوبه الرّفق مراعاة لزجاج النّافذة المطحون بلا فائدة إذ كانت النّافذة صغيرة بالنّسبة إلى ضخامة الرّجل. في هذه الأثناء وصل زميل له كان قد تبعه ركضاً وقلبا معاً السيّارة وأعاداها إلى

شبه ما كانت عليه. ما إن فتحا الباب المطعوج حتّى فوجئا برؤية امرأة تئنّ في المقعد الخلفيّ وقد حادت ملابسها عن جسمها المتهالك، فبدا جزءٌ كبير من بطنها مكشوفاً، بينما ارتمت ضفيرة شعرها حول وجهها وعلى يدها، وبانت حَلْقتا أذنيها الذهبيّتان. نظر جاسم إلى زميله لبرهة ثم، وبتواطؤ صامت، تجاهلا ما رأياه وانكبّا على سحب السّائق الّذي لابدّ أنّه فارق الحياة وكلّ منهما يضبط الآخر وهو يسترق النّظر إلى المرأة خاصّة إلى بطنها العاري. يقومان بسحب الطّفل الّذي لابدّ أنّه كان إلى جانب المرأة، والّذي طيّرته صدمة السيّارة وألصقته بالباب وتركت أشلاء رأسه على الزّجاج، وهكذا إلى أن أصبح جميع الرّكاب فوق لهيب الرّمال تحت الشّمس الّتي أخذت تزيد من فوران الدّماء النّازفة منهم، وتعجّل بطلوع أرواحهم في هذا الهدوء بعد أن همد الجمل بلا حراك. وكان أنين المرأة لايزال ينبعث من داخل السيّارة بكلّ وضوح.

جمد الشّابان في مكانيهما، تبادلا النّظرات والحوار الصّامت ولم

www.ibtesama.com

يتحرّكا إلا ليبعدا أقدامهما عن السّائل الّذي زاد اندفاعه من بطن السيّارة ووجدا نفسيهما يبتعدان عنه، يبتعدان أكثر كلّما أوشك على الاقتراب منهما، إلى أن اندفع جاسم فجأة ومن غير توقّع إلى السيّارة بحزم يدخل نصف جسمه ويمدّ يديه لكي يسحب المرأة، لكنّه يجمّد نظراته من جديد فوق عري بطنها واسمرارها، فوق الشّعيرات الخفيفة عند السُّرّة. لم يكن قد رأى عري امرأة من قبل بل لم يرَ امرأة من غير أمتار من القّماش تلفّها من رأسها إلى أخمص قدميها المختبئين بالحنّاء السوداء مُظْهِرَة فقط عيني المرأة وكأنّهما حشرتان من تحت فتحة قماش حيكت كشباك الصيّادين، ليتقهقر خارجاً من السيّارة، ويبتعد عنها. ثمّ يضرب، وكأنّه لسع في القلب فجأة، كفّاً على كفّ ندماً لتراجعه هذا وهو ينظر إلى زميله في حيرة يموّجها الخيبة والكبت. يحدّق في زميله مرّة أخرى إنّما بتوسّل مستعطياً مؤازرته حتّى تمتدّ به الشّجاعة وتحرّكه لأن يسحب المرأة خارج السيّارة.

ولم يقفا معاً طويلاً من غير كلام أو حركة، إذ أخذ السّائل ذو الرّائحة القويّة الآن دفّة القرار واندلع من تلقاء نفسه ليحوّل بلمحة بصر ركام السيّارة إلى سراب صحراوي يشتعل في جفافه لأنّه لم يُروَ منذ مدّة طويلة. وكانت حرارة الانفجار قد قامت بدفع الشّابين بعيداً. لحظات، ووجدا نفسيهما يقومان بجرّ الضحايا الثّلاث بعيداً عن الآلة المشتعلة بانهماك عظيم، محاوليْن إبعاد المرأة عن العين والأذن والنّيران تأكلها، رغم أن بطن المرأة وملمسه لم يغيبا عن يد جاسم لمدّة طويلة.

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

لا ينبغي أن يعرف الرّجل بهذا

لم أكن أحتاج لأنظر إلى ساعة يدي، فعندما يسرع قلبي في ضرباته أعرف أنَّ الوقت حان وأنّ عليّ الاستعداد، فأدخل الحمّام وأهمس للمرآة بكلمة أو بجملة.

كلّما هبطت المياه الدّافئة عليّ استسلمت لها وشعرت بارتخاء لذيذ. لم أكن أوقف سيل الحنفيّة إلا عندما يمرّ في خيالي حَنْجور الكريم الزهري أو تنفذ رائحته إلى مسامي فأسارع إلى تجفيف جسمي. تستوقفني شعيرات قليلة عند فخذي أو قدمي وكأنّها بعض أعشاب في مستنقع. وأفكّر إذا كان عليّ أن أنتزعها بالملقط، لكنّي أعدل عن رأيي فهي تكاد لا ترى. أضع الكريم على جسمي وأمسحه بتأنٍّ، وأنا أصل إلى كلّ جزء به، شاعرة بأنّ كلّ أعضائي حيّة تعبّر عن أحاسيسها وحالتها هذه الّتي إذا تنوّعت فهي لتنتقل بين الحبّ والتّعبير عنه بجوّ الخلوة. أدور حول نفسي، أحاول أن أجمع نفسي الطّائرة في أنحاء الغرفة، التّائهة بين تجارب الماضي ودمغتها عليّ وخوفي منها، وبين التّفكير في أن أقلع عن عادة استعدادي هذه والخوف من هذا الحبّ وكأنّي أعمى ينزل سلالم من غير عصا، لكن كان عليّ أن أكبح رغبتي به، إذ لحظةَ كنت أراه أمامي يستقبلني وأسمع صوته ونجلس نتحدّث وأرى كلماته وهي تنبعث في حلقه من

www.ibtesama.com

بين أسنانه، من بين شفتيه، وأعرف أن رقبته دافئة كنت أرتعش ولا أطلب سوى أن يعانقني وأن يدخلني. لكنّي أجلس متجاهلة ما يحدث لي، محاولة أن أسمّر أُذُنيَّ على ما كان يقوله، غير أنّ الكلمات تدخل أذني ومنها إلى عنّلي الّذي يأمرها بأن تهبط حتّى شفتيّ، حتّى رقبتي، حتّى صدري، حتّى بطني، حتّى ظهري، أسفل ظهري.. وأصبح مشلولة.

هكذا كلّ مرّة ألقاه فيها، أضيع بين الترقّب والإسراع والتمهّل، أجلس وكلّي رغبة لأن اندفع وراء هذا الشّعور الّذي يتسلّط عليّ، متردّدة بين التّراجع والمضيّ. أجلس وكأنّي عصفور يرتعد فوق سلك شائك، يخاف أن يتحرّك مستعدّاً للطّيران فَيَخِزَه السلك. أحاول ألاّ أقاوم رغبتي فيه، وأمضي وكلّي إيمان بأن ملامستنا هي تكملة للكلام بل هي الكلام. لكنّي أتراجع وأنا أحزر من طريقة جلسته، من أخذه لكفّي بين يديه، من حرارة كفّه، ومن حزام بنطلونه، بل من جواربه، من تقريبه للكأس بين شفتيه بأنّه سعيد مكتفياً بتبادل القصص والشّعور والأخبار..

عندما كنّا نلتحم معاً وكأنّنا ورقة واحدة طويت طيّة واحدة، وألمس بشفتي رقبته كان يعلق نبض رقبته بين شفتي ثمّ يهبط في حلقي إلى جوفي، إلى كياني كلّه.. فابتدئ بالارتعاش متمنّية لو يحتويني كلّي بلحظة واحدة وكأنّني فحم يودّ أن يلتقط شرارة خوفاً من نقاط ماء زاحفة إليه. فينظر إليّ مستغرباً ما يحدث لي وهو يرى أسناني الّتي طالما أطرى تناسقها، تشدّ فوق بعضها مفضّلة أن تطحن بعضها على أن تفلت من بينها كلمات رغبتي فيه واستعجالي.

www.ibtesama.com

أدير اسطوانة، كمرحلة أخيرة من استعدادي، أنتظر ريثما يبدأ مفعول الموسيقى. ثمّ أتهالك على السّرير، أقرّب زندي من أنفي أشمّه، لحظات وإذا هو بقربي، أهمس له بكلمة وأكمل حديثنا بالملامسة، ولا أتوقّف إلاّ عندما أصرخ صرخة خفيفة وأنا أرتعش، أمنح جسمي لحظات هادئة قبل أن أنظر إلى ساعتي وأنهض وأنا أفكّر في أنّ ما تبقّى للقائي به هو نصف ساعة، فهل عليّ أن آخذ المترو أم التّاكسي؟.

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

المقعد السّاخن

عندما أسرع يجلس على المقعد الّذي تركته المرأة الممتلئة لم يكن يفكّر إلاّ في أنّ قدميه منهكتان وأنّ أحداً من الرّجال لم يزاحمه على الجلوس كما هي العادة، كان أسرعهم في الاستيلاء على هذا المقعد الّذي شغَرَ فجأة إذ لم تستعدّ المرأة كمعظم النّساء لتهيئة أمر نزولها قبل وقت.

ما إن استوى على المقعد حتّى شعر بسخونته، إنّما سخونة لا دخل بها للشّمس الّتي كانت تلسع الباص وتمتدّ في أرجائه مخترقة هيكله الميكانيكي ونوافذه وتصبّ حرارتها على كلّ ما فيه.

والسّخونة تمتدّ إليه من المقعد، تمرّ بخياله صورة أمّه وشقيقاته وهنّ يحاولن تهوية المقاعد قبل أن يجلسن عليها، إمّا بتلويح أكفّهنّ فوقها حتّى يطردن آثار من جلس عليها من قبل، وإمّا بقلب وسائد المقعد رأساً على عقب. وكانت شقيقته تعلّق بقرف كلّما انتقدها على وسوستها هذه: «من يدري ماذا يترك الجالس من آثار لا ترى على المقعد».

دفء غريب تصحبه رطوبة تكاد تنفذ إلى بنطلونه لابدّ أنّ فخذي المرأة احتكّتا بالبلاستيك، وتركتاه دبقاً هكذا.. وإذا به يسترجع دائرة العرق الّتي امتدّت تحت إبطي الرّاكبة وكوّنت دائرة كبركة ماء... فيفكّر بالمنبع. باللّحم هناك الّذي لابدّ أنّه ناعمٌ طريّ.

www.ibtesama.com

يجد الرّجل نفسه متململاً قليلاً ويفرد كلّ نفسه على المقعد حتّى يجعل السّخونة تخترقه وتصل إلى أعضائه، ثمّ يدني راحة يده من أنفه الّتي لابدّ أنّ عطر المرأة قد انتقل إليها من إمساكه عفواً بحديد المقعد قبالته. وهكذا وجد الرّجل نفسه عاجزاً عن مفارقة المقعد رغم توقّف الباص عند محطّة نزوله، فبقي مسترسلاً متمنّياً لو تسنح له الفرصة حتّى يلتقي بامرأة كما يصوّرها خياله الآن في هذا البلد المتزمّت.

كلّما أسرع الباص أسرع بخياله لا يعكّره سوى أصوات الركّاب من حين إلى آخر، تختلط بأغنية تنبعث من المذياع، إلى أن سمع بداية معركة كلاميّة قطعت عليه أفكاره ومشاعره: «ألا تخجل أيّها القوّاد.. أيّها النّذل.. أيّها المعتوه.. أيّها البربريّ.. أيّها السّوقي.. أيّها الكّافر ألا تخجل».. الصّوت يقترب لا.. لا يمكن أن يكون هو المعني بهذا الغضب الوحشيّ، لا يمكن أَمْهَرَ المنجّمين أن يكشف عمّا يفكّر ويشعر به الآن. لكنّه التفت يحرّكه فضوله إلى مصدر الصّوت الّذي كاد يلصق بأُذنه لتواجهه لكمة عنيفة تهزّ رأسه وتجعل أذنيه تصفرّان وأنفه ينزف وقلبه يشهق. يعود الصّوت الخشن يصيح بسائق الباص يأمره بالتوقّف، ولا يدري الرّجل كيف دُفع، كيف ارتطم وجهه بصفيح الباصّ، كيف تدحرج، كيف ارتمى على الأرض فوق التّراب حيث تكوّم حوله الرّجال يزيدون من ضربه وركله كلّما ارتفع الصّوت الأجشّ: «أليس لديك أخوات تخشى على عرضهنّ.. أين شرفك تتعدّى على امرأة شريفة، تدنّس عرضها في وَضَح النّهار»؟.

www.ibtesama.com

«في يوم من أيّام العطلة»

كتبت في موضوع الإنشاء ما يلي أصف به يوماً من أيّام العطل.

لم يكن ذلك اليوم كبقيّة أيّام عطلة الرّبيع، فالمطر قد هطل بغزارة، وبلّل العشب، وجدّتي وقفت أمام النّافذة تعاين السّماء لربّما انقشعت الغيوم وظهرت بدلاً منها الرّقع الزرقاء. وعندما لم يحصل هذا، خلعت ملايتها السّوداء وخلدت إلى الفراش كعادتها عندما يتساقط المطر، وأنا فتحت فمي أبكي ولا أغلقه إلاّ عندما قال لي والدي بضيق صبر: «يللاّ معي». حاولت أمّي التدخّل لكنّي كنت أسرع من الجميع، جلست في سيّارة والدي وأنا أغنّي «البابا يحبّني آخذني مشوار وبدّو يشتريلي أغراض». لكن ما إن أخذ يقود السيّارة ويلعن السّير، و«الاشكمان»، ولا يحيد عند برك الماء ليشقّها بسرعة غير مبالٍ بالمارّة، حتى ابتعدت عن خيالي صورته وهو يدخلني الدكّان لشراء أي شيء، لكنّي لم أتوقّف عند أغنيتي هذه إلاّ عندما توقّف فجأة وأمرني وهو ينزل: «أوعي تتحرّكي اقعدي مثل الصّنم». ولم أجلس مثل التّمثال بل فتحت زجاج السيّارة ومددت رأسي خارجه، أنظر إلى الأشياء المعروضة وأفكّر لماذا كلّ مشترٍ يختار غرضاً مختلفاً عن المشتري الآخر. وعندما ضجرت من مراقبة النّاس، أخذت أراقب حبّات المطر وأجزم أنّها لا تعرف مسبقاً أين

www.ibtesama.com

سوف تتساقط.. بينما وقف شرطيّ السّير يبحلق في السيّارة ولا يقترب منها إلاّ بعد أن أقبل والدي وفي يده كيس نايلون فيه دجاجة مذبوحة لاتزال الدّماء عالقة برأسها وإذا بالشّرطيّ يمدّ رأسه معاتباً والدي لأنّه أوقف السيّارة في مكان ممنوع بعد أن وضع ورقة تنوّه أنّه في مهمّة طبّية. يجيبه والدي وهو يمدّ يده ويخرج بطاقة: «بالخدمة ليل نهار.. فحصيّة ودواء.. كلّه على رأسي»، ثمّ عاد ينهب الأرض بالسيّارة، غير مبالٍ بأغنيتي، ويدخل الأزقّة ثمّ يعبر فوق جسر صغير، يهبط في طريق يجعلني أمسك قلبي قبل أن يتوقّف ويقول: «وصلنا يا ليلى.. هلّق الممرّضة بتعطيك حبّة بونبون».

ما إن ابتعدنا قليلاً عن السيّارة حتّى تذكّر والدي مريلته، وعاد يقطع الطّريق وهو ممسك بيدي، ثمّ تركها ريثما يفتح السيّارة وتعبث يده بين الجرائد القديمة وعلب من البلاستيك كانت لفحص البول وعلب الأدوية، ليجد أخيراً مريلته الطبّية البيضاء. دخلنا إلى بناء لا يشبه المستشفيات ولا حتّى بالرائحة، وإذا بوالدي يبادر رجلاً كان يجلس خلف الطّاولة في الممرّ، يعرّفه بنفسه بكلّ مباهاة: «أنا صرت مفتّش حكيم عام، هون وفي السّوق العمومي، يعني على كلّ جزليّة في البلد».

ولم أكن قد سمعتُ كلمة «جزليّة» من قبل. لكنّي شعرت بالفخر لأن والدي مفتّش عام لأعود فأشعر بالخجل ما إن ارتدى والدي مريلته القذرة وقد ظهرت فوقها البقع المتّسخة. دخلنا إحدى الغرف لتلحق بنا راهبة مسرعة تسأل والدي إلى أين؟ وهي تنظر إليّ باعتراض، أعاد والدي ما قاله للرّجل الجالس خلف الطاولة. وإذا

www.ibtesama.com

بها ترحّب به وبي وتسألني إذا كنتُ لاأزال في عطلة الرّبيع. وفعلاً أخرجت من جيب زيّها الأبيض قطعة حلوى ملوّنة.

كانت الغرفة باردة، عارية إلاّ من أسرّة حديديّة غير موضّبة، ومن بنت صغيرة ذات أسنان ذهبيّة تمسح الأرض وتنظر إليّ. خاطبها والدي بكلّ حشرية: «امسحي منيح يا عمّو، يا شاطرة» ثمّ فتح حقيبة عدّته وتناول منها علبة دواء وضعها في يد الرّاهبة: «فيتامين لها الصّغيرة نحيلة.. مسكينة. هالفيتامين بيقوّيها، وبصيروا إجريها أقوى»..

ثم أخذ يخاطب الأسرّة قائلاً: «يللاّ قوموا.. هذا المكان هو الدولة.. هو الوزارة، وليست بيوت ولا خان»، وفعلاً تحرّكت أغطية الأسرّة الكالحة وظهرت لدهشتي بعض الوجوه الّتي شبّهتها لتوّي بعيني الدّجاجة المُغْمَضَتيْن في كيس النّايلون، سمّرت نظري عليها من جرّاء سحنتها الصّفراء الّتي كانت كلون البطّانيّات وأيقنت أنّهنّ في غاية المرض إذ هكذا كنت أرى أم حسّان في فراشها كلّما ذهبت للعب مع حسّان الّذي كان يتباهى لانفراد أمّه بلون وجهها الأصفر، وكانت قد ماتت من جرّاء اشتداد اصفرارها. وما إن عادت النساء في الأسرّة إلى إغماض أعينهنّ حتّى تململت في مكاني ضجرة إلى أن سمعت الرّاهبة تقول بلكنة أرمنيّة: «كانوا خمسة يا حكيم، وواحدة هربت». لم يجبها والدي بغير هزّة من رأسه للحظة ثم عقّب بقوله: «وين بدها تروح؟ بكرة بتنلقط» وهو يكبّ على حقيبته الطبيّة ويخرج منها آلة تشبه لسان الأحذية كنت قد اعتدت على رؤيتها واللّعب بها كلّما آنست منه غفلة. قال والدي وكأنّه يخاطب الآلة وهو يمسحها بثوبه المتّسخ: «يللاّ لنشوف. يللاّ اشلحي كيلوتك».

www.ibtesama.com

تسمّرت في مكاني غير مصدّقة ما أسمعه من والدي الّذي لم يزل يمسح الآلة ويقول: «أنت معاينة من قبل؟ أو جديدة على الكار؟». لم أعرف لمن يوجّه الحديث، إذ لم تتحرّك أيّة واحدة منهنّ، وإذا تحرّكت فَلِتُبعد وجهها عمّا حولها ولتلصقه بالحائط.

اقتربت الرّاهبة من السّرير الأوّل وأمرت المرأة الّتي كانت تحتلّ السّرير الأوّل بأن تسرع لأنَّ الطّبيب في غاية الانشغال، وإذا بالمرأة ذات النّظرة الجامدة تتحرّك في السّرير وكأنّ رأسها لا يمتّ إلى تحرّك جسمها. اقترب والدي يكشف عنها الغطاء كما يكشفه عنّي ملاعباً عندما كنت أختبئ تحته وأناديه. تحاول المرأة أن تلمّ نفسها بأن تشدّ قميص نومها على فخذيها لكن والدي يصيح بها: «هلّق جاية تعمليلي حالك مريم العذراء، ليش ما عملت مريم العذراء امبارح لمّا لقطوك وكعب اجريك ما شاف إلاّ السّماء؟» ثم استدار يسأل الرّاهبة عن المكان الذي ألقي القبض فيه عليهنّ لتجيبه بامتعاض بأن المكان كان مقبرة سنّ الفيل، وإذا بوالدي يصيح بهنّ، يتّهمهنّ بالبلاهة، لأنّهنّ فضّلن المقابر على السّوق العمومي، وهو يعدّد لهنّ مزاياه، عدا عن معاينته الدّائمة لهنَّ فإن غرف السّوق العمومي مرتّبة، نظيفة، ذات ماء ساخن، لينهي صراخه مذكّراً بأنَّ قبالتهنّ أفضل مخبز في بيروت.

يشدّ والدي قميص نوم المرأة عالياً، حتّى رأيت بطنها الكبير، وأسفلها الّذي لم يكن كأسفلي بل كأسفل أمّي المليء بالشعيرات، ثمّ يقرّب منها ناظوراً، تضمّ المرأة فخذيها ووالدي يبعدهما عن بعضهما بكلّ قوّة وخشونة، ثمّ يطلب من الرّاهبة أن تلقي نظرة على

www.ibtesama.com

حالة المرأة. لكن الرّاهبة أدارت وجهها باشمئزاز، كذلك فعلت أنا، ووالدي يميل برأسه، غير مصدّق ما يرى، وهو ينعت المرأة بالقذارة، مُنْهِياً معاينته لها وهو يتوعّدها بأنّها سوف تموت إذا لم تأخذ بنصائحه وأدويته، ثم انتقل إلى الأخرى وأوشك أن يعاينها فحانت منه نظرة إلى السّرير الأخير الذي ربّما كان يعدّ ما تبقّى له من المعاينة وإذا بشرايين أنفه الدّقيقة الحمراء تودّ الانفجار، ينادي اسمها الّذي كان نفيسة، ويطلب من الله أن يقوم بتنفيسها كالبالون، وبأن يتركها جلداً وعظاماً وهو يصيح بها: «هيك، هيك هيك».

وهجم يشدّ الشرشف عن الوجه الجذّاب، يتّهمها بنكران الجميل والإحسان، وبأنّها بلا ضمير، بلا شيء، فقط بالّذي تحمله بين فخذيها وتطوف به. ثمّ التفت حوله، وعندما انتبه إلى وجودي قال مهدّئاً بأنّه سيأخذني في نزهة ولا أجمل منها وهو يمسك بيدي، ويقول للرّاهبة: «أنا رايح جيب جوزها». ثمّ يفلت يدي ويقترب من سرير نفيسة، يهزّها من كتفيها بكلّ غضب صارخاً بها: «لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، الرّجال سترك، ليش ما بقيت مستورة. خلص.. انتهى أمرك.. بكرة خيّك بيوصله الخبر ويا ويلك...».

أمسك بيدي من جديد وهو يهرول خارجاً من الغرفة والرّاهبة تلحق به تحاول إقناعه بأن ينهي معاينة الأخريات فيطمئنها بأنّه سيعود ما إن يعثر على زوج نفيسة قبل أن يستسنح الفرصة ويختفي هو الآخر. ولم يستوقفنا سوى صوت نفيسة الخافت:

ـ «يا حكيم تسمحلي بكلمة؟».

www.ibtesama.com

ـ «الله يعدّمني إيّاك، والله عارفها الكلمة.. التّوبة، يا حكيم التّوبة» وهو يقلّد صوتها.

ـ «يا حكيم، يا ريت سترني ونسي.. كلّ حركة، كلّ كلمة بذكّرني شو كنت.. بهدّدني وبقول بدّي ابعتك محلّ ما جيتي. إذا حطّيت أصبع حمرة على شفافي، يجنّ وبقللّي شو مشتاقة للتّعريص، لمّا رحت زرت أخته بالمستشفى اتهمني أنّي كنت عم عرّص راح وسألها وحلفت هي عالقرآن أنّي كنت عم زورها، كلّ هيك وما صدّق حتّى أخذني وصار يدور على المرضى الباقين بالأدوة اللّي ما قادرين حتّى يتنفّسوا يسألهم إذا شافوني أزور أخته...».

ولم يجبها والدي بغير: «لا حول ولا قوّة إلاّ بالله». رغم أنّي شعرت بأنّه لم يعد عدائيّاً تجاهها. خاصّة أنّها أجهشت بالبكاء وهي تكمل: «هيك هيك عم يتّهمني وما عم يصدّقني.. قلت يا بنت استفيدي بكم قرش».

ركبنا السيّارة من جديد ولم أستطع أن أسأل والدي أيّ سؤال، كان يسرع بقيادة السيّارة وينسى أنّه قد أشعل سيكارة فيعود إلى إشعال أخرى وهو يزفر ويحادث نفسه لاعناً الشيطان لأنّنا سوف نتأخّر والدّجاج المذبوح لن يعود طازجاً. وسألته: «شو عملت نفيسة حتّى أنت زعلان منها يا بابا». بدلاً من أن يجيبني أخذ يصعد بالسيّارة فوق تلّة مرتفعة. أخذ الأمل الضّئيل الّذي كان يراودني بأنّنا سوف نمرّ بالقرب من الدّكاكين ليشتري لي شيئاً ما، قد اختفى. لكنّي لم أبال.

أوقف والدي السيّارة وأنزلني معه. سرنا في طريق ترابيّة فوق

www.ibtesama.com

الحشيش ولم أستطع تفادي بقع الماء والوحل رغم توصيته، بدت السيّارات والطّرق السفلى بعيدة عند هذا الارتفاع الّذي لم أعتد عليه والّذي جعل قلبي يهبط خوفاً من التّزحلق والتّدحرج حتّى الطريق السفلى. رغم أنّي كنت أشدّ على يد والدي جيّداً.

ما إن بَلَغْنا آخر الطّريق حتّى أصبحنا فوق أعلى قمّة التلّة الفسيحة وكأنّها ساحة العيد. إنّما للأغنام الكثيرة بدلاً من أن تكون للأولاد. أغنام كثيرة منتشرة هنا وهناك، تمنّيت لو أسرع لأضع يدي على صوفها وأنا أغنّي لها: «غنمي، غنمي ما أجملك، في موقفك تحت الشّجرة.. سيري سيري نحو المرعى..»، لكن ما إن أصبحنا بالقرب منها حتّى أقلعت عن فكرتي وجمدت في أرضي، فأنا لم أر من قبل أغناماً بتلك الكثرة وعن هذا القرب، وقد تلطّخ صوفها بالوحل وعلقت به قُصاصات الجرائد والأوساخ، تنادي كالأطفال الصّغار وكأنّها تعاني من آلام شديدة أو كأنّها أضاعت أمّها. لم تكن كما في صورة كتاب القراءة، جميلة سعيدة بالعشب. لربّما هذا العشب الخفيف ليس كافياً وهي تنادي من الجوع. كان أصحابها من الرّجال الّذين لم أرَ مثلهم من قبل، قصيري القامة، متجهّمي الوجوه، أفواههم مليئة بالأسنان الذهبيّة الّتي كانت تلمع من البخار المتصاعد من أفواههم كلّما تكلّموا رغم أنّي لم أر بين أصابعهم السّكائر. كانوا ينتعلون الجزمات السّوداء العالية، ويعتمرون قبّعات سوداء من الفراء.

أخذ والدي يسأل عن أمين الحلبي. عن الحلبي، عن الغنّام، عن أمين الغنّام، وينتقل بي من حلقة رجال إلى أخرى، من ضجيج إلى

www.ibtesama.com

آخر، من أصوات تتصايح إلى أصوات تتصايح، ونحن نخترق قطعان الغنم أو ندور حولها، إلى أن توقّف والدي عند رجل مربوع القامة ما إن رأى والدي حتّى تمتم بكلّ برودة: «أهلاً بالحكيم»، وما كان من والدي إلاّ أن قبّله على الوجنتين وأسرّ في أذنه شيئاً، تراجع الرّجل، لكن والدي عاد يمسكه من كتفه ويقترب من أذنه، وخرفان أمين الحلبي تنادي بأعلى ثغاء. والرّجل يتراجع يحاول الهرب من كلام والدي، ثم ليحكّ أذنه بإصبعه الصّغير ويعود ينظر إلى ظفره الطّويل ويمسح بسترته ما علق به من صمغ أصفر، ليتكلّم أخيراً، إنّما ليعلو صوته على قطيعه: «والله والله.. أحبّ ما عليّ أخذ نفيسة وأذبحها بالمسلخ. ذبحها أكثر حلالاً من ذبح هالخرفان» وهو يشير إلى بناء انتبهت لوجوده فجأة. يذبح نفيسة؟ ولم أستوعب ما يقوله، ولم أستطع الاستفهام.

هكذا.. عرفت في قرارة نفسي أنّ السّكوت في هذه المناسبة من الضّرورة. حتّى إنّي لم أتحرّك كما هي عادتي عندما يتحدّث الكبار معاً وأترك وحيدة مع ضجري ونفاد صبري بل لبثت جامدة، ولكنْ متربّصة لأيّ حرف من كلامهما. وإذا بالرّجل يعلّق بعد أن قال له والدي: «صلّي عالنّبي» بثورة عارمة: «لو ما صلّيت عالنّبي كنت حطّيت السكّين بقلبها... إي والله لمّا كمشوها مسكت السكّين ورحت مثل المجنون...».

إذاً يمكن أن يُذبح الانسان أيضاً كالدّجاج، كالأغنام. هل هذا معقول؟ أن يُذبح الإنسان أن... ونظرت إلى المسلخ والحيرة والخوف يعتلياني. لا يمكن أن تُذبح نفيسة. أرى رجالاً ينقلون على أكتافهم عشرات الجلود الصّوفيّة وعشرات الخرفان المذبوحة إلى

www.ibtesama.com

شاحنة. عندها فقط أيقنت أن نفيسة لن تُذبح. لأنّه لا يمكن أن تتدلّى نفيسة من على ظهر الحمّالين هكذا... تنفّست الصّعداء وأنا أرى والدي يمدّ يده للرّجل بسيكارة ويشعلها له. والرّجل يربت على كتف والدي.. وأنا أتأمّل جدران المسلخ الخارجيّة ملطّخة باللّون الأحمر الأرجواني الّذي اكتشفه الفينيقيّون من الحلزونة. أرى شاحنة أخرى تقف عند بابه ورجالاً ينقلون على أكتافهم عشرات الجلود الصّوفيّة والخرفان المذبوحة أيضاً. تُغاء الأغنام يزداد. أرى قطيعاً يساق باتّجاه البناء، لابدّ أنّها تعلم أنَّ هذا البناء هو الآخرة، هو جهنّم الّتي تتحدّث عنها معلّمة الدّين.

الأغنام تنادي وأنا أشفق عليها. أجدني أمدّ يدي وألمس صوف إلية أحدها وأغنّي لها: «غنمي غنمي.. ما أجملك..» وإذا بها تستدير وتواجهني. هل سمعتني؟ ابتسم لها، لكنّ عينيها لا تريانني فكأنّهما من زجاج.

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

الرّوح مشغولة الآن

على الرّغم من أهميّة هذا اليّوم بالنّسبة إليّ، إلاّ أنّي حاولت التملّص منه. نهضتُ في اللّيل وأنا أغلي، متأكّدة من أن حرارتي مرتفعة. ناديتها بتوسّل كي تترك أجسام المرضى وتأتيني. أنا بحاجة إلى ملازمة الفراش، إلى الارتعاش حتّى اصطكاك الأسنان، إلى الإحساس بالتّعب في مفاصلي. ابتهلت إلى آلام الرّأس حتّى تشتدّ فلا تدعني أفكّر إلاّ في كيفيّة تخفيفها عنّي، لكن تليفون ابنتي في أميركا لم يتح لي الفرصة لأن ألعب دور النّعامة المريضة. أنهضتني مكالمتها من الفراش، جرّتني إلى الدّولاب. أمسكت بيدي، جعلتني أسحب فستاناً من قعر الدّولاب.. من بين الملابس الشّتويّة والصيفيّة.. من بين الأحذية الّتي كانت تختلط بحقائب اليد والعقود.

أراني أختار الفستان الّذي كان زوجي يحبّه عليّ، وأفكّر أنّ غياب ابنتي سهّل لي العيش في هذه الفوضى. أجد نفسي أبارك ابتعادها عنّي، وأنا أرى العلاقات فارغة، والفوضى تدبّ في بيتي هنا وهناك.

أردت أن أنهض من أحلامي وكوابيسي مذعورة أو مسرورة من غير رقيب، أن أعيش بلا سماع كلمة «شدّي حيلك». ألبس الفستان الّذي لم أضعه على جسمي منذ مدّة طويلة وأنا أفكّر أنّه من السّهل أن يقال للمريض: «شدّ حيلك»، وللمتضايق: «بسيطة ولا يهمّك»،

www.ibtesama.com

وللمرهف الاحساس: «بكرة بتنسى».

أشعر أن الفستان يكاد يخنقني. أخلعه كمن يشدّ عنه دود العلق، أرميه أرضاً، وآخذ بالبكاء، ثمّ أعود ألمّه عن الأرض وأرتديه بهدوء، فأنا أريد السيطرة على عقلي الّذي يأخذني في رحلة عبر دروب متشعّبة متناقضة. أعانده فيغلبني. ها هو يجعلني أفكّر أنّه لربّما أطلّ زوجي على الحفل من نافذة بيت أو سيّارة. عندما أيأس من هذه الفكرة وأقسم ألّا أبالي بعقلي، يعود فيفاجئني بمسالمته، يحثّني على الاعتناء بمظهري حتّى لا أسمع تعليقات العائلة: «عاملة بروحك إيه؟» ثم تعليقات أخرى: «يا ريت عاملة بروحها حاجة... كنّا تأكّدنا أنّ هي بنتنا صحيح».

اليوم يسمّى الشّارع الّذي كانت تسكن فيه أمّي باسمها. كانت من أوائل ممثّلات المسرح. اشتهرت بتمثيلها وبشخصيّتها الفذّة على الرغم من أنّها تزوّجت وطلّقت من أربعة، وخامسهم كان يقارب سنّي الآن. إلّا أنّ موهبتها وجدّيتها في التمثيل أعفتاها من الانتقادات لحياتها الخاصّة. قيل لي إنّ مندوب الوزارة سيكون حاضراً، كذلك سكرتير وزير الفنون. لا أعرف إذا كانوا سيثبّتون اللّوحة البيضاء الّتي ستحمل اسمها على الحائط بالاسمنت أو بالمسامير. الحياة ليست عادلة. يُقدّر المبدعون وهم إمّا على حافة قبورهم، وإمّا بعد مماتهم، فأمّي أيضاً لم تعِ وسام الفنّ الّذي استحقّته وإن كانت حيّة بالنّسبة لمن حولها. إلّا أنّها كانت قد ماتت منذ أن أدركت أنّها مريضة مرضاً عضالاً. وقتها لمّا أمسكت بيدها أحسست كأنّي أمسك كتلة من عظام. رجتني أن لا أدع أحداً يدخل الغرفة.

www.ibtesama.com

كانت قد تبدّلت كلّها حتّى ملامحها، بل لم تعد هي تتعرّف على نفسها. حتّى وعندما بكت وأنا أضع الوسام قربها، بدا بكاؤها كأنّه شخير أو ضحكات مجلجلة، ولم أفهم ما يحدث لها إلا عندما تمتمت: «يا ريت أبدّل الوسام بساعة واحدة من غير ألم». وقفت في عرض الشّارع أستأنس بوجود الفنّانين أصدقاء أمّي الّذين عرفتهم منذ صغري، واكتشفت كم أنا فرحة لأنّ المرض لم يستجب لدعائي إلى أن أخذ أفراد عائلتي يتناثرون في الشّارع خاصّة أخوالي الّذين قاطعوا أمّي مدّة طويلة لأنّها امتهنت التّمثيل وعادوا فصالحوها لمّا أصبحت مهمّة، وهاهم الآن يحتسون العصير ويقفون بكلّ فخر. يحاولون التّقرّب منّي وأنا أتهرّب من نظراتهم، لا أريدهم أن يدعوني إلى بيوتهم بعد الحفلة. لا أريد أن أسمعهم يتحدّثون عن خوفهم عليّ وعلى مستقبلي وعن مدى ضيقهم إزاء الحياة الّتي أعيشها. رغم أنّي بين الأصدقاء وكلّ من مثّلت أمّي معهم، وكلّ من تزوّجتهم، وصخب السيّارات في الشّوارع الموازية لشارع أمّي والفضوليّين من الصغار الّذين أرادوا شرب العصير دون أن يلمّوا بما يجري.. شعرت بنظرات تسترق إليّ وتلسعني، فيرتبك حديثي، وأجدني أتصنّع الحيرة تارّة والمرح تارّة أخرى. رغم استنكاري للفكرة، أجدني أحدّق إلى الوجوه الّتي أعرف غالبيتها، ثم أرفع نظري إلى النّوافذ والشّرفات أبحث عن زوجي، ولم يغب عن بالي إلاّ عندما هاج الحضور.

مندوب الوزارة يلصق على الحائط بالإسمنت اللّوحة البيضاء المكتوب عليها «شارع أمينة سليم». سالت دموعي عندما زغردت امرأة كانت تقف إلى جانب تانت سامية، الّتي صفّقت بدورها تصفيقاً

www.ibtesama.com

لا تقوى عليه شابّة. وما إن نزل مندوب الوزارة عن الكرسيّ الّذي كاد يفقده توازنه حتّى أسرعت تانت سامية تغتنم فرصة ارتباكه وتمسك بيده وتريه عينيها بعد أن خلعت نظّارتها. أسمعها تردّد: «ميّ زرقا، وعمليّة، والأحوال صعبة، والدّولة لازم تتذكّر الفنّانين القدامى». وفعلاً بدوا قدامى، من استطاع السّير منهم حضر الاحتفال إذ التّنقّل والمواصلات صعبة للمعافين فكيف للعجائز والمرضى والفقراء؟ كانوا سعداء رغم أنَّ بعضهم ما استطاع إظهار سعادته من جرّاء المرض أو البؤس أو تذكّر الشّباب والماضي. بدوا كفرقة متجوّلة لا تجد لها خشبة مسرح أو جمهوراً أو حتّى أجرة تنقّل. اختلفوا عن بقيّة الحاضرين بوجوههم وبملابسهم الغريبة، إن كانت مهترئة فهي لاتزال عليها مسحة من عراقة وخيال. ربّما هي ملابس المسرحيّات الّتي كانوا يمثّلونها، خاصّة ملابس العمّ بدير الّذي كان يرتدي بدلة بيضاء واسعة، مبقّعة بالصّدأ، وقبّعة من القشّ بلا أطراف. ما إن هبطت العتمة وتفرّق المدعوّون حتّى تأبّطتني تانت سامية وقالت: «يللاّ نروح عندك. لازم نخبر الستّ أمينة باللّي صار... نفرّحها شويّة». التفتُّ إليها بذعر، هل ابتدأت تختلط عليها الأمور والوجوه هي الأخرى؟ إذ إنّي اعتدت في الآونة الأخيرة سماع أطرف وأتعس الكلام من أصدقاء أمّي الّذين أصادفهم وأعرفهم بنفسي. فقد كانوا يمسكون يدي ويسألونني عن أحوال الستّ أمينة، وإذا كانت صحّتها في تحسّن، رغم أنّهم مشوا في جنازتها، أو كانوا يستفهمون من أنا ومن هي أمينة. وعندما لم تفارق تانت سامية يدي، وجدتني أرحّب بتشبثّها بي لأن إلحاح أفراد عائلتي على أن أكون بينهم هذا المساء كان يزداد كلّما أكّدت لهم بقائي مع تانت سامية، إذ

www.ibtesama.com

لم تصدّق نظراتهم المعاتبة أنّي أفضّلها عليهم خاصّة وأنّ تانت سامية بدت لهم فعلاً مسكينة وهي تحيط كتفيها بفرو ثعلب تآكل وجهه وأذناه، وانتشرت شعيراته على ملابسها حتّى رست واحدة على شفتها السفلى بينما غابت معظم أسنانها الأماميّة عن فمها. ثمّ انتقلت نظراتهم المؤنّبة إلى صديقة تانت سامية، وكان اسمها نازك، وكانت كأنّها لا تقوى على الوقوف أو على السّير بحذائها ذي كعب الفلّين الّذي كاد يوقعها أكثر من مرّة.

وما عرفت بما أجيب تانت سامية وهي تكرّر كم هي سعيدة لأنّها ستزفّ بنفسها الخبر للستّ أمينة. غيّرت الموضوع وسألتها كاذبة إذا كانت فكرة كتابة مذكّرات أمّي فكرة جيّدة، فأجابتني بسرعة: «أنت بنت أمّك، وفيّة. أنا تحت أمرك. عندي ذكريات وقصص وصور، عندي وعندي..» وأنا ألوم نفسي لأنّي شككت في صحّة عقلها وفي أنّها لربّما قصدت ابنتي الّتي دعوتها أيضاً باسم أمّي. وأضافت: «كمان نخبرها عن الكتاب اللّي حتكتبيه عنها». تأكّدت مرّة أخرى أنّها فقدت عقلها، وشعرت فجأة بالضّجر وبالتّعب، وتمنّيت لو أعتذر منهما، وفعلاً ابتدأت أشكو لهما آلامي. فانبرت تانت سامية قائلة بحنان: «دلوقت نعملّك مساج، ونطبخلك شوربة موزات قبل ما تنامي وتستريحي». أشفقت على طيبتهما وأنا أضحك في سرّي لتخيّل أيديهنَّ الهرمة تدلّكني. وعدت أخبرهما ونحن نسير بأنّني أشعر بتحسّن عظيم، وبأنّ الوقوف طويلاً لابدّ أن يكون هو الّذي أتعبني. تذكّرت وأنا أدير مفتاح الشقّة أنّي تركتها في فوضى، لكنّي أسرعت أطمئن نفسي بأنّ عقل سامية قد تشوّش ونظرها ضعف وبأنّي

www.ibtesama.com

لا أعرف نازك. قلت: «تفضّلوا» وأشرت إلى الكنبة وأنا أرفع قميص نومي عنها وعدت أردّد: «اتفضّلوا استريحوا»، لكنّهما لم (تتفضّلا، ولم تستريحا).

دارت عينا كلّ منهما في غرفة الجلوس، لتسرع تانت سامية إلى طاولة الطّعام وتتحسّس سطحها وتقول: «معلهش يا حبيبتي.. . الطّاولة أحسن!» ثمّ أمسكت بالشّرشف وقالت: «ياه شرشف الستّ أمينة.. أنت بنت أمّك، وفيّة والله العظيم».

استأذنت لحظة لأدخل غرفتي. ماذا لو أنام أو أقرأ في كتاب؟ كنت أعرف أنّي أتحايل على نفسي. أريد أن أكون وحيدة كاسفنجة بانتظار أن تمتصّ حتّى لعاب النّملة خاصّة وأنّ اليوم هو الماضي في ذروته. أسمع تانت سامية تسأل نازك أن تسدل السّتائر. لم تعد عيناها تفرّقان بين اللّيل والنّهار. أندم لاصطحابي إيّاهما، ثم أعود فأتراجع وأنا أذكّر نفسي بما كانت تقدّمه تانت سامية من خدمات لأمّي. أتحايل وأتحامل على نفسي وأنا أنهض وأسألهما: «ماذا تشربان؟» قالت تانت سامية وهي تشعل سيكارة: «ما تتعبيش نفسك يا حبيبتي.. حاجة باردة.. كازوزة والنّبي». ولما انتبهت إلى أنّي مازلت أنتظر جواب نازك المنهمكة بالبحث في كيسها، أشارت التّانت سامية بما معناه أن أتركها وشأنها وهي تضيف: «معلهش.. ما تتعبيش روحك. نازك تشرب زيّي». فكّرت في حيرة كيف تذكّرت هي شرشف أمّي وأنا أقدّم لهما الكازوز. كرعتاه دفعة واحدة وأمسكت نازك بالكوبين وهي تنهض. رجوتها أن لا تعذّب نفسها وأن تتركهما على الطّاولة، لكنّها أصرّت وهي تقول: «لازم الطّاولة تكون فاضية. مين عارف، يمكن تنكسر حاجة». بينما همست تانت

www.ibtesama.com

سامية في أذني: «والنّبي تغسلي إيديك. لازم ونحن في حضرة الرّوح نكون طاهرات، ولا مؤاخذة بالسؤال ده. ما عندكيش العادة واللّاحاجة من ده؟».

أخرجت نازك من الكيس خشبة مربّعة وفنجان قهوة رقيقاً بلا أذن. وقد كتبت الأحرف الأبجديّة على الخشبة كذلك كلمتي (نعم) و(لا)، ورسمت في وسطها دائرة تماماً كورقة تحضير الأرواح الّتي كنت أراها في أيدي زملاء الدّراسة. ووجدتني أستفهم: «خشبة؟ مش ورقة؟» أجابت تانت سامية: «ورقة؟ هو الواحد فاضي يعمل كلّ يوم ورقة؟». قرّرت أن أتركهما وآتي بكتاب. أفكّر أنّي أتصرّف إزاء تحضير الأرواح كما في الماضي فأنا استغربت شيوعه وحماس التلامذة له، إذ كنت مشغولة بالأحياء حولي. أمّا الأموات فكانوا وهماً. لم يكن الموت في تلك السنين قد أخذ أحداً من عائلتي أو ممّن أحبّهم أو حتّى ممّن أعرفهم. أذكر كيف جلست غير مصدّقة أن الفرصة قد سنحت أخيراً للشّاب الّذي كان يلاحقني منذ مدّة لأن يكون معي ويحدّثني، ومع ذلك فضّل تحضير الأرواح والتحدّث مع الأموات. لكنّ تلك الأيّام الّتي كنت أنبض فيها بالحياة قد مضت.. أمّا اليّوم، أما الآن، فأنا ميّتة ولا أريد أن أتسلّى مع سواي من الأموات أو أكون حتّى شاهدة على أيّ شيء، إذ حتّى المشاهدة تحتاج إلى جهد. لكنّ تانت سامية ونازك اعتبرتا جلوسي بينهما علامة مشاركة ورضا، إذ طلبت منّي تانت سامية أن أضع سبّابتي على أحد طرفي الفنجان، وقرأت الفاتحة ثم سورة أخرى، بينما وضعت نازك سبابتها على الطّرف الآخر من الفنجان الّذي بدا مسجوناً داخل

www.ibtesama.com

الدّائرة المرسومة، ثمّ استدعت سامية روح أمّي ونادت: «إذا حضرت قولي نعم». وتحرّك الفنجان، وسارت إصبعي معه وهو يحدث صوتاً خفيفاً كالوشوشة حتّى رسا على كلمة «نعم» ثم انفرجت أسارير تانت سامية وهتفت: «والله وحشاني يا ست أمينة». همست نازك: «مش لازم تقولي وحشاني. ده فال». «أهلاً بالستّ أمينة من زمان، اليوم احتفلنا بك. سمّوا الحتّة اللّي كنت ساكنة فيها على اسمك. القاهرة كلّها وقفت على رجليها، الوزراء والوكلاء كلّهم كانوا وزيّنوا الشّارع بالأعلام وكان في مزيكة». ثم غمزتني كمن تعتذر من مبالغتها، بل من كذبها وأردفت: «سامعاني؟»، وتحرّك الفنجان إلى كلمة (نعم). «مبروك عليك ألف مبروك». ثمّ تابعت تانت سامية كمن تتحدّث بالتلفون. كان أحمر شفاهها قد بدا مضحكاً. تصوّرت أمّي تضيق ذرعاً بتانت سامية، وفكّرت أنّ روحها تتثاءب خاصّة وأنّ لهجة تانت سامية لم تتبدّل وهي تستأنف: «نحن في بيت بنتك الوفيّة. آه هي موجودة معنا حتسلّم عليك. بس قوليلي مبسوطة بالخبر؟». وتحرّك الفنجان «نعم» ثمّ إلى أحرف «ك ت ي ر». سألتنا التانت سامية: «هي قالت إيه؟» وهي تحاول أن تلحق بالفنجان، ولمّا كادت عيناها تلمسان الخشبة صاحت بها نازك وهي ترفع لها وجهها: «بتقول مبسوطة كتير قوي»، ثمّ وضعت تانت سامية سبابتها على الفنجان حتّى تحلّ محلّي وقالت: «دورك يا حبيبتي». تصنّعت البكاء وهززت رأسي نفياً لأسمع تانت سامية تقول من جديد: «بنتك الظّاهر متأثّرة.. معلهش انصرفي أنت دلوقت يا أمينة». ثمّ قرأت سورة الزّلزال ثلاث مرّات وآية أخرى. ثمّ تبدّلت رنّة صوتها وهي تقول في شبه تأفّف: «يللاّ يا نازك دورك وبعدين دوري». وبدت نازك غير

www.ibtesama.com

متحمّسة، لكنّها استحضرت روح أمّها مرّة وثانية قبل أن تقول في يأس: «أنا عارفة، ما فيش جواب. يمكن روحها ضايعة واللاّ حاجة». وفعلاً بدا الفنجان على الخشبة جامداً. ثم أعادت الكرّة. نفثت تنهيدة ثمّ قالت: «لما أحضر الرّاجل اللّي طلع لنا مرّة. اسمه ايه يا نازك؟ افتكرت.. فاضل». تستفهم تانت سامية بنفاد صبر: «راجل إيه؟ وفاضل مين؟». تجيبها نازك «الرّاجل اللّي طلع لنا بالغلط وأنا بحضر روح أمّي، النّوبة اللّي فاتت». أجابت تانت سامية بكلّ ملل: «آه افتكرت» ثم استدعته نازك تسأله عن أمّها: «أنا بنتها اللّي كلّمتك النّوبة اللّي فاتت، والنّبي تشوفها لي، أنا مستنّية». ثم سار الفنجان، وانحنت برأسها تقرأ أين يسير: «مشغولة.. بتقول إيه؟ مشغولة؟ مش معقول. آه مش موجودة». ثمّ صاحت تانت سامية وقد سحبت سيكارتها بعصبيّة: «هو بيضحك علينا. مشغولة ومش موجودة. هي حتروح فين؟ ده أوّل مرّة أسمع إنّو الرّوح بتنشغل؟ مش معقول. لازم هي لسه زعلانة منك يا نازك. شدّي عليه قوليلو إنّها هي لازم زعلانة عشان دفنتيها بالقاهرة مش بالبلد... خلّيه يشرحلها أنّك دفنتيها بالقّاهرة عشان تزوريها أكثر».

ردّدت نازك كالبّبغاء كلام تانت سامية للروح فاضل، وانتظرتا أن يتحرّك الفنجان. وعندما لم يتحرّك صرفت نازك روح الرّجل وجلست شاردة.

هل سار إصبعي على الأحرف فعلاً بعد أن زوّدته الرّوح بقوّتها الجارفة أم أن نازك أو تانت سامية هما اللّتان جرّتا الفنجان؟ رغم أنّي أتأرجح بين التّصديق وعدمه إلا أنّ عقلي لا يرى الآن إلاّ الأرواح

www.ibtesama.com

البيضاء وفوقها الشراشف البيضاء، وأجده يدعها تسبح في تلافيفه. أعادني صوت تانت سامية الّذي تبدّل لأوّل مرّة وهي تحضّر روح ابن أخيها عفيف. صوتها الآن يبكي ويبتهل. تسأله عن حاله وإذا كان يسمعها جيّداً وإذا هو بصحبة أحد. لمّا توقّف الفنجان على كلمة (نعم)، سألته المغفرة وبكت ثمّ تمالكت نفسها وجفّفت دموعها بكمّ فستانها، كم يبدو بؤبؤ عينيها كرأس دبّوس. تعيد النّظّارات إلى عينيها، حتّى تتكلم بجدّيّة وتخبره بالتفصيل عن أولاده: «أحمد ومحمّد ومصطفى ونورة. علامات كلّ منهم في المدرسة. أمّ محمّد، مراتك لسه لئيمة الله يسامحها»، ثمّ تستغفره وتطلب منه الصّفح. «ذبحنا خروف عالعيد وكّلناه برسيم الأوّل عشان يسمن. بكلّمك من عند بنت الستّ أمينة، صار لأمّها شارع باسمها والوزير كان حاضر وقال كان يشوفني عالمسرح وهو من المعجبين بي. كلّمته عشان عمليّة الميّ الزرقا». شعرت بالفنجان يسحب بقوّة لم أعهدها به. حتّى نازك شعرت وصاحت: «يللاّ يا سامية اصرفيها الرّوح ضاقت.. بتسحب الفنجان». بلعت تانت سامية ريقها وأسرعت تسأل: «وكده خلاص مستعجل يا حبيبي، مع ألف سلامة. انتبه لروحك يا حبيبي». ثمّ صرفته واستدارت إلينا صائحة باكية. لم يعكس فمها المطلي بالأحمر ونظّاراتها السوداء القهر الّذي تعانيه: «أنا عارفة هو مش مسامحني، شفتو ازاي كان مستعجل؟ مش مسامحني، معاه حقّ. قبل ما يموت قال لي مريض يا عمّتي، ما صدقتهوش. ما حدّش يصدّقه، صار يتعكّز على العصا ويرتعش، وأنا أقلّده والكلّ يضحك. قبل ما يموت بأسبوع واحد، قال لي خلّيني أبات عندك أنا وأولادي يا عمّتي كم يوم لغاية ما يدبّر الله أمرنا، مارضيتش، قلت

www.ibtesama.com

كم يوم بيصيرو كم سنة. ونصحته يفتّش على شغلانة. كان صيته وسخ، سباق ويانصيب. معاه حقّ. المسكين كان يراهن عشان يكسب ويعيش».

«ياه.. السّاعة صارت تسعة». قالت نازك وهي تنظر في ساعتها قبل أن ترفع الخشبة لتعيدها إلى الكيس. شعرت بالقلق. إنّ ما يشغل عقلي الآن يتعلّق بما يدور في الغرفة كأنّي لم أعد مشاهدة. لم أعد أفكّر إذا كانت نازك تحتال على الفنجان وتسحبه إلى الأحرف الّتي تريدها. أحاول فهم الأحاسيس الّتي تنتابني الآن. أحاول فهم ما تفعله سامية ونازك. إنّهما تريدان الوصول إلى نقطة تصالح مع الأموات حتّى تستطيعا العيش براحة مع الأحياء.

ذهني يحدث آلاماً في رأسي، اسأل تانت سامية في تردّد وخجل إذا كنت أستطيع تحضير روح ما عزيزة عليّ من غير أن أرفع صوتي. ردّت تانت سامية بسرعة: «وماله يا حبيبتي، نطلع البلكون»، ثم استدركت وأردفت: «لا مش ممكن لوحدك. إيه رأيك تحدّثي الرّوح بفكرك وهي لازم تسمعك». قاطعتها نازك: «حرام مش ممكن». نبرت بها تانت سامية: «طبعاً حرام» ثم أكملت وباستهزاء: «حرام عليك لأنّك مش حتسمعي الكلام ومش حتقدري تنامي اللّيل. يا للحشرية!».

هزّت نازك كتفيها بلامبالاة وقالت: «على خاطركم».

أشعر بالحرّ وأنا أضمر، ثمّ كأنّي أسمع صوتاً يأمرني أن أتكلّم. أجدني أهمس: «هل صحيح أنّك ندمت لأنّك تركتني؟»، وإذا بالفنجان يسابق الرّيح! وإذ أجده يحطّ على كلمة «نعم» أرتاح. يرتفع

www.ibtesama.com

صوتي: «هل سناء هي الّتي»؟ «نعم». «هل عرفت بمرض قلبك قبل أن تطلّقني؟». «لا». «هل طلّقتني لأنّك بطّلت تحبّني خلاص؟» «لا». «هل يحبّها؟». «لا». «هل يحبّني؟». «نعم». عيناي كرة تنس تطير إلى طرفِي الخشبة حيث كلمتي «نعم» و«لا». العرق يصل حتّى أصابع قدمي «هل هو نادم؟». «نعم نعم». طفقت أبكي. حاولت النّهوض، لكن تانت سامية اعترضت بصوت خانق خائف ثمّ صاحت صيحة جعلتني أجمد مكاني: «يا بنتي حرام تتركي الرّوح معلّقة في الفنجان، ودّعيها، اصرفيها». ولمّا ازداد بكائي صاحت وهي تغالب ارتفاع صوتها: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله. الرّوح لسه عالقة بالفنجان يا بنتي». ثمّ استشهدت وتلت الآيات ثمّ استشهدت وقالت: «الرّوح مش راضية تروح. لازم تصرفيها بنفسك». ثمّ صائحة: «أرجوك أنا عارفة بتكلّم على إيه.. مرّة يا بنتي جت بالغلط روح واحدة ما نعرفهاش وقعدت معانا ليلة بحالها... بس ما تخافيش روح جوزك شهمة هو ابن أصل».

ابتدأتا تبسملان معاً. الخوف الّذي ملك وجهيهما أرعبني، لكنّي أخذت رأسي بين يديّ. لربّما انصرفتا وتركتاني وأنا أفكّر: «لتبق روحه معي، نتحدّث معاً بدلاً من المذياع الّذي أصبح صديقي منذ أن ترك البيت. تحاول سامية ونازك إنزال يدي عن رأسي، أشعر برائحة فم سامية وبلعابها يتناثر عليّ. هما تهزّانني بهدوء تارة وبقوّة تارة أخرى. وأنا لا أجيبهما ولا أفتح عينيّ. لِتَبْقَ الرّوح معي بدلاً من الأسئلة والمشورة الّتي أطلبها من عقلي إزاء زوجي، فيجد عقلي نفسه بين فخّين: الرأفة بي أو الحقيقة فيبالغ إمّا بالحبّ وإمّا بالقسوة، بتبرئة زوجي أو بإدانته. تلطمني سامية على وجهي وهي

www.ibtesama.com

تهدس: «عشان أرجعك لعقلك، سلامة عقلك يا حبيبتي، بس الرّوح عالقة لازم تصرفيها، أرجوك اصرفيها».

. . . قال لابنتنا أن تعطيني حبّة مهدّئ للأعصاب وتجرّني إلى المستشفى حتّى يراني ويودّعني وهو على فراش الموت. وإذ لم أصدّقها أتتني بورقة منه تقول: «تعالي لتلتقطي آخر أنفاسي» لكنّي اتهمتها بتقليد خطّه. إذاً مات وهو يحبّني، حتّى سناء اعترفت بهذا لابنتي وأنا لم أصدّقها.

أسمع تانت سامية تقرأ السّورة، تأمر الرّوح أن تنصرف، كأنّها تقرأها مرّة أخرى. ثمّ مرّة أخرى. يرتفع صوتها: «الرّوح مش راضية تروح» ثم تصرفها وتقرأ وتصرفها إنّما بصوت يكاد يقارب النشيج. تتدخّل نازك، كأنّها تتحايل على الرّوح فتقول بصوت مرتفع: «عمهلك عليه يا سامية. إزّاي يقدر يفارقها؟ لازم وحشه وجهها اللّي زيّ القمر. أنا عارفة هو مش حيروح. . إلّا إذا هي صرفته. . انتو نسيتو أنّها هي اللّي استحضرته؟ الله». إذا كان لا يريد أن يفارقني الآن فكيف استطاع أن يفاتحني بالأمر ذلك المساء، عندما عصرت كلماته كياني، كما يعصر الغسيل وهو يقول إنّه لا يستطيع العيش من غير سناء، أعزّ صديقة لديّ، وكنّا قد فتحنا لها بيتنا وقلبينا في أثناء قضيّة طلاقها من زوجها الّذي كان يرفضه لسنين. لم أودّعه، لم أره ميتاً أو مدفوناً، لم ألطم ولم أبك مع الآخرين، لذلك بقي موته لغزاً واقفاً على حافتيِ الواقع وعدمه. لطمة أخرى. كأنّ حجراً قبع على صدري منذ أشهر، انزاح فجأة. لطمة أخرى. وصراخ تانت سامية: «اصرفي الرّوح يا بنتي عشان خاطري، وخاطر نازك. عندنا أهالي

www.ibtesama.com

عايزين نبقى على اتّصال بيهم.. واللاّ أنت عايزة صيتنا يبوظ بين الأرواح..؟».

لو فقط تتركانني حول هذه الطّاولة. حيث كنّا نأكل. أرى يديه الآن ممدودتين فوقها، تلتفّان حول كأس الويسكي. على هذه الطّاولة حيث هو في الفنجان الآن كان يفرد الجريدة. على هذا الكرسي كان يجلس أو يحمله ليقدّمه للزّائرين يقف خلف ذلك البيك آب يضع اسطوانة ليصدح بعدها صوت أم كلثوم. لو تفارقني هاتان المرأتان النّائحتان البّاكيتان الخائفتان على الروح العالقة في الفنجان. أريد أن تظلّ الرّوح وسط هذا الفنجان هذه الرّوح هي الّتي عشت معها طوال سنوات حبّنا ثمّ زواجنا. إذ كان شعور التمنّي بأن أكون قربه يتملّكني حتّى وهو يلتصق بي. كنت أترقّب قبلته حتّى وهو يقبّلني. كان الشّوق إليه يغلبني ويصرفني عن الاستمتاع بدفء يده حتّى عندما كنّا نسير معاً.

كنت أتمنّى لو أنّ الطّبيعة تجد طريقة تتفوّق بها على التحام الجسدين عندما كان يبادلني الحبّ، وكانت الطّبيعة تستجيب لطلبي فما كنت أسترجع صوته حتّى يلامسني هو. أسترجع رائحته فأرتعش لذّة. كانت ومضة واحدة من الفكر هي مفتاح حبّي وجسدي.

مازالت المرأتان تلطمان خدّيهما، تستجديان بينما أفكّر أنا في البقاء عند هذه الطّاولة. سأتمدّد فوقها قرب هذا الفنجان. اللّيل طويل.. وصوت أم كلثوم سيصدح بعد قليل. سأجعله يسمعه كما يسمعني. كان بكاء المرأتين يبتلع كلّ ما في البيت حتّى ملابسي الدّاخلية. سأمسك هذا الفنجان وسأعصره بين نهديّ. سأعصره بين يديّ.

www.ibtesama.com

مدينة الملاهي

أصرّ خطيبي فريد على أن أرافقه مع العائلة لزيارة قبر جدّته في يوم وقفة العيد. كنت قد ظننت أنّ هذه العادة لكبار السنّ أو للوحيدين الّذين يستأنسون بالجلوس مع موتاهم، فالمثل يقول: «إذا ضاقت الصّدور، زوروا القبور». وما وعيت على أهلي يزورون القبور في الأعياد أو في أيّام الجمعة، على الرّغم من أنّي ابتهلت مرّة وأنا صغيرة أن يموت أحد لا أعرفه من عائلتي حتّى أدخل تلك المقابر. منذ أن اصطحبت مرّة طبّاختنا إلى بيتها الّذي كان يطلّ على منطقة المقابر ـ لابدّ أنّ هذه المرّة دمغت في عقلي ـ وأنا أتصوّر أنّ الأموات يعيشون في هذه الغرف والأبنية إنّما على شكل يختلف عنّا. ربّما يتحرّكون بلا صوت، أو يلازمون الأسِرّة.

وقتها بدت المباني مختلفة، غريبة، بقببها المزخرفة بلون التّراب. والأشجار القليلة الشّاحبة، والهضاب الّتي تدعو إلى التمرّغ على رملها ودحرجة الأجسام من أعلى. وأيقنت وأنا أسمع نباح الكلاب ومواء القطط أنّ هذه تحميها ولا ريب.

مررنا بأهل فريد، وما إن فتحت فمي أردّ على والده الّذي صافحني حتّى أطلّت أمّه، وباغتتني مستنكرة عدم وضعي القرطيْن الالماسيّيْن في أذنيّ. قلت: «مقبرة والماس؟». هزّت رأسها: «وما له؟ الكلّ حيكون هناك أنا عارفة، وحيقولوا إنّ العريس شبكك

www.ibtesama.com

بالدّبلة بس». ثمّ اختفت لتعود ببروش من الأحجار الكريمة وتقترب منّي لتشبكه على فستاني، فأتراجع، وأصرّ بكلّ دبلوماسيّة على أنّي لا أحبّ البروشات. وقد ردّت مستعجلة وهي تتّجه به إلى غرفتها: «طيّب تلبسي حلقي الفلمنك بسّ الكلّ يعرفه..». نظرت إلى فريد أستنجد به، فقال لها: «أنا مش عايزها تلبس مجوهرات». عندها فقط انتبهت إلى باقة الورد الأبيض الّتي كنت أحملها. أخذتها من يدي تشمّها وتبسمل بالنّبي ثمّ أسرعت تضعها في إناء بين زهور أخرى. كنت قد اشتريت الباقة رغم تردّدي لارتفاع ثمنها. خيّل إليّ أنها تنتظر من يمسك بها ويطري جمالها وشذاها. اشتريتها وأنا أبرّر لنفسي أنّها بالتّالي ليست لي، وبأنّه منذ اليوم لا ينبغي أن أشعر بوخز الضّمير كلّما اشتريت شيئاً غالياً، فأنا مخطوبة وسأتزوّج من شابّ يعيش في بحبوحة ماديّة. قال فريد لأمّه إنّ الورد للقبر. فأجابته وهي لاتزال تنسقها: «حرام، حلوة قوي..». غمزني فريد، فهمت ما ترمي إليه غمزته. تلفتّ حولي، كأنّي أهرب من ارتباكي إزاء تصرفها. أخذت أتصنّع بأنّي مهتمّة بما في السّلال الموضوعة عند الباب: كعك العيد والخبز الغريب الشّكل وملابس وأحذية تبدو قديمة.

جلست قرب خطيبي بينما جلست أمّه وأبوه وأخته المراهقة في المقعد الخلفيّ للسيّارة. يوم الوقفة كأنّه العيد. أينما كان في الشّوارع المزدحمة، فرقعات وضجيج. تذكّرت كيف كنّا نسرع عند عودتنا إلى البيت لرؤية الرّمل الدرّاقي اللّون وقد استوى في جواربنا وأحذيتنا. كنت أشعر كلّما أتى العيد أنّه يطلّ ونحتفل به للمرّة الأولى. أمّي تحضّر صينيّة الكنافة. نأخذها إلى الفرن. رغم وقوفنا

www.ibtesama.com

الطّويل أمام الفران وشخوصنا إليه حتّى يتذكّر صينيتنا إلاّ أنّه كان دائماً يسحبها متأخّراً فتصبح قاسية كالحجر. ومع ذلك كنّا نقضمها باستمتاع. أذكر شنطة العيد كذلك الجوارب حتّى في عزّ الحرّ والحذاء اللاّمع وشرائط الشّعر. كنّا نعدو إلى بيوت الأقارب حتّى البعيدين بقرابتهم وبسكنهم، ندقّ أبوابهم ونحن ننردّد «كلّ عام وأنتم بخير» من غير أن نعنيها. نشكّ في كذب الخال الّذي قال إنّه لا يوجد معه فكّة. نظلّ جالسين عند عتبة بيته طويلاً، ثمّ نعود إلى المراجيح والمخلّل، ونتداول بيننا الإشاعة بأنّ العيد سيمدّد يوماً أو يومين من أجل الصّغار.

كان يوم الوقفة كلّه عند المقابر. الأولاد بملابس ملوّنة. أصوات الميكروفونات تتلو القرآن وفي الوقت نفسه ثمّة أغانٍ تصدح من مكان ما. بائعات البلح وسعفه، واحدة منهنّ تدخّن سيجارة والأخريات يضحكن فتهتزّ ذقونهنّ المدقوقة بالوشم. بائعو العصير والمخلّل المتعدّد الملّون. أفكّر في أن أضع مثل هذه المراطبين في بيتي. بائعو الفلافل والفول. كلّهم عند المدخل هنا وهناك. تتوقّف أمّ فريد عند أوّل بائعة، وتشتري كمّية كبيرة من البرتقال واليوسف أفندي ومن سعف النّخل. تساوم البائعة الّتي فمها بلا أسنان ثم تعطيها مبلغاً وتمشي، فتلاحقها البائعة بصوتها: «يا ستّ، يا ستّ»، وعندما تحاول البائعة أن تستند بكفّها إلى الأرض حتّى تنهض أقول لفريد أن يدفع لها ما تشاء. «حرام مسكينة واليوم الوقفة». سرنا نلحق بأمّه الّتي كانت رشيقة رغم سمنتها، تثب فوق الوّحل والتّراب والحصى كأنّها غزالة وهي تحمل ما اشترته بينما تركت السّلال لفريد ووالده وأخته الّتي بدا عليها الضّجر والّتي وجدت نفسي أسير إلى

www.ibtesama.com

جانبها. كانت تنظر في ساعتها وتسألني رأيي في ما إذا كانت الشّمس ستظل غائبة. ولمّا سألتها لماذا، قالت بهمس: «عايزة روح النّادي أستحمّ واتشمّس». ابتسمت لها، كان الضّجيج يكاد يثقب طبلة الأذن. قرقعة الطّناجر وهدير بوابير الكاز حيث تنتشر النّساء في الحواري والطّرق الضيّقة والفسحات وبين القبور ليطبخن، بينما يختلط صراخ الأولاد بأصوات المقرئين الّذين ينتقلون من قبر إلى آخر ويدخلون ويخرجون من القبور الغرف الّتي هي للعائلات الميسورة. يحاول المقرئون رفع أصواتهم بلافائدة. ولولا تركيز السّامعين بكلّ حواسهم لما سمعوا شيئاً، إذ كانوا معظمهم في سنٍّ متقدّمة على الرّغم من أنّه كان هناك مقرئون شبّان يستندون إلى جدران الغرف الخارجيّة وإلى المقابر بملل. رأيت أم فريد تركض في الحوش من مقرئ إلى آخر والكلّ يعدها بالمرور على غرفتها بمعاونة الغفير، وعندما تقدّم منها شاب مقرئ يعرض نفسه، تصنّعت الانشغال عنه. سألها فريد بغضب عن سبب رفضها، فأجابت: «ثواب العجائز عند ربّهم أكبر». ربّما لأنّ الوجوه الشابّة لم تكن تحمل البؤس والأسى كوجوه العجائز.

دخلنا باحة الجنينة. وكانت ثمّة قبور بيضاء وزهريّة مزخرفة الشّواهد. قال فريد إنّها لجدّ والده وأخويه، وقد طلبوا دفنهم في الحديقة الّتي تبدو وكأنّ أحداً بلّلها بالماء، وروى غرساتها الخضر، ثمّ اتجّهنا إلى الغرفة حيث كانت المقبرة تغصّ بالعائلة وبمقرئ وبصحون البلح والخيار واليوسف أفندي. وكانت سعف النّخل تزيّن القبر أيضاً. تساءلت: «لماذا نجلس في غرفة القبر؟». رأيت خيبة الأمل ثمّ الغضب على وجه أمّ خطيبي، الّتي لم تستطع إخفاءهما.

www.ibtesama.com

فبادرت الحضور قائلة: «لازم تكونوا بتّوا هنا». وما أجابها أحد. بل لدهشتي وقفوا يرحّبون بنا غير آبهين للمقرئ: عمّات فريد الثّلاث. جدّ فريد. زوجا العمّتين وأولادهما، ثمّ فسحوا لنا أمكنة على كراس خشبيّة شوّهها الزّمن والنّسيان. جلسنا كلّنا، ما عدا أمّ خطيبي الّتي أخذت تفرش على القبر سعف النّخل حتّى كادت تغطّيه كلّه. ثم أخرجت الكعك والخبز والبلح والخيار واليوسف أفندي وأكواب الشّاي. ثم وضعت بعض الكعك والبلح في كيس، واقتربت من المقرئ تضعه في يده. توقّف المقرئ عن التّلاوة، وتمتم شاكراً، ثمّ مدّ الكيس إلى ولد كان يجلس عند قدميه، فأخذه الولد، وكان يعدّ نقوداً من ورق ومعدن قبل أن يضعها في جيبه.

بادرته أمّ فريد تسأله كم يأخذ من كلّ عائلة. أجابها الولد بذكاء: «حسب الوقت اللّي عايزينه». «يعني كام؟ زيّ العام اللّي فات؟». أجابها بخبث: «العام اللّي فات فات» ثمّ ذكر وهو ينظر في الكيس مبلغاً شهقت له أمّ فريد، وعلّقت: «زيّ فحصيّة دكتور». التقت نظراتي بنظرات خطيبي، وكاد ضحكنا يحدث صوتاً، ثمّ سمعنا جلبة قبل أن يطلّ الغفير ومعه شيخ. لمّا سمعا التّلاوة حاول الشيخ التّراجع، لكن أمّ فريد أسرعت تجرّه من يده. رغم استنكار العائلة قادته إلى حيث تجلس ابنتها بينما الشّيخ يقول: «لا يجوز آخد من نصيب غيري». فأجابته بضيق خلق: «أنت استريح. هو حياخد نصيبه وأنت حتاخد نصيبك». أطاع الشّيخ، وجلس يستمع إلى زميله، ويهزّ رأسه تأثّراً بينما ظهر الانزعاج على وجوه العمّات، فتنهّدت إحداهنّ، وأدارت الأخرى وجهها. قالت أمّ فريد: «هو مش كلّ يوم عيد وأمواتنا إن شاء الله يدخلوا الجنّة». ثم اقتربت من الغفير

www.ibtesama.com

تتمنّى له الخير وتعدّ له النقود بصوت عال وهي تضعها في كفّه ثمّ تقول: «مش ندير ضهرنا من هنا وينفتح الباب من هنا؟». أجابها الغفير: «السّلاح شغلته ايه؟». ردّت: «لا أنت عارف قصدي. في سمعيّة أنّ الغفير السّابق كان يؤجّر مقبرتنا. كان عاملها زيّ اللوكاندة». قال الغفير: «عشان كده صار غفير سابق. أنت عارفة حتّى أنا ما خلّيش حتّى الأولاد يتمشّوا من هنا».

فكّرت في أن الفرج قد اقترب عندما نفذت إلى أنفي رائحة الكباب والكفتة من الخارج. ونهض المقرئ الضّرير يجرّه ولده وابتدأ الآخر بتلاوة الأدعية. درت بنظري في المقبرة ـ الغرفة. في الوجوه، خاصّة العمّات اللّواتي كنّ يتنقّلن بنظراتهنّ بيني وبين أمّ فريد وأخته. لمّا كانت تلتقي نظراتنا كنّا نتبادل الابتسام وكأنّنا نقول لبعضنا: لابأس إذا كانت أم فريد صعبة، وأنّه، لا علاقة لي بها، وفريد محبوب من العائلة وإن كان يطيع أمّه. وما إن تنحنح المقرئ حتّى بادرتني إحداهنّ بأنّها لم تدرك أنّي بهذا الجمال رغم الأوصاف الّتي سمعتها عنّي، وأنّها لم تحضر حفلة خطوبتي بسبب المرض. سألتني الأخرى إذا كنّا وجدنا شقّة وفي أيّ منطقة نفكّر في السّكن. كنت أجيب عن الأسئلة بكلّ براءة في البداية، لكنّي شعرت من حركات وجوههنّ ومن تدخّل فريد بنظراته أنّي أثير موضوعاً حسّاساً لدى أمه. وفعلاً تدخّلت أم فريد قائلة إنّه لا لزوم للعجلة واستئجار شقّة، وأنّ بيتها هو بيت فريد وغرفه واسعة، وعندما أجبت بأنّنا نفكّر في إقامة عرس بسيط ندعو إليه الأهل فقط تدخّلت أمّ فريد قائلة وكأنّها لم تسمع ما قلته إنّنا سنحتفل بالعرس في أكبر فندق. ولمّا قلت إنّ فستان زفافي سيكون أنتيكا يعود عمره إلى العشرينات، لم

www.ibtesama.com

تستطع أمّه أن تتمالك ذعرها من أجوبتي. ثمّ أدركت أنّ الحرب قائمة بين أمّ فريد وبينهنّ وندمت على كلّ ما تفوّهت به، إذ لاحظت من نظراتهنّ الّتي تبادلنها عقب كلّ إجابة منّي وأسئلتهنّ المبطّنة ما يرمين إليه، وأنّهنّ يستعملنني رصاصة يَصْبُبْنَها في قلبها. اعترضت أمّ فريد بصوت أشبه بالصّياح: «أعوذ بالله! فستان حدّ غيرك لبسه تلبسيه بعرسك؟ مش معقول». ثمّ سألت إحداهنّ لتزيد الوجع في قلب أمّ فريد: «هو لونه أبيض؟». صاحت أمّ فريد: «لا أبيض ولا أسود. مش معقول الكلام ده. لازم ماريز تخيّطه. أنا وعدتها بعدين تزعل». علّقت واحدة ضاحكة: «تزعل. الشّغل فوق رأسها، أتريها تنبسط».

صاحت أمّ فريد: «أنا عارفة غيرتكم لأنّ ماريز حتخيّط الفستان». نسيت لوهلة أين أنا إذ كانت الجدران رمادية، وقد سدّ الحضور القبر بكراسيهم. كذلك سعف النّخل. وبدت الجلسة وكأنّنا في صالون. تدخّل والد فريد، كذلك زوج إحدى العمّات، بوقوف كلّ منهما خلف زوجته، ثمّ بدّل والد فريد الموضوع قائلاً: «الهدوم مش حنعطيها للغفير؟» أجابت: «نسيت. ينساني الموت إن شاء الله». ثمّ همست في أذنه شيئاً. ولمّا لم يعلّق، قالت: «مين عايز شاي؟»، واتّجهت صوب الجدار حيث لم ألاحظ وابور كاز صغير عند الزّاوية من قبل. قالت وهي تحقنه: «إيه رأيكم لو نوسّع المقبرة؟.. نزيد غرفة ومطبخ صغير وحمّام». لم يجبها أحد، بل انهمك الكلّ في أحاديث جانبيّة، فعادت تقول: «لازم نوسّع المقبرة وأبو فريد موافق.. قلتوا إيه؟». أجابت إحداهنّ بمكر: «توسّعي؟ عبالك شقّة وعايزة توسعيها تقومي تشتري شقّة ثانية وقبور الناس تعملي بها

www.ibtesama.com

إيه؟» قالت أمّ فريد: «اللّي قصدته، لازم نشتري مقبرة قديمة مهجورة». وتلقّفتها أخرى: «وموتانا يختلطوا مع أموات تانية.. إيه الجنان ده؟». قالت أمّ فريد: «قصدي نشتري أرض حتّى لو بعيدة عن هنا شويّة».

اختلطت الأصوات. يتهامس بسخريّة أولاد العمّات وأخت فريد. يقترب فريد منّي بكوب الشّاي، لكنّ صوت أمّه مازال يسأل: «قلتوا إيه؟». أجابت واحدة: «نقول إيه؟ ما حدّش فاضي لمصاريف القبور والأحوال يعني»...

شهقت أمّ فريد بانتصار: «الحمد لله شغل فريد صار قد الدّنيا و..».

نظرتُ بخجل إلى فريد الّذي هزّ برأسه كمن يطلب النّجدة، وقال بتواضع: «إيه لزومه الكلام ده؟».

لابدّ أن أمّه شعرت من جوابه هذا بأنّه مع عمّاته ضدّها، لكنها قالت: «يعني الله يقدّرك على المصروف وتدفع للمقبرة الجديدة..».

وكأنّها بصمته قد اكتسبت قوّة. تحوّلت نظراتها إلى نظرات قطّة انتصرت وهاهو الفأر بين يديها بعد أن لاعبته طويلاً. لكنّ نظرات الأخريات الشّرسة خطفت منها الفأر: «عارفين قصصك. عايزة تقولي بالصالونات صار عندنا مقبرة جديدة كبيرة.. فيللاّ.. زيّ مقابر فلانة هانم...».

صاحت أمّ فريد: «سمعتوا حدّ يزور التّربة وبيعقد هو والقبور؟

www.ibtesama.com

لازم يكون عندنا غرفة قعود». تدخّلت العمّة: «ما هو كان نقدر نقعد بالأودة اللّي حضرتك سكّنتي فيها الغفير».

دافعت أمّ فريد: «على الأقلّ هو لوحده مع مراته. مش أحسن ما تحتلّها عيلة وصغارها ينطنطوا زيّ السّعادين على قبورنا، وبعدين ما نقدرش نطلّعهم...».

قالت العمّة باستعلاء: «وفيها إيه الواحد يندفن في الجنينة؟ لازم يعني في الأودة؟».

صاحت أم فريد: «جد أبوك حبّ يندفن بالجنينة وهو حرّ. أنا وعيلتي عايزين نندفن في الأودة».

تدخّل والد فريد هامساً كأنّه يفشي سرّاً: «اسمعوا منّي، الأراضي أصبحت نار. صارت شقق سكن وماله لمّا عيلتنا تكون بأهميّة العائلات الأخرى؟...». أجابته أخته: «أنا عارفة.. بس معقول انتو تدفعو ونحنا نتكتّف؟ أنت عارف الأولاد في الجامعات والأقساط والهموم..». تدخّل زوجها: «أنا مستعدّ على أيّ حاجة تقولوها».

كأنّ أمّ فريد تضايقت من جملة زوج العمّة إذ قالت: «على كل، مراتك مش حتندفن هنا. حتلحق عيلة جوزها».

تجاهلت زوجته كلام أمّ فريد، وقالت: «بصّوا، شوفوا كده، المقبرة كبيرة والنّبي مساحتها مش قليلة».

لكنّ أمّ فريد وجدت جواباً لطمني على وجهي وأثارني رغم أني كنت طوال الوقت لا أصدّق ما يجري بين العائلة من دسائس وتصادم حول القبر الهادئ في الوسط، وأوهم نفسي بأنّهم لاشكّ يمزحون،

www.ibtesama.com

وبان كلّ ما يقال لا دخل لي به. حتّى مساعدة فريد الماديّة لهم. وإذا أمّ فريد تقف في وسط الغرفة وتنكر اتّساعها قائلة: «لا مش كبيرة زيّ ما بتتصوّري، قبري وقبر أبو فريد، وفريد حيصير اثنين وكمان حيجيب أولاد...».

خفت من الّذي تقوله. لم أحسب الموت بعيداً كما من قبل وبأنّه لن يمسّني كما يفكّر الصّغار. ووجدتني أقول متصنّعة المزاح: «نفكّر بآخرتنا ونحنا ما تجوّزناش بعد؟».

عاد أبو فريد يتمسّك بالحجّة: «منقول الأسعار صارت نار!».

أعرف أن الأعين كلّها عليّ، خاصّة أعين العمّات، يطلبن نجدتي لهنّ من براثن أمّ فريد، بينما أجدني لا أقوى على النّجاة بنفسي وأنا أفكّر بهلع في أنّني سأكون يوماً ما داخل هذه الغرفة في قبر هكذا..ثمّ قبر فريد، وقبر أولادي، وفي أنّنا سننتهي كلّنا هنا، وأولاد أولادنا أو غيرهم سيجلسون في هذه المقبرة يحتسون الشّاي ويتناقشون ويأكلون البلح.

أعادني صياحهنّ وصياح الرّجال أيضاً إلى الغرفة. أتى فريد لنجدتي، ووجدتني أتلعثم قائلة: «معقول نفكّر دلوقت...». أمسك بيدي مهدّئاً، ولم أفهم كيف سمعت أمّه جملتي هذه الّتي كدت لا أسمعها أنا، وقالت: «الأعمار بيد الله». أجبتها وقد ضاق صدري، من غير أن أعي الكلمات كطفل أراد أن يعاكس لمجرّد المعاكسة: «مش عايزة اندفن هنا».

ردّت: «ده واجب. لما تصيري من العيلة لازم. حتّى أهلك ما يقبلوش يدفنوك عندهم».

www.ibtesama.com

شعرت بأنّها ترمي التّراب عليّ، فصحت: «لا. لا.» ونهضت أسرع إلى الباب. ولم تأبه أمّ فريد لصياحي وذعري، حتّى عندما أمسك بي فريد وقال لها بتأنيب: «مبسوطة؟»، سمعتها تقول: «لازم نعرف يا حبيبي أنّ اللّي يعيش معنا لازم يموت معنا».

أفلتُّ من قبضته وركضت. حاول اللّحاق بي. استعدت أنفاسي في الحوش. ووجدتني أستند إلى قبر ريثما أحكم صندالي الّذي كاد يفلت من قدمي. الأولاد يقذفون بالكرة ويلعبون غير آبهين لتعليقات العجائز والأمّهات اللّواتي كنّ يسترحن من عناء الطّبخ. «أجسام الأموات لابدّ أنّها ترتعد ضيقاً تحتهم». تمالكت نفسي أخيراً، ربّما لرؤية الحياة العاديّة، ولمنظر طير جميل يستسلم للفضاء جاهلاً ما يجري تحته. وقفنا أمام السيّارة. عرفت بأنّه علينا أن ننتظر عائلته. شعرت بأنّي أودّ التخلّص من يده الّتي تشدّ على يدي. أشحت بوجهي أتأمّل الغسيل المنشور والطّشت الفارغ الّذي استوى على هذا القبر. ووعاء الطّعام على القبر الآخر وكأنّه طاولة، والنّاس الّذين لجأوا إلى المقابر بسبب أزمة السّكن، واتّخذوا من مقابر عائلاتهم أو جيرانهم أو من المقابر المهجورة والمستأجرة بيوتاً شرعية، يعيشون فيها حياة طبيعيّة. أرى أنتين تلفزيونات وراديوهات بينما أمّ فريد تريد مساحة أكبر للقبور.

لمّا رأيتُ العائلة تطلّ من بعيد، شعرت بنَفَسي يغيب عنّي. إذاً نحن عائلة واحدة. نعيش معاً، نموت معاً؟ لابدّ أن والد فريد طلب من زوجته السّكوت إذ هي لم تنبس بكلمة منذ أن دخلت السيّارة. أرادت أخته مصالحتي، فقالت تخبرني أن أخت صديقتها مُصْلِحة

www.ibtesama.com

اجتماعيّة، تعدّ دراسة عن الأحياء الّذين يعيشون مع الأموات في المقابر، وكيف أنّ النّساء يزغردن ابتهاجاً بمولود، ويسكتن فجأة إذا لمحن اقتراب جنازة، فتتحوّل زغردتهنّ إلى ندب، بينما يحاول الرّجال معرفة من أيّ قبر تنبعث الموسيقى أو نشرة الأخبار لإسكاتها. وعندما تنتهي الجنازة تعود الحياة الطبيعيّة. لكنّي لبثت صامتة. شعرت وسط صياحهم كأنّي النّملة الّتي رأيتها فوق أرض المقبرة تسير بلا هدى لا تدري بأنّ روحها ربّما ستذهب بدعسة حذاء، وعرفت أنّي قد عدلت عن الزّواج، وأنّي أتمنّى أن أنزل من السيّارة الآن خوفاً من أن يبتلعني فم أمّ فريد. وتراءت لي العمّات الثّلاث وكأنّهنّ ساحرات ينوين تحضيرنا وجبة للشّيطان. وفكّرت في أن أقول لفريد إنّ سبب عدولي عن الزّواج ليس المقبرة ولا أين أدفن، بل العكس فقد أحببت هذا الصّخب... وهذه القبور كأنّها مدينة ملاهٍ مسلّية، وأنا لا أحبّ الوحدة حتّى في حياتي. وأجدني أتراجع عن جملتي هذه ومنظر العائلة في المقبرة يسكن عقلي، وصدى الأصوات يرنّ في أذني. وأفكّر: «أقصد أحبّ الوحدة في حياتي ومماتي».

www.ibtesama.com

ساحة الكاتاستروف

كانت المرأة الّتي اعتدت على الهرب معها من مكان إلى آخر متمدّدة تنظر إليّ غير مصدّقة ما يحدث لي. فللمرّة الأولى منذ أن التقينا معاً قبل سنوات نعلم أنّ مضاجعتنا لن تتوقّف، ومع ذلك فهي تراني الآن أجمد فوقها. «هل سمعت شيئاً؟».

أفكّر بأن على الأذنين أن تعتادا من جديد على اللّامبالاة إزاء السّمع، إذ بتنا معاً في أشدّ الحساسيّة لأيّة جلبة، ولا أقصد صخب زوجتي، أو لسماع صرخة، أو لفرامل سيّارة تتوقّف فجأة، أو حتّى لضحكة تنبعث من الخارج. بل لقد كنّا ننتفض إذا مال الهواء بالسّتارة الخفيفة، وإذا صدر عنها أو عنّي نفس واحد لم يكن في الحسبان.

كنّا ما إن نلتقي بالسّكون مرّة أخرى حتّى نعاود التقاط شعور الحماوة الّذي تركناه معلّقاً في الهواء وعلى أطراف أسفل كلّ منّا. نمضي به غير آبهين بشيء، إنّ جوّ الخوف والسّرقة هذا كان يحوّل كلّ جزء من الجسم إلى دهليز فارغ يودّ أن يُروى بسرعة، بينما يلحق العقل بهذا الظّمأ مندهشاً لما يراه من تدفّق المشاهد عليه. مشاهد لا مثيل لها في غرابتها.

كنّا نتبادل هذه الصّور بعد أن يهمد بنا كلّ شيء عدا خفقان قلبنا وخفقان أسفلنا الّذي كان يحتاج إلى مدّة أطول حتّى يعود ساكناً

www.ibtesama.com

ويعود جزءاً عادياً كاليد أو كخصلة الشّعر. فتردّد المرأة أنّها رأت نفسها تنزلق فوق شلاّل، وأقول لها إنّي رأيت نفسي رجل سيرك أرمي بطابة وأنتظر أخرى. تهمس بأنّها رأت أغصان شجر الموز تدخلها، وأقول لها إنّي كنت أفتح قفّة من قشّ وأعود فأغلقها ثمّ أفتحها من جديد.

حتّى الآن لا أعرف إذا كانت هذه الصّور تأتينا لأنّنا كنّا ملاحقين من زوجتي الّتي لا أعرف حتّى الآن كيف كانت تحزر مكاننا، كانت تجيبني بكلّ بساطة وبكلّ ألم كلّ مرّة كانت تسامحني: «قهري هو الّذي يقودني إليك». فأنظر إليها محاولاً أن أكتشف إذا كانت نبيّة أو شيطانة. لم أصدّق أنّ القهر لا يتوه عند التّعاريج. لا يختفي في الوديان ولا يلصق بأشواك أشجار الكاكتوس بل يصل إليّ دائماً بصوتها شاتماً، صائحاً، باكياً، يموء كالقطّة، يعوي كالكلب، يعزّزه ركلها لأبواب الفنادق ولسيّارتي ولسيّارة المرأة وللسيّارة الّتي كنت أستأجرها. كانت تتحوّل إلى صوت ذي جذور ثخينة يمسك بأرجاء المكان يهزّه ويهزّ السّرير، فأجدني أمسك بقبضتي وكلّي حنق. مصمّماً على عدم التّوبة، بل إيجاد مكان لا يصل إليه سوى من يفرك خاتماً سحرياً. ومع ذلك كنت أمضي يشحنني الغلّ والتردّد فأمتطي المرأة كفرس حُرِمْتُ منها سنين طويلة. عندها كانت المرأة تجزم بأنّ شهوتي لها هي لعبة بيني وبين زوجتي وبأنّها قد وقعت بين فكّي أسناني وأسنانها، وبأنّي أترك الإشارات والدّلائل لزوجتي عن قصد، وإلاّ فكيف أفسّر هياجي العظيم للحظات بعد أن تضبطنا، بينما تغادرها هي الشّهوة لوقت ما؟ كانت تحاول إقناعي بذلك من غير نتيجة. إذ وأنا أسترجع أحاديثي مع زوجتي كنت أزيد من تأكّدي بأنّي

www.ibtesama.com

لم أكن أترك لها أيّة أدلّة سوى أنّ عشقي لجسد هذه المرأة لم يكن يُفسَّر، ولم يكن يتدخّل في حبّي لها. وكنت أقسم لزوجتي بأنّي لم أُقَبِّلْ قطّ يد المرأة، بل لم احتوها بين ذراعيّ في سكون، أو أمرّ بإصبعي فوق شفتيها، وبأن حديثي معها لم يكن ليتعدّى سيرة اللّحم ولونه، الشّعيرات والمسام والنّشوة. وكانت زوجتي تسدّ أذنيها أمام بوحي لها بحبّي. تشدّ شعرها، تصفعني حتّى تصل إلى قلبي فتهزّه، ولربّما قفز واستوى في كفّها. كم دخلتْ عيادات أطبّاء التّجميل حتّى طابق ثديها استدارة كأس البراندي. وواظبت على ممارسة التّمارين الرياضيّة حتّى لم تعد لها أيّ طيّة في بطنها. كم ارتدّت قمصان نوم تكاد تكون وهميّة من نعومة حريرها. كم حاولت أن تنشئ بينها وبين أسفلي علاقة لا شأن لي بها. لكنّه كان دائماً يتحوّل إلى عقل، رافضاً مداعبتها له. تاركاً الكلام للساني حتّى يحاورها بكلّ عاطفة مازحاً، طارداً عنه الوحدة، مقرّاً لها بأنّها قد أصبحت كنفسي.

تحاول المرأة أن تستميلني الآن بحركات لم أعتد عليها من قبل لكنّها تقطر شهوة، بينما كنت أتساءل لماذا أتيت إلى هنا ونحن لم يعد يتوجب علينا الاختباء؟ لماذا تحمل ساحة هذا الفندق اسم La Place de la Catastrophe وما هي الكارثة الّتي حدثت حتّى دعيت بها؟ نعم إنّ هذا الاسم لم يكن يطابق بيوتها الصّغيرة المتشابكة بأغصان الأشجار والعربشات الملوّنة، والغسيل المنشور على شرفاتها، والجسر الصّغير الّذي كان يمتدّ واصلاً بين البيوت.

أغمض عينيّ وأحثّ نفسي حتى أصل إلى آخر الجسر وأنا أذكّرها بملمس المرأة وما يحدث لي وأنا داخلها، ومع ذلك فأنا لا أمضي.

www.ibtesama.com

أشعر بأنّ هناك أحداً ما خلف ظهري. بيني وبين المرأة. يبعدني عنه يديها المتشبّثتين في ظهري، أتلفّت حولي أجد أنّ الهدوء يعمّ الغرفة. أطمئن نفسي بأنّي واهم وبأن هذه هي المرّة الأولى بعد. . . لكنّي أسمع صوت ركل خفيف، صوت مواء خافت. أتلفّت مرّة أخرى بقلق، لكنّ ما إن أرى الهرم على الطّاولة ساكناً حتّى أهدأ. وأصمّم على العودة إلى المرأة من جديد، وهي لاتزال تلفّ قدميها حول ظهري. لكنّ الرّكل يزداد، المواء يعلو، بوق سيّارتي يزعق. أنهض مذعوراً. لابدّ أنّ الصّخب كلّه يأتي من الهرم الّذي أصبح بيت زوجتي الجديد بعد أن أصرّت أن لا تدفن بعد موتها، بل أن تتحوّل إلى رماد وهي تستنجد بي ألاّ أتركها وحيدة قط. وكنت وعدتها آنذاك مهدّئاً، باكياً أمام أوجاع مرضها العظيم الّتي كانت تنخر في جسمها، بأنّي لن أفارقها لحظة، وبأنّي سوف أصحبها معي كيفما مشيت وأينما حللت. أرى الهرم يركل الطّاولة، فأحذر من وجود إحدى القدمين داخله، أسمع المواء والصّراخ فأتأكّد من أنَّ جذور الصّوت موجودة. عندما أجدني أخبّئ وجهي بين يديّ أوقن أنّ عينيها موجودتان أيضاً.

www.ibtesama.com

لابدّ من صنعاء

بعد أن ألقت انغريد نظرة على الأغراض المتجمّعة في الرّدهة، أسرعت تأتي بغطاء الرّأس تلفّ به شعرها الأشقر ثمّ تستبدله بآخر. لا لأنّ اللّون لم يكن يناسب ما ترتديه فهي قلّما انتبهت إلى اللّون والزيّ حتّى في بلدها، أمّا هنا فعليها التأكّد دائماً من أنّ ملابسها لائقة، أي أنّها طويلة الأكمام، لا تكشف عن الصّدر ولا تلصق بالجسم ولا تظهر انزّكبتين.

تستقرّ على الإيشارب السّميك، سماكته لن تجعل قملة شاردة تنفذ عبره، لا لأنّ القمل على حدّ قول سعاد «يستهوي الشّعر الأشقر الغريب عن هذه البقعة لأنّه جديد، وشهي الطّعم لأنّ جلدته تنعم برائحة الشّامبو والماء»، بل لأنّ القمل هنا عنيد، شرس يكاد يقضم القماش وينفذ بنهم إلى الرّأس طالباً الغذاء والدّفء في الشّتاء والبرودة في الصّيف، منتقماً من الشّامبو المخصّص لإبادته، فيعانده مرّة أو مرّتين قبل أن يستجيب لقدره.

تجلس انغريد عند حافة النّافذة الّتي استغلتها وجعلتها مقعداً تطلّ منه على حديقتها الصّغيرة وعلى الطريق. عندما تألف عيناها من جديد الغرسات البرّيّة والأحجار الرّماديّة الغامقة الّتي كانت تغطّي أرض الحديقة بدل التّراب خوفاً من طيرانه عند هبوب الرّياح، تنتقل بنظرها وتحطّه على الدّكان المُواجِه الّذي ظنّته مهدّماً من جرّاء خشبه

www.ibtesama.com

وحجارته المتآكلة. عندما حلّت في هذا البيت. حتّى صنعاء ظنّتها مهجورة أيضاً وهي تطلّ من الطّائرة على الجبال القاحلة والبيوت النّادرة المتفرّقة في الفراغ والمساحات الممتدة وعلى الأبراج المتناثرة بلون الرّمل. لذلك أيقنت أنّ مهمّتها ستكون في غاية السّهولة.. هذه البلاد تبدو ملائمَة وكأنّها بلاد خام، لم يطأ فوق أرضها بعد من يملك الحوارات والجدل والأديان والفلسفة الكونيّة. لكن ما إن حطّت الطّائرة حتّى انشقّت الأرض ودفعت بمدينة صاخبة بالأصوات والضّجيج وخاصّة بالألوان وبعادات لم تألفها من قبل.

تنظر انغريد في ساعتها، تأخّر مهيوب.. ساعة فقط، لابأس، فهي قد اعتادت على تأخّر من تنتظره الساعات، بل أصبحت مستعدّة ذهنيّاً أن لا ترى إطلالة من وعدها مطلقاً في اليوم المحدّد.. بل ربّما بعده بأيّام، فالوقت يركد كمستنقع والسّاعات في اليد قد توقّفت منذ زمن.. كان هذا يضايقها في البدء. حاولت محاربته من غير جدوى ومع ذلك فإنّها لم تفقد الأمل إلاّ بعد أن اعتادت على نمط العيش هنا وبدأت تفهم كيف أنَّ المسافر يعتمد على الحظّ في التّنقّل من منطقة إلى أخرى وهي تسترجع فراغ الطّرق والتواءاتها الّتي بدت وكأنّها لا تؤدّي إلاّ إلى المزيد من الغبار والهضاب الجّرداء.. لا لرؤية شاحنة أو شبه سيّارة. المواصلات نفسها هي الّتي تدخّلت في صداقتها لسعاد شقيقة مهيوب. كانت انغريد بصحبة معلّمين ومعلّمات في المدرسة الّتي تدرّس بها في طريقهم إلى أقرب قرية من صنعاء كخطوة أولى في اكتشاف ما بعد المدينة.

كانت كالآخرين في الشّهر الأوّل لحلولها كمن تخطو فوق الجليد.. فوق البيض.. كأنّ صنعاء محاطة بسور أشبه بساعدين

www.ibtesama.com

طويلين لذلك شعروا وهم خارج التفافها وكأنّهم على شفير هاوية، لذلك ما إن صادفت سيّارتهم رجليْن يشيران لهما بالتّوقّف حتّى تنفّست انغريد والآخرون الصّعداء وفرحوا بهذه الهدية البوصلة الّتي هدتهم إلى القرية الّتي أصبحت فيما بعد محور حياة انغريد والّتي قلبتها من امرأة أوروبيّة إلى امرأة ترتدي الملابس اليمانية وتخبز على التنّار وتدرس العربية وتحنّئ راحة كفّيها وهي تلمّ بأنّ هذه العادة ترجع إلى أيّام النّبي محمّد عندما أراد أن يفرّق أيدي النّساء عن أيدي الرّجال.

ترى انغريد المرأة المعيّنة الّتي دأبت على التردّد على الدّكّان. أصبحت تتبيّنها من صرّة يدها الملوّنة القماش لأن المسنّات كنّ يتحجّبن على شكل واحد. الشّرشف المنسدل من على جانبي الرّأس والقماش الّذي هو بنعومة الحرير الأسود المطبوع باللّون الأحمر يغطّي الوجه. كانت هذه الصرّة لا تفارق يد المرأة. أيقنت انغريد في بادئ الأمر أنّ المرأة كانت تتردّد إلى الدّكّان من أجل الاستعطاء، إذ من مثلها كنّ يقصدن الأسواق الشّعبيّة لشراء حاجياتهن لا من هذه الدّكاكين الباهظة الثّمن الّتي كان معظم زبائنها من الأجانب والموظّفين. كم كانت انغريد فعلاً ساذجة عندما أيقنت أنّ هذه المرأة هي التّربة الملائمة لنثر بذور مهمّتها، وفعلاً ذهبت إلى المرأة ودعتها إلى منزلها وإذا بالمرأة تسير مع انغريد وكأنّها كانت بانتظارها، دخلت معها بيتها، جالت في الغرفة قبل أن تختار الوقوف طويلاً أمام المرآة وتتأمّل نفسها ضاحكة ثم انتقلت إلى الكنبة تتحسّسها بيدها، أمسكت بمنفضة قلبتها رأساً على عقب قبل أن تعيدها إلى الطّاولة، حدّقت في صور عائلة انغريد، تلمّست السّتارة، دخلت غرفة النّوم،

www.ibtesama.com

جلست على السّرير، هزّت نفسها عليه كطفلة، شربت كوب العصير البارد دفعة واحدة، ثمّ اكتفت بالتّحديق في وجه انغريد وهي لا تفهم كلمة واحدة من محاولة الأخرى للتحدّث إليها بالعربية. خافت انغريد أن تذهب هذه الفرصة أدراج الرّياح فأسرعت تأتيها بصورة المسيح المصلوب، وإذا بالمرأة تكتفي بإصدار شهقة واحدة وهي تضع يدها على فمها، ثمّ ليسترعي انتباهها غطاء إبريق الشّاي الّذي كان مَحُوكاً بالصنارتين، همهمت بكلمات كمن يستطلع إذا كانت انغريد قد حاكته، ثمّ عادت تضحك وتشير إلى إبريق الشّاي كأنّها مستغربة أن يكون له غطاء ثمّ سارت نحو الباب بعد أن ابتسمت طويلاً لانغريد وهزّت برأسها كأنّها سوف تكرّ عائدة بعد قليل، ثمّ لتكتشف انغريد بعد مدّة أنّ هذه المرأة لم تكن تأتي إلى الدّكّان إلاّ لترمي الفأل على رفّ السّجائر لأنّ زوج ابنتها.. ترك ابنتها وتزوّج من أخرى وقد اعتاد على شراء سكائره من هذا الدّكّان. عندها فهمت انغريد أن مهمّتها ستكون صعبة، فهي تحتاج إلى اللّغة العربيّة الجيّدة إلى جانب محاولتها فهم حضارة هذه البلاد.

ومرّت أشهر طويلة ظنّت أثناءها انغريد أنّه أصبح باستطاعتها تفسير وفهم عقليّة أهل اليمن وتفسير تصرّفاتهم. لكنّها اكتشفت أنّها كلّما تعمّقت بهم تاهت في هذه الرؤوس الصّغيرة، في حدقة العين الذكيّة والأفواه المبتسمة.

تطلّ أخيراً سيّارة مهيوب وتتوقّف ليترجّل منها. بدلاً من أن يردّ تحيّتها المتلهّفة يقف مع صاحب الدّكّان يتحدّث معه. تحاول لفت نظره بتلويح يديها لكنّه يتجاهلها إلى أن فتحت النّافذة ونادته

www.ibtesama.com

لمساعدتها في نقل بعض الأغراض إلى السّيّارة.

ولم تكن الأغراض كالعادة مؤلّفة من أقاصيص مجلّات أوروبيّة، مرايا صغيرة رخيصة، أوراق، أقلام بعضها وصل إلى منتصفه، معلّبات غذائيّة وعلب من الكورن فلكس، لا، كانت في غاية الأهميّة: من مكنة خياطة، إلى وعاء مخصَّص لغلي زجاجات حليب الرضع، إلى صناديق من الأدوية، إلى قدور مستعملة، إلى علب كبريت...

عندما انتهيا من وضعها في المقعد الخلفي للسّيّارة الّذي كان ملتوياً من جرّاء حادثة سير، جلست انغريد والقلق يراودها من أن لا يعود مهيوب يتحكّم في الرؤية الخلفيّة من تراصّ الأغراض، لكن قلقها هذا سرعان ما تلاشى أمام تجهّم وجهه وحديثه المقتضب معها. كانت قد تعجّبت عندما جاء خبر من سعاد في اليوم التّالي مع سائق الشّاحنة الّذي كان صلة الوصل بينها وبين القرية بأنّ مهيوب سوف يصحبها معه إلى القرية، فهي لم تنسَ موقفه منها وعدائيّته حيالها في المرّة الأخيرة لزيارتها القرية قبل سفرها إلى الدنمارك. أدخلت مدير المدرسة إلى مجلس الرّجال طالبة من زوج سعاد أن يدعوه لقضاء عدّة أيّام في القرية إبّان غيابها. وافق الجميع واكتفوا بهزّ رؤوسهم. إذ كانت إحدى وجناتهم منتفخة كبالون من تخزينهم للقات ما عدا مهيوب الّذي تدخّل رغم استغرابها وسألها عن السّبب. فوجئت بسؤاله إذ اعتادت هي على حسن ضيافة اليمانيين وتقبّلهم لكلّ رغباتها حتّى ولو لم يعملوا بها. لكنّها أجابته وقد احمرّ وجهها: «من أجل أن يتعرّف بكم ويفهم حضارتكم». أجابها هازئاً:

www.ibtesama.com

«والله هو جاي حتّى يشوف قشر الرّأس وجمبياتنا.. ثمّ سألها لماذا لا ترفع غطاء رأسها فهي ليست يمانيّة، بل هي نصرانيّة.. ثمّ ليمدّ لها يده بورقات القات سائلاً بكلّ سخرية لماذا لا تخزن القات معهم؟، عندها أسكته بقية الرّجال لينهض كبيرهم وكلّه حنق وعيناه تكادان تقفزان من محجريهما وتلطمان مهيوب.

شعرت انغريد بأنّ كلّ ما فيها أصبح ثقيلاً وكأنّها تجرُّ أطناناً.. كأنّ ما حملته في المقعد الخلفي ربخ فوق كتفيها. يديها وحتّى لسانها، حدّ حتّى من حرّيّة تنفّسها، وخمّنت أنّها تشعر بذلك لأنّها لا تستطيع أن تسأل مهيوب شيئاً. أن لا يسرع عند الملفّات، ألاّ يزاحم السّيّارة الأخرى، بل لقد وجدت نفسها مكبّلة حتّى عن سؤاله عن أحوال شقيقته سعاد وعن الجميع. وعندما انزاح الثّقل عنها بسبب الأغنية الحنونة اللّحن الّتي كانت تنبعث من الرّاديو رغم الخشخشة والتّشويش، إلاّ أنّها لم تشعر بالرّاحة معه كما من قبل، إذ كان عدا عن تجهّم وجهه واقتضاب حديثه يقود السّيّارة بلامبالاة متناهية ويكثر من التنهّد والتأفّف والنّظر إليها بتفحّص أو بتمرّد..

وكان ارتباكها في محلّه.. إذ قرّب مهيوب يده من رأسها يشير إلى الإيشارب الّذي غطّى شعرها وهو يقول بإنكليزيّة ركيكة: «لازم انغريد أنت قرعة أو شايبة». تجيبه: «يجوز.. كذلك احترام». يمدّ يده من جديد إلى الإيشارب وهذه المرّة يلامسه قائلاً: «مش ضروري تحترمي السّيّارة.. أو تحترميني..» وإذا به ينزع الإيشارب عن رأسها ويترك شعرها الأشقر الّذي كانت رفعته كذيل حصان يتدلّى على كتفيها سميكاً وبلون الشّمس ويصيح وهي لاتزال تحت وطأة

www.ibtesama.com

الانصعاق لحركته المفاجئة هذه: «آمنت بك سبحان الله، آمنت بك ربّي» وعندها تجد نفسها قد وقعت في حفرة من الارتباك بين تهدّج وصدق جملته وبين جرأته غير الصّحيّة، لكن سرعان ما نشلت نفسها من الحفرة وهي تعزو فعلته هذه إلى أنّها ألاعيب أطفال لا مكر رجال خاصّة أنّه نبّهها أن لا تفرد شعرها أمام النّساء في القّرية وإلاّ حسدنها وقصصنه لها وهي نائمة.

حاولت أن تشاغله كما في السّابق باللّغة الإنكليزيّة، الّتي هي بالنسبة له جواز المرور للتّرقية وتحسين أحواله، تسأله أن يركب الجمل عن الفعل والفاعل والمفعول به، عن الأحرف الشّرطيّة، عن لا النّافية، عن الفعل الماضي والحاضر والمستقبل.. عدا عن شعورها بأنّها تفيده، كانت الجُمل والأمثال الذي يعطيها في غاية الغرابة والبساطة تبعث في نفسها الفرح والضّحك معاً.. تتذكّر جملة استخدم فيها لا النّافية «لا أفشي سرّي إلى أحد ولو فصل رأسي عن جسمي وقطعت أطرافي». وجملة تضمّ فعل «عندي» (أنا عندي طائرة) ولم ينهها آنذاك بل احتقن وجهه ولم يعد يودّ إكمال الجملة أو متابعة الدّرس بل صاح: «أنا عندي طائرة.. أنا عندي طائرة وأترك نفسي للتعفّن هنا»...

لكنّه لا يتجاوب معها الآن. إنّه يزفر زفرة طويلة، ولم تستطع كما في السّابق أن تحثّه على المضي في الدّرس أو تؤنّبه كما في السّابق لعادته في تخزين القات، أو تسدي له النّصائح إزاء عمله كمحاسب بسيط في شركة الخطوط الجويّة لا لأن اهتمامها به كان خاصاً، بل لأنّها أخذت على عاتقها أن تقدّم لأهالي القرية الّتي تبنّتها النّصائح

www.ibtesama.com

فكانت تحثّهم ألاّ يرضوا أو يستسلموا لقدرهم مكتفين بترديد كلمة «مكتوب» بل أن يَتَخَطّوْا ظروفهم. . فتنصح التّلميذ الثّانوي أن يلتحق بالجامعة والمزارع أن يجرّب بذوراً لم يجرّبها من قبل. .

زفرة أخرى منه تفهم انغريد أنّ مهيوب سيعود إلى موضوع السّفر والهجرة. . كيفيّة العيش والتّوق إلى الحياة العصريّة والكوكاكولا. . لاتزال تذكر كيف أن ميكروفوناً في يد بائع في الأسواق جذب إليه المارّة والمتسوّقين كالذّباب على قرص عسل. . جذب أيضاً السّيّارات والمارّة والشّرطة والقطط والكلاب حتّى ضرير السّوق الّذي طلب أن تتحسّسه يده. يزفر مهيوب مرّة ثالثة، وعندها تسأله عمّا به فيقول: «عايز انسى». .

ولم تسأله ماذا عليه أن ينسى. كانت تعرف صعوبة المعيشة، صعوبة ترقيته في العمل، انتظاره للفيزا الّتي لايزال ينتظرها منذ عام حتّى يلحق بقريبه في السّعوديّة.

السّيّارة تهتزّ وكأنّها تنوء تحت الحفر والطّرق غير المسفلتة والمنعطفات والأكواع وانغريد تعود إلى سابق عهدها بنفسها وكأنّها سيطر عليها الشّعور الّذي خطف منها نفسها السّابقة للحظات وغبش نقطة ارتكازها على ما تمثّله وما تريده من حياتها هنا لمجرّد حركة إزاء شعرها. تصرُّفه الآن وتصرُّفه من قبل جعلها تعيد النّظر وتتأكّد من أنّه لابدّ أن يكون هناك تواطؤ مطمور بينها وبين القرية. إذ لا يمكن أن تدخل حياتهم وخصوصيّاتهم بينما تبقى بالنّسبة إليهم بطلة من بطلات قصصهم الشّعبيّة كابنة الملك المسجونة في قصر لا

www.ibtesama.com

يستطيع الاقتراب منه الانس، لكنّها تبقى صامتة. لم تعد كما في الماضي تحاول إقناعه عندما كان يتململ من نمط الحياة هنا ويطمح لأن يحطّ في بلدها أو أي بلد أوروبّي آخر ويطلب منها مساعدته للسّفر إلى الغرب بأن يقلع عن رغبته هذه لأنّه سوف يكون أسعد حالاً هنا. ولم تعد تلوم الرّجال لنزوحهم إلى السّعوديّة وترك نسائهم وأطفالهم عاماً بعد عام. كم تودّ الآن لو تخبره عن تجربتها الجديدة حيال هذا الموضوع أثناء زيارتها لبلدها وكيف أنّها وهي هناك لم تفكّر إلاّ في هذه الجبال، هذه الجنّة، هذه الحياة الآمنة البعيدة عن صخب الخارج والدّاخل والفسق والانحلال، كأنّ النّفس هنا تتسكّع في حرّيّة يوميّة دون أن تتكدّر من الحداثة، الطّمأنينة هي في هذه البيوت شبه الفارغة، إلاّ من فراش وصحن للأكل ومرحاض ومصباح نور.. هنا الجنّة.. وإذا بانغريد تستدير إليه متحسّبة، لو صارحته بهذا، لاستشاط غضباً وصاح: ما الفائدة من الجلوس في الجنّة وأنا جائع؟ أو أنّه سوف يهزّ رأسه موافقاً.. أعرف. أعرف لكن علينا أن نجرّب الحياة الأخرى. نجرّب العمل هناك ثمّ نختار». ماذا؟ تجرّب العمل هناك الّذي لا يرحم، الّذي يفقدك كبرياءك وأنت تكبس على المراحيض والمغاسل تفركها. وأنت تنظّف الحدائق مما تتركه الكلاب خلفها، ثمّ يكون عليك الوضوء والتطهّر من دناستها.

كان مهيوب الوحيد من بين الرّجال الّذي لا يأخذ كلامها مأخذَ الواقع وهو فاغر الفم، مندهشٌ لما تقوله أو مُكْتَفٍ بالتّحديق في ملامحها الفاتنة كالبقيّة بل كان يناقشها ويحتدّ نقاشه معها خاصّة في الآونة الأخيرة إلى أن صاح بها مرّة وهي تحسدهم على عيشتهم الهانئة: «طبعاً ستعودين إلى البيت ستفتحين حنفيّة الماء السّاخن.

www.ibtesama.com

ستناميـن علـى وسـادة، تـأكليـن مـن صحـن يخصّـكِ وحـدكِ، بـل ستفتحين زجاجة الحليب وزجاجة الببسي كولا.. لا مثلنا نشتري هذه هي أكياس نايلون». بل إنّه ذهب إلى أبعد من ذلك يعاتبها لأنّها لا تسـدي النّصـائح الصّحيّة والاجتمـاعيّة إلـى النّسـاء. وقتهـا بلعـت انغريد ريقها وضحكت ضحكات متتالية عصبيّة قبل أن تجيبه: «من أنـا حتّى أقـول لهـنّ اغسلـن وسرّحـن شعـركـنّ.. أنـا هنـا لأخـاطـب العقل، القلب.. أنا هنا»... ولم تكمل جملتها إذ صاح بها وهو يحوّل كفّه إلى قبضة ويشدّ عليها: «تحاكي النّفس؟ العقل؟ وتتركين البـراغيـث تمـصّ المسـام ودودة البلهـارسيـا تقطـع الشّـراييـن والقـات يجفّف حليب الأم».

تقفز جملة من الذّاكرة.. جملة أخرى.. لكن اللّسان لا يلفظها بل يعيدها إلى الرّأس «القات يا انغريد. يا أمينة أنزله الله علينا كما أنـزل مَـنَّ السّمـاء. إنـه أدرى بفقـرنـا. أرسلـه حتّى نعلكـه فـلا نطلـب اللّحـم والدّجاج. نخزن القات حتّى تنسينا مرارته لذائذ الطّعام.. خـذي.. خـذي هـذه.. ورقـة لمّـاعـة طـريّـة وشـوفـي عيـونـك كيـف تصير..».

لا تذكّره بجملته وجملة أهالي القرية المشهورة الّتي هي على أفواه الرّجال والنّساء والشّباب بل أجابت مدافعة: «لكنّي لست من بعثة طبّيـة.. ولا أملـك المـال لأحسّـن من الأوضـاع.. لسـت دولـة.. ألا تشعـر كـم يسعـدن بحضـوري.. ألا تظـنّ أنّي أؤثّـر على هـذه القـريـة بطريقة ما.. هل تذكر عندما أردت إحياء تربية النّحل.. وذهبت إلى...» لكنّه قاطعها باستهزاء: «تحاكين النّفس، كم أنت مغرورة!

www.ibtesama.com

لابدّ أن ما يدور في عقلك هو أنّ الجميع يستمع إليك ويصدّق ما تقولينه ويعمل بمشورتك.. ألا تعرفين بأنّ لحظة خروجك من المجلس نتداول فيما بيننا سرّ عدم زواجك.. وإذا كنت لاتزالين عذراء أو لا؟».

أصيبت انغريد وقتها بالخوف. أتكون علاقتها بالقرية من جهة واحدة فقط؟ غير ممكن.. وإذا بها تلغي كلامه مؤكّدة بأنّه يعاني من الإحباط. وبأنّها على علاقة عظيمة بالنّساء وبالرّجال أيضاً.. وبأنّها كلّما غابت افتقدها الجميع..

يقطع مهيوب الزّفرات والصّمت ويقطع مونولوجها ويوجّه إليه ضربة فأس على الرّأس: «لم أتصوّر أنّني سوف أشتاق إليك. شعرت وكأنّ يدي قد بترت.. كلّ يومين أنزل صنعاء وأدقّ بابك». تحاول انغريد أن تضحك، تحاول أن تضربه على ذراعه وكأنّه أخوها الصّغير، تحاول أن تشرح له أنّها أصبحت كقريبة له، لكنّها تصاب بالوجوم وإذا به يمدّ يده إلى يدها ويسجنها تحت يده مانعاً إيّاها من سحبها ثمّ يميل بكلّ وجهه إليها ناسياً المقود، معترفاً لها بتهدّج: «مال قلبي، وقلبي صار عنيد. صار بين يديك. إذا أخذتيه سلم وخفق وإذا رفضتيه وقع على الأرض وانكسر»..

يدها لم تكف عن التّململ؛ إنّها ميزان ثورتها الّتي انبعثت من عينيها واحمرار أنفها وتهدّج صدرها: «أنا أريد طريق الحلال انغريد طريق الصّراط المستقيم.. أريد الزّواج منك وإنجاب العيال»..

تصاب بالقشعريرة. هذا ما كانت تخشاه. إنّه الآن يحاول التشبّث بها كأنّها طوق النّجاة. يجرّب الآن طريقة الحبّ آملاً أنّها تفتح له الكوة ينفذ منها خارج هذه البلاد.. إلى أوروبا. إذاً هي

www.ibtesama.com

كالأخريات.. انغريد هي كالأخريات.. كفريال التّركيّة الّتي ضحك عليها أحمد وأغدق عليها كلمات الحبّ وما إن تزوّجته وسافرا حتّى تركها واختفى في مطار جنيف. هي كإيڤون.. هي..

لابدّ أنّ الأجنبيّات هنا يبدون وكأنّهنّ يملكن وجهاً واحداً وشخصيّة واحدة.. بل كأنّهنّ عبارة عن جوازات سفر.

لم تجبه، بل تركته يتحدّث بلغته التي لا بأس بها عن الفراغ الّذي تركته وغضبه منها لأنّها لم تترك عنوانها أو رقم هاتفها، وكيف أنّه قصد مدير المدرسة الّذي كذب قائلاً إنّه لا يعرفه. يزيد مهيوب أنّه خاف أن لا تعود.. وأنّه قد فكّر بالسّفر إلى الدانمارك بأيّ طريقة والسّؤال عنها..

ولم تستطع انغريد إلاّ أن تجيبه بتهكّم:

«أجل الدانمارك هي بلدتك، تقف عند رأس الجبل وتنادي باسمي فأهرع إليك».

كانت جملها تتطاير منها، الصّور ماضية تتزاحم، عندما دخلت مجلس الرّجال.. لم يصافحها مهيوب.. بل إنّه تجاهلها ونظر إلى مدير المدرسة مارسيل نظرة فيها كل الشّك وعدم التّرحيب. وأخته سعاد تُرحِّب بها في شوق كبير يفيض على كلّ الزّيارات السّابقة وهي تحاول التكهّن إذا كان مدير المدرسة هو خطيبها.

كيف يتحرّش بها مهيوب الآن؟ يتخلّى عن أخلاقه ويتحرّش بها.. إذ لا يمكنه أن يتحرّش بامرأة يمانيّة أو حتّى بامرأة عربيّة.. لابدّ أن ازرقاق عينيها أباح له هذه الجرأة..؟ لابأس. لكن كيف يتحرّش براهبة، بمبشّرة؟

www.ibtesama.com

كانت عينا انغريد زرقاوين واسعتين، ولكنّهما تحتقنان لأي طارئ كنسمة ريح.. كشمس ساطعة، كرائحة البصل المقلي. كعبارة حنونة، كذلك كان أنفها الصّغير محتقناً طوال الوقت، أمّا فمها، ولا أحد يستطيع أن يصفه، فقابلٌ للتبدّل حسب المواقف، إمّا مسدوداً بابتسامة أو مزموماً كعلامة تفكير وإمّا يتحدّث ويستغرب بشهقة.. وإذا مالت انغريد برأسها إلى الخلف وهي تقهقه بدا كالمغارة فيها صخور بيضاء غير متساوية الطّول.

لم يكن قوامها الفارع الطّول هو الّذي يميّزها عن البقيّة بل ألوانها الغريبة عن هذه البقعة من الدّنيا. ألوانها هي الّتي كانت تجذب النّاظر إليها حتّى الحيوانات في هذه القرية.. فقد أقسمت افتكار بأنّ بقرتها لم تكن تحيد بعينيها عن انغريد بل إنّها تدير رأسها وتلاحقها أينما تحرّكت، بينما خبّرت حسنيّة بأن دجاجاتها أيضاً تتسمّر في مكانها بحضرة انغريد، خاصّة الدّيك الّذي يباشر بالصّياح في غير ميعاده.

تهدأ انغريد بعد أن استجلبت صورتها هذه ثمّ قارنتها بالصّورة الأخرى المطمورة في الذّات. الخافية على الجميع حتّى على زملائها من المعلّمين والمعلّمات في المدرسة وهو كونها مبشّرة للدّين المسيحي. نعم، كانت تتلو على رجال القرية قصصاً من الإنجيل وسيرة المسيح، تناقش وتقارن القصص المشتركة بين الإنجيل والقرآن. لكن كان هذا يتمّ في سياق تعريفهم بكلّ ما يجهلونه من مواضيع أخرى، سواء من أنّ الأرض كرة تسبح في الفضاء وأنّ الانسان مشى على القمر إلى المجاعة الّتي خيّمت أيضاً على أوروبا أثناء الحرب العالمية وبعدها والانكسار ووجود البطالة وعدم توفّر

www.ibtesama.com

المأوى لكلّ البشر حتّى في أمريكا بالذّات، وما وصل إليه الإنسان في الطبّ. . وهي تُرْفِق هذه المعلومات بصور من قصاصات المجلاّت والجرائد والكتب.

مبشّرة؟ ترقص مع النّساء؟ تتذوّق الموسيقى والقصص والقيل والقال. . فهي لم تكن تتحدّث معهنّ عن الإنجيل إذ عرفت منذ البداية أنّها سوف تضعهنّ وتضع نفسها في خطر، على الرّجال أن يتحاوروا معها وهم بدورهم يتحدّثون إلى نسائهم. . وهكذا أخذ الهدوء يخيّم عليها في السّيّارة من جديد رغم الحيرة والخوف من أن يكون اعتراف مهيوب قد وضعها في موقف اختيار بين هذه القرية وعدمها، خاصّة أنّها أصبحت في أمسّ الحاجة للانتماء إلى هذا العالم بعد أن نبذت عالمها إلى الأبد. لقد قطعت زيارتها لبلدها الدانمارك، وكرّت راجعة غير مبالية حتّى بفنجان الناسكفيه الّذي ظنّت وهي في اليمن أنّه أثمن ما في الوجود كلّما تصوّرت صورة الفنجان الأحمر تطفو وسط حبيبات القهوة، كان هذا الفنجان المطبوع على علبة القهوة يجرّها إلى أبعاد أخرى، الشّوق لحياتها ولبلدها. لكنّها اكتشفت وهي هناك أنّها لم تعد تستمتع بفنجان الناسكفيه، بل كأنّ طعمه لم يَعُدْ كما كانت تتوقّعه، ولم تَعُدْ تستمتع بوقع الحياة الرّتيب، البارد، الطّريقة الّتي يدخل بها النّاس الحياة اليوميّة، بشكل منظّم لا مكان فيه للصّدف، للتلقائيّة، للقليل من الفوضى الّتي تنمّ عن روح تنبض وترتفع وتهبط كميزان الحرارة.

اشتاقت هناك إلى الزّقاق المترب حيث تعيش، إلى الذّباب الّذي دأب رغم ضيقها منه على الالتصاق بها وكأنّه بحاجة إليها، إلى

www.ibtesama.com

مصافحة صاحب الدّكّان، رغم يده الّتي كانت تغرف الزيتون، وتقصّ الجبنة ثمّ تجد طريقها إلى أنفه.

ما إن رأت انغريد المتنزّهين من العائلات على قمم الجبال والصّخور المرقّطة كجلد النمر حتّى عرفت أنّهما يقتربان، كانت قد حفظت لون الصّخور، نوع الشّجر النّادر، وسرعان ما أخذ الأولاد ينبتون من اللّاشيء وينادون: أمينة.. أمينة «لقبها». والنّساء يَخْرُجْن من جحورهنّ وكأنّهنّ أرانب شمّت رائحة الجزر الفوّاحة. وإذا بمهيوب يمدّ لها يده بباقة زهور برّيّة بينها ورقات القات ويقول لها: «هذه لك» لتمسكها مع شنطة يدها والأكياس الأخرى، بعد أن اتّفقت معه على إبقاء الأغراض الأخرى في السّيّارة حتّى انسدال اللّيل خوفاً من تزاحم النّساء عليها دفعة واحدة.

تترجّل، تحاول تقبيل الأولاد الّذين التفّوا حولها ينادونها: أمينة.. أمينة، وإذا بها تطلب منهم الرّكض إلى بيت سعاد وإخبارها بوصولها: «الّذي يسبق له الحلوى» وكأنّ جملتها هذه كانت نيراناً امتدّت بينهم وجعلتهم يتفرّقون ويركضون، وكأنّهم قطيع من الماعز الملوّن الصّوف فوق الهضاب الجّرداء. يتكاثر الأولاد آتين من الهضاب والبيوت. وما إن اقتربت من بيت سعاد حتّى كانت النّساء في الانتظار. كذلك بضعة رجال، إنّما يقفون على حدة. ثمّ اختلطت قبلات النّساء لانغريد ومناداة الرّجال لها: «انغريد». ثمّ، وبلمحة بصر، كأنّ الأودية والجبال أخذت تردّد اسمها.. وانغريد تشعر من جديد بأنّها ملكة. الأولاد يلامسون فستانها وشنطة يدها وأكياس النايلون.

www.ibtesama.com

النّداء يعلو: أمينة.. أمينة، وسعاد تركض وتعانق انغريد عناقاً شديداً ثمّ تركّز حول أذنها طربوناً من الحبق مبعدة الإيشارب عن الأذن من غير أن تتوقّف عن معاتبة انغريد لهجرها.. بينما تحاول امرأة مسنّة أن ترفع صوتها: «فاطمة ولدانة في المستشفى». وأبله القرية يركض، يركض حتّى إذا وصل إلى انغريد، يقف أمامها بسكون كأنّما أنبتته الأرض.

تمد انغريد يدها مرحّبة به، تسأله عن أحواله، يهزّ رأسه وهو يضرب التّراب بصندالـه المهترئ ممّا جعل بعض الغبار يتصاعد لتصيح به إحدى النّسوة أن يكفّ عن ذلك قائلة: «هذا فأل يا بنيّ.. كأنّك تبحش القبر».

لم يتفرّق الأولاد ولم يخف الضّجيج إلاّ عندما أمسكت سعاد بانغريد من يدها تجذبها داخل البيت، ثمّ ليلتحق بهما الجميع إلى المجلس ذي الجدران الطّينيّة البيضاء الخالية من كلّ شيء إلاّ من طراريح ملوّنة على الأرض وكومة من الملابس مطروحة على حافة النّافذة العريضة. تتحوّل الغرفة إلى خليّة من النحل. سعاد تأتي بصحن الخبز، وافتكار تأتي بابريق الستاينلس ستيل وتسكب في الفناجين، وسعاد تسأل انغريد: «أمينة أنت بالطّائرة وحدك؟.. أنا أحبّ جرّب مرّة» وهي ترفع يديها ترفرف بهما كالطّير، ثمّ تزعق بالأولاد الصّغار الّذين كادوا يهربون بالأكياس المتروكة جانباً وتنتشلها حتّى من أعينهم الّتي تحوّلت إلى انغريد، الّتي تطمئنهم قائلة: «أنا أشرب قهوة وأناديكم. انتو تعدّوا بالانكليزيّة من ١ إلى ١٥».

www.ibtesama.com

أخذت النّساء يتحدّثن عن انغريد وكأنّها غير موجودة وهنّ يتبادلن الملاحظات الّتي أخذت تناقض بعضها، منهنّ من رآها قد ازدادت سمنة ولم تعد تشبه الجمل الّذي أضاع خصره من طولها، ومنهنّ من اعترفت بأن الشّيطان قد أكّد لها بأنّ انغريد قد ماتت لتسكتهنّ سعاد مازحة: «والله أنا قلت تزوّجت.. آخر مرّة قلت لها: أنت تزوّجي وأنا ولّدك مع انتصار.. وهي قالت إن شاء الله..». تعلّق المسنّة، أنت وانتصار تولّدوها.. الله اللّي يولّد. لازم رحم الأجانب فيه حجارة طلقها حياخذ سنة. وجهال الأجانب رؤوسهم ضخمة.

أسكتتهم سعاد قائلة إنّ فاطمة ولدت ٤ أولاد وماتوا.. أجابتها المسنّة: «ولد أمينة لا يرضى ينزل في بيوتنا.. يحبّ ينزل بالمستشفى». يعود الأولاد وقد تعدّوا العشرين ينظرون إلى موضع الأكياس بكل حرمان. يقفون بشعورهم المشعّثة من كثرة ما لاعبها الهواء الجافّ والأوساخ، الأقدام صغيرة سوداء، والوجوه مبقّعة من الشّمس والعطش والأمراض الجلديّة. مناداتهم لانغريد.. تختلط بصوت زوج سعاد الّذي كان يستفهم مع زوجته لماذا لا تدخل انغريد إلى مجلس الرّجال للسّلام عليهم، فعلّقت المسنّة موجّهة كلامها لانغريد: «أنت تخشّي مجلس الرّجال.. تبيني شعرك الحرير، النّظيف.. عشان رجالنا يسعدوا.. حرام.. خلّلي أبو محمد الأعمى يشمّه شويّ».

تفرقع الأخريات من الضحك، بينما تمدّ لهنّ سعاد يدها من خلف ظهرها كمن يتوعدهنّ وتطلب من انغريد الذّهاب إلى الحمّام والاغتسال من عناء السّفر وهي تشدّها من يدها إلى الحمّام مروراً

www.ibtesama.com

بالمطبخ حيث البابور وأطباق على صينيّة من القشّ فتدخل انغريد الحمّام المعتم الفارغ إلاّ من إبريق ومستنقع ماء.

عندما اختلت انغريد بنفسها في عتمة الحمّام حيث برودة ما كانت تحلّ به من جرّاء اختبائه بين الغرف واختفاء النّوافذ منه عدا كوّة صغيرة زجاجيّة. أو لأنّ الإنسان في الحمّام يقف وحيداً عارياً أمام نفسه. أمسكت رأسها بين يديها، تحاول أن توقف من تنازع أفكارها الّتي أصبحت ككرة تتدحرج بين فريقين متخاصمين، عندما تطلب من نفسها أن تكفّ عن هذا الاسترسال بأنّ علاقتها بالقرية قد وصلت إلى النّهاية لمجرّد ما فعله مهيوب. لا تستطيع إلاّ أن تفكّر في أن ما حدث سيبقى كبقعة حبر امتدّت في نصاعة ثلج، ولم تخرج من الحمّام إلاّ عندما اعترفت بينها وبين نفسها أنّها شديدة الحساسيّة لحدّ أن أصبحت حساسيّتها هذه مَرَضيّة. ثمّ وجدت نفسها تنصاع إلى سعاد وتدخل مجلس الرّجال، أجمل الغرف في البيت إذ كانت تسبح بين السماء والأرض من كثرة نوافذها العريضة الّتي كانت تدخل الجبال والمدرّجات والسّحب والقحولة. كان الدّخان في هذه الغرفة قد غزل الخيوط الحريريّة البيضاء وحوّلها إلى شرنقة بينما بدت نرابيش النّراجيل وكأنّها ثعابين ملوّنة تمتدّ بين الوسائد والأيدي وأفواه الرّجال المتورّمة. تخزينهم للقات الّذي استوى أمامهم على الطّاولة وترك أعينهم جاحظة، سابحة في آن بين التنبّه والارتخاء. تدخل انغريد.. ولا ككلّ مرّة. إنّها الآن جافّة كعود الحطب، تحكم من الإيشارب حول شعرها. عينا مهيوب كانتا كمزلاج حديدي. وقف بينها وبين القرية وجعلها تجلس بارتباك. تبتسم بارتباك، تجيب على ضحكاتهم بارتباك رغم أنّها كانت تحاول السيطرة على

www.ibtesama.com

نفسها وحثّها لأن تكون على عادتها مرحة، متسامحة، تجيب على أسئلتهم واستفسارهم وحتّى على دعاباتهم بانفتاح. وهي تتلو عليهم القصص، إمّا من الذّاكرة أو من الإنجيل. كانوا يتحوّلون إلى أطفال شديدي الانتباه، سريعي التأثّر بما يسمعونه.. فعندما أخبرتهم ما قاله المسيح في حديقة جتسماني، لتلامذته قبيل صلبه بساعات: «إنّ نفسي حزينة للموت فامكثوا أنتم هنا واسهروا معي ريثما أذهب وأصلّي». وبدلاً من أن يواسوه ويسهروا معه.. غفوا جميعاً وتركوه وحيداً... استشاط سعيد غضباً ووقف صائحاً: «أين الرّجولة.. إنّهم نساء مائعات». بينما قارنهم زوج سعاد بأهل الصّحابة عندما اختبأ الرّسول في الغار وصاحبه أبو بكر فباض اليمام على الباب، ونسج العنكبوت نسيجه. اعترض هنا آخر: «لكن أبو بكر فزع وهو يسمع أصوات أقدام خيل الكفّار، لو ما أنّ الرّسول طمأنه قائلاً: «لا تفزع إنّ الله معنا».

الارتباك ظهر على انغريد.. خاصّة أن عينَيْ مهيوب اللّتين كانتا كمزلاج حديد هبط أمام انغريد وأمام هذه القرية.. لدرجة أنّ الرّجال لاحظوا هذا وتهامسوا فيما بعد أن انغريد لم تعد معهم.. لابدّ أنّها ستتزوّج هناك وسترحل عنهم..

عادت انغريد تشدّ من عزيمتها وانصرفت للضّحك مع الصّغار بعد أن جلست على الأرض وجعلتهم يتكوّمون حولها مع الأكياس توزّع عليهم الأقلام والدّفاتر وقصاصات المجلّات الأوروبيّة، الحلوى، اللّبان، الألعاب.. متجاهلة النّساء اللّواتي عدن يتحدّثن عنها وكأنّها غير موجودة، ويكرّرن معاتبتها لأنّها تأخّرت هذه الأشهر.. نصف

www.ibtesama.com

سنة.. وإذا بها تحسب المدّة وكانت لا تتعدّى الشّهر ثمّ يكرّرن الاستفسار عمّا إذا كانت قد تزوّجت، معلّلات أنّها قد تبدّلت.. وإذا بسعاد تطرد تكهّناتهن قائلة: «هي شربت من مائنا ولن تستطيع الزّواج إلاّ من رجالنا». هل تنهض هذه اللّحظة، وتهرب من بين ألسنتهنّ، أم تخبرهنّ بكلّ هدوء حقيقة أمرها وبأنّ عليهنّ الكفّ عن هذه السّيرة.. وبأنّ عليهنّ الفهم أنّ هناك نساء لم يخلقن للزّواج والإنجاب.. وليس هناك أي مبرّر أن ينظر إليهنّ نظرة شفقة وتحسّر.. لكنّها لم تفعل شيئاً من هذا. كانت مصعوقة أمام ثورتها.. أمام شعورها بالغليان والتوتّر الّذي جعلها تنتشل طربون الحبق من خلف أذنها وتضعه إلى جانبها وهي تتمتم: «رائحة الحبق قويّة تصيب رأسي بآلام» إلى أن أعادتها ابتسامة الأولاد شيئاً فشيئاً إلى رشدها فأمسكت بطربون الحبق ووضعته في حضنها.

أخذت عيناها تحطّان أبعد من باب الحجرة. أبعد من المنظر المطلّ من الشّبّاك، وأذناها تتلقّيان ما تسمعان من عواء كلب وتفكّر بأنّه لابدّ أنّ أحداً ما يعذّبه، ثمّ تنتقل إلى أصوات النّساء وكأنّها آتية من بعيد، وإلى أصوات الرّجال وكأنّها متدحرجة من كهف.

بقيت في جلستها هذه رافضة أيضاً الدّخول إلى مجلس الرّجال مرّة أخرى كما وعدتهم. رغم أنّ زوج سعاد تنحنح وبصق خارج مجلس النّساء، وسعاد استفسرت عمّا بها وسألتها إذا كانت مريضة، ولمّا هزّت انغريد رأسها بالنّفي بادرتها من جديد سائلة: «لازم مشتاقة لأهلك..»، لكن انغريد كانت تفكّر بالعودة إلى صنعاء، تودّ أن تكون وحيدة. لربّما استطاعت حسم هذا الشّعور الّذي لم تستطع أن توقف سيله أو تحاوره أو تلغيه، إنّه يمسكها من قلبها ويؤرجحه

www.ibtesama.com

حتّى يدقّ كجرس كنيسة. كان شعورها كفصّ ثوم كبير ما إن تحاول هرسه بالمدقّة حتّى يفرّ ويطير من الوعاء، فهي لا تستطيع أن تلوم مهيوب لأنّه أساء للصّداقة وبأنّه يفكّر في مصلحته، لأنّها هي أيضاً ربّما أساءت لصداقته وصداقة الجميع. الألم يتصاعد. إنها تلوم نفسها، لو أنّها لم تبتسم كثيراً، لم تضحك، لم تمازح لما كان حدث هذا. لو أنّها اكتفت بحوارها وعلاقاتها بسعاد والأخريات.. لو أنّها لم ترض أن تتشعّب في قصّة مريم المجدليّة وقصّة عائشة أمّ المؤمنين وزوجات النّبي، لو أنّها لم تجب على... وهكذا تمدّدت انغريد إلى جانب سعاد رغم أفكارها المتعبة الّتي فضّلت الوقوف تاركة سعاد لشخيرها بعد أن يئست هذه من أن تطيل الحديث معها حتّى الفجر كما كانتا تفعلان من قبل، تتحدّثان عن شتّى المواضيع رغم أنّ الكلام المفهوم كان يقتصر أحياناً على بعض الجمل، بعض الحكايات، ومع ذلك كانتا تتحدّثان وكأنّ كلّ منهما تتحدّث إلى نفسها.

تنهض انغريد بهدوء، رغم أنّ سعاد قد سبقتها منذ وقت. ترتدي تنّورتها الّتي تركتها إلى جانبها قرب الفراش، تتسلّل بهدوء إلى الشرفة. لم تكن تودّ أن تتأمّل المنظر الّذي ربّما من أجله استعجلت العودة إلى اليمن.. ومع ذلك لم تستطع ألاّ تسمّر نفسها أمام المنظر، أمام البخار الّذي كان يتصاعد من قمم الجبال ويهبط في الأودية، وكذلك الدّخان الّذي كان يحمل إليها رائحة الأعشاب والحطب، والبيوت الّتي كأنّها مكعّبات ملوّنة منتشرة بين المدرجات، والنّار الّتي لابدّ أنّها مشتعلة تحت القدور والأباريق والتنّار.

www.ibtesama.com

تحطّ انغريد بنظرها على موقع الدّخان لعلّها تميّز المرأة الّتي تخبز والّتي تعدّ الطّعام، متعجّبة كيف أُتيح لهنّ الوقت لارتداء كامل زيّهن. . الشّروال والفستان والحزام والعقود ووشاح الرّأس، فبدون كأنّهنّ زهرات غريبة الشّكل والألوان. تضبط نفسها وهي تحاول أن ترى سيّارة مهيوب. تودّ أن ترسل له رسولاً حتّى يعود بها إلى صنعاء، ما إن رأت سيّارته ساكنة تحت الشّجرة الوحيدة حتّى فكّرت بأن تذهب بنفسها لإيقاظه. إلاّ أنّها أبعدت الفكرة وكأنّها داء البرص وهي تغلي غيظاً من نفسها لهذا الخاطر. الغيظ يرتفع ويجعلها تبتعد عن النّافذة، يجعلها تدور حول نفسها، لكن. . . ألم تقصده في السّابق أثناء مرض سعاد وكادت تسحبه من الفراش؟

كانت انغريد في زيارتها الثّانية للقرية بعد أن دعتها سعاد لقضاء بضعة أيّام معها فور تعرّفها عليها. والّذي شجّع انغريد وقتها على القبول هو وجود زوج سعاد آنذاك في السّعودية إضافة إلى دفء سعاد وابتسامتها وكرمها الفائض. ما إن استقلّت السيّارة الّتي أتت بها إلى نهاية المطاف وتزاحم الأولاد يردّدون أمامها اسم سعاد وهي تهزّ رأسها مبتسمة سعيدة لهذا الاستقبال، من غير أن تلاحظ اللّهفة والتوتّر في الأعين والكلمات وما يرمي إليه تدخّل ركض امرأة وإشارتها إلى بيت سعاد وترديد اسم سعاد على مسمع سائق سيّارة البعثة الأجنبيّة، لكن انغريد والسّائق لم يفهما ما قصدته المرأة وظنّا أنّها من علامات التّرحيب إلى أن دخلت انغريد بيت سعاد ورأتها في الفراش تحت كومة من ملابسها وملابس الجارات رغم أن الحرّ وقتها كان يتصاعد حتّى من الشّقوق في الجدران. وسعاد لم تكن تتحرّك إلاّ للتقيّؤ. . بعد أن فقدت الأمل في أن تضبط الجريان الّذي

www.ibtesama.com

أصابها. وفهمت انغريد من النّساء اللّواتي جلسن واجمات حولها واللّواتي كنّ يتناوبن في وضع لبخات من الماء السّاخن والخلّ على رأسها أنّ سعاد على هذه الحالة منذ أيّام. . أسرعت انغريد إلى المصطبة فرأت سيّارة البعثة الأجنبيّة قد أصبحت كحشرة بين تعاريج الجبال ودارت حول نفسها لا تصدّق أنّها لا تستطيع أن تفعل شيئاً، بل أن تجلس كالنّساء الواجمات من حول سعاد. . ودخلت تسأل عن مكتب السنترال ثمّ عادت إلى الخارج تنظر بأسى ومن غير تصديق إلى الفراغ وهي تشعر بكراهية لهذه الطّبيعة السّاكنة وإذا بها تحملق في سيّارة تركن في أسفل الوادي قرب بيت، ولا تصدّق ما ترى. فركت عينيها كما يكتب في القصص ثمّ لتهبّ داخلة وتشير إلى السّيّارة مبتهلة ألاّ تسمع بأنّها معطّلة. كانت النّساء قد لحقن معظمهنّ بها وأخذن يهززن رؤوسهنّ استنكاراً، حتّى أنّ إحداهنّ بصقت على الأرض. وأخيراً فهمت انغريد أنّ هذه السّيّارة تخصّ مهيوب أخا سعاد. ولمّا حاولت أن تفهم لماذا لم يستعن به أحد ضاق صدرها من الأصوات الّتي تعالت والخبطات الّتي انهالت على الصّدور، فأسرعت تحثّ الأولاد على الإتيان به.

لم يسرع مهيوب كما تصوّرت عندما أرسلت في طلبه الصغار الّذين عادوا قائلين إنّه نائم. . ولم يشأ الاستيقاظ. وإذا بانغريد تصبح عبارة عن دماء فائرة، تحتقن وتغلي وتجعلها تسرع كمن ترمي نفسها فوق الجبال والصّخور والحجارة الّتي تكاد تنزلق من تحت قدميها، والأولاد يسرعون أمامها وخلفها وإلى جانبها بصياحهم الّذي نبّه بعض النّساء اللّواتي توقّفن عن الخبز أو الغسيل. . وإذا بها تقف وسط غرفة ملوّنة بالسّجاد الرّخيص فوق الجدران وعلى الأرض

www.ibtesama.com

وبالستائر على النّوافذ والمساند والوسسائد وإذا بكتلة ملوّنة تتحرّك وتجلس. تخبره بالإنكليزيّة أنّ سعاد تكاد تموت من جفاف الماء وأن عليهم نقلها إلى المستشفى من أجل المصل.

لم تصدّق ما سمعته من برودة في الصّوت وفي التّصرّف.. وهو يقول لها بأنّ سعاد لا تقوى على السّير وبأنّه من الصّعب إنزالها ممدّدة، إذ كان بيتها قد بني على رأس الجبل وعلى من يقصده أن يتسلّق الرّوابي والجلول والصّخور. ظنّت انغريد أنّه مازال تحت وطأة النّوم، أو أنّه لا يعرف مدى خطورة حالة أخته، فشرحت له الوضع بكل تأنٍّ، وردّد مهيوب بكلّ تأنٍّ ووعي ما قاله لها سابقاً. عندها صاحت به بأعلى صوتها: «ماذا ستقول لزوجها المسافر إذا فارقت أختك الحياة.. كيف ستنظر إلى الله.. أين ستخبّئ وجهك يوم الحساب في الآخرة.. ماذا سيكون جوابك...؟ الطّريق وعرة وبيت أختي في رأس الجبل وزوجها كان بعيداً». عند صياحها هذا نهض مهيوب وهو ينادي الرّجال حتّى يسرعوا معه ليأتوا بسعاد بعد أن لفّوها بحرام، وينقلوها إلى المستشفى. ولتفهم انغريد أنَّ كون المريض امرأة نقّص من أهميّة الحياة والموت..، فهي لاتزال تذكر عندما رأت المقابر كيف استرعى انتباهها الحجر الوحيد الموضوع على قبر المرأة حتّى يميّز عن قبر الرّجل ذي الحجرين، لكنّها لم تفهم حتّى الآن رغم اعترافها بقسوة الحياة هنا تصرّف مهيوب تجاه شقيقته خاصّة أنّه راعها الشبه بين سعاد ومهيوب ولاسيّما عندما يعتمر اللّفّة، فيبدو وكأنّه خرج للتوّ من رسوم مجلّات وكتب المغامرات، الشّاطر حسن أو علاء الدّين والفانوس السّحري.. رأسه المسطّح من الخلف بسبب المشلح الّذي كان يشدّ رأس الوليد

www.ibtesama.com

وملامح وجهه بارزة الدقّة. . العينان صغيرتان. إنّهما خرزتان سوداوان، الأنف دقيق، البنية نحيلة، أصابع اليدين قصيرة تبدو وكأنّها ذابت من كثرة ما استعملت. أمّا شعره الأجعد فكان يفرقه من جنب واحد ويغدق عليه الكريم. . كان فخوراً بهذه التّسريحة وبالكريم، عندما سألته انغريد مرّة عن سبب وضعه للكريم اكتفى بأن نظر إلى مرآة سيّارته وملّسه بيده. كان الوحيد الّذي لا يبصق أمام انغريد لتطرية فمه من القات.

تحاول انغريد أن تخفي حالتها أمام سعاد المتلهّفة، لكن كيف تستطيع أن تخفي الضّيق الّذي غزا رقبتها وأعلى صدرها على شكل بقع حمراء أمام ذبذبات سعاد المستنفرة وكأنّها لاقطة برغش الكترونية، فتلتقط الشّرايين الصّغيرة الحائرة في العينين، التّجاعيد في الجبين الّذي تركته متقلّصاً. زمّ الحاجبين، تقوّس الأصابع وقبل كلّ شيء وقع الكلمة على الأذن، هل هبطت هادئة، هل لسعت الطّبلة؟ هل فتح الفمّ أكثر من اللزوم وهو يعلك الطّعام؟ أم أنه أطبق على نفسه، هل لاتزال الحنجرة على وتيرة واحدة أم أنّها تكثر من بلع الرّيق؟

رغم تذرّع انغريد بشتّى الأسباب حتّى تعود إلى صنعاء معلّلة ذلك بأنّه ربّما نسي بائع الماء كعادته إقفال الحنفيّة ولابدّ أن حديقتها سوف تطوف بالماء فقد أجابتها سعاد: نعمة كريم. . الحي بأجمعه سوف يبلع الماء ويدعو لك ولأمّك ولأجدادك بالصّحة والرّزق. وعندها شهقت قائلة بأنّها نسيت أن تجلب معها فروض التّلاميذ حتّى تصحّحها، لتجيبها سعاد: «كنت أراك كيف تنتهين من رزمة دفاتر

www.ibtesama.com

وكأنّك اسم الله عليك خروف متعطّش للبرسيم»، ثم لتخطف سعاد كف انغريد فجأة وتقلبه وتقبّل راحته ثم تتركه وتمدّ أصابعها إلى فمها تقبّلها بعد أن أغمضت عينيها القادحتين وبدت البشرة سمراء بلون وملمس ثمرة المشمش ثمّ لتعود إلى فطنتها وحركتها صائحة: «يللاّ نشرب قهوة وأنا أقرأ لك الفنجان، ولم تبال برفض انغريد بل أخذت القهوة في الفنجان تدنيه من فم انغريد. ولما بقيت انغريد على عنادها، أعادت سعاد القهوة إلى الرّكوة ثمّ أخذت تحرّك الفنجان وتقرأ فيه: «رجل واقف بفمه كلام لازم مهيوب فاتحك.. لازم». وقبل أن تهضم انغريد المفاجأة كرّت سعاد بكلام عاطفي أحدث في قلب انغريد الارتباك والحيرة، وكذلك العصبيّة، وسعاد كأنّها تدلق نهراً، ترافق مياهه حركات اليد وهي ترتفع إلى القلب ثمّ إلى العين ثمّ إلى الوجنة، الرأس أيضاً يرافق اليد والكلام فيهتزّ تارّة، ويجمد تارّة أخرى، يتأسّف، يضحك.. الحلق الفضّي الطّويل أيضاً كان يشارك في هذا الحديث.. ولم تفهم انغريد كلّ جملة، لكنّها استخلصت بأن مهيوب يحبّها وبأنّه في غيابها وقع مريضاً وأصبح كلون الكركم ووزنه أصبح كوزن الرّضع.

اكتفت انغريد بهزّ رأسها نفياً، رغم أنّها شعرت بشيء من الاطمئنان، لابدّ أنّ مهيوب صادقٌ وأنّها بالنسبة له ليست منفذاً يعتليه حتّى يحطّ في أوروبا، لكن سعاد تسألها تريد جوابها هذه اللّحظة. تسألها الزّواج من مهيوب حتّى ترتاح هي من عبء أمّها الّتي ماتت وهي توصيها بأخيها والآن وتريد لعظام أمّها التمدّد في القبر من جرّاء هذه السّعادة بدلاً من أن تكون مضمومة تصطكّ وترتعد كلّما سار مهيوب على الأرض وحيداً من غير شريكة تعمّر له الشّاي والقهوة

www.ibtesama.com

وتقول له صباح الخير ما إن يطلع الفجر. «لكن لماذا أنا؟ لماذا انغريد؟». كانت انغريد تكرّر هذا السّؤال طوال تدفّق نهر الكلام.. كانت تحاول أن ترمي الحصى أمام تدفّق الماء لكن من غير جدوى إلى أن وقفت وعلا صوتها عن صوت سعاد: «لماذا أنا؟ لماذا أنا؟ لماذا انغريد؟».

ولم تتعثّر الكلمات على لسان سعاد بل أخذت تجيبها والشّلاّل مازال يتدفّق بأنّها متعلّمة: تقرأ وتكتب، وأية يمانيّة لن ترضى بمهيوب لأن اليمانيّة المتعلّمة غالية المهر ومع ذلك فهي لن تدير البيت وتعمل وتوفّر. ثمّ أمسكت براحة كفي انغريد وقالت: «اسم الله عليك، تعلّمت الخبز على التنّار بسرعة رغم بعض الحروق وتساعديني في شغل البيت وكأنّك ولدت في هذه البقاع رغم الكتب الّتي تقرئينها والخطوط الّتي تخطينها؟! وقبل أن تستطيع انغريد الإجابة إذ كانت تبحث عن الجمل الملائمة الّتي توضح الأمر من غير إساءة أو حرج على أن تكون الإجابة حازمة لا أخذ فيها ولا ردّ، سبقتها سعاد وعادت تمسك بكفّها تقبّلها وتقلّبها ثمّ تقبّل راحة الكفّ، كل هذا وكأنّها فراشة لا تعرف أين تحط. ثم تمدّ يدها إلى عقدها الّذي هو عبارة عن حبّات من العقيق في وسطها ليرة إنكليزية ذهبية تحاول أن تفكّه من عقدته ولمّا لم تستطع استدارت نحو انغريد تسألها أن تفكّه لها. وما إن أوشكت انغريد تُطيعها من غير تفكير حتّى تراجعت، فقد أصبحت تفسّر مغزى هذه الحركة، حركة العطاء، فهي إذا زارت أحداً ورفضت ما يقدّم لها من فاكهة أو طعام وجدته ينتظرها في يد ربّة البيت وهي تودّعها عند الباب. وإذا استحلت شيئاً وقلبته في يدها أو لم تستحله بل تساءلت ماذا هو،

www.ibtesama.com

انتزعته ربّة البيت من مكانه على الحائط إذا كان صينية من القشّ وقدّمته لها. وهاهي سعاد تقدّم لها أغلى ما عندها عربون المحبة والعطاء. تحاول أن تشرح لسعاد أنّها لا تفكّر بالزواج مطلقاً، وإذا فكّرت فإنّه لن يتم بهذه الطّريقة وبأنّها تعتبر مهيوب كأخيها. لكن سعاد لا تسمعها. فهي لاتزال تدلق نهر الكلام والعواطف وتحدّثها عن مهيوب وعن قلب مهيوب حتّى اغرورقت عيناها بالدّموع، وأخذت تنشج وتبكي حتّى وجدت انغريد نفسها تهزّها من كتفيها، ويبدو أنّها أخذت تهزّها بقوّة، لأن سعاد جمدت فجأة، فهي لم تتوقّع مثل هذه الحركة من انغريد الهادئة. لكنّها لم تستمع إلى ما كانت تقوله انغريد، بل لم تكن تبالي به، فقد أيقنت بينها وبين نفسها أنّها سوف تقنع انغريد الطّيبة «إلى حدّ السّذاجة أحياناً» إذ كانت تأخذ كلّ الكلام، بل كلّ كلمة، بجدّيّة. لذلك عادت سعاد تشحن الكلام مستعينة بالصور ليتدفّق النّهر من جديد. «لو صعدت إلى السّماء وتوغّلت في باطن الأرض لن تجدي من يحبّك هذا الحبّ.. فالرّجال الأجانب مثلك يملكون الشّعر الأشقر والأعين الملوّنة وسوف تزاحمك النّساء عليهم». انتبهت سعاد إلى هذا الخاطر، فاستدار وجهها بابتسامة كبيرة وقالت وكأنّها تحادث نفسها: «سوف يقصدوننا من القرى المجاورة للتفرّج عليك. ستصبحين فرجة: سوف نقهر العذّال والأعداء ما إن تفردي شعرك الأشقر أمامهم، ومهيوب سوف يصبح أهم من في القرية هنا.. سوف تقصدنا النّساء من كل صوب من أجل مشورتك في حال المرض أو الاستئناس بجلستك.. ستعطى لك أطرى ورقات القات».

تترك انغريد سعاد في استرسالها مكتفية بالابتسام وهي تستغرب

www.ibtesama.com

الهدوء الّذي حطّ عليها فجأة. وسعاد تسترسل وتعيد الكلام حتّى تفهمها انغريد جيّداً ولا يغيب عنها أيّ معنى، وكأنّ كلامها لسعاد بأنّها لن تتزوّج الآن ولا غداً لأنّها تشعر بأن العالم أجمع هو أسرتها، ليس بذي بال. الرّجال المسنّون بصفة والدها، الرّجال بصفة الأشقّاء والأطفال أطفالها والنّساء أمّهاتها وأخواتها، تلاشت في أرجاء الغرفة كفقاقيع صابون، وإذا بها تقرّر العودة إلى صنعاء في أي لحظة ممكنة. فرّ الانسجام الّذي كان يحطّ عليها ما إن تخلع حذاءها وتجلس على الأرض مع النّساء. تريد الآن الجلوس وحيدة قبالة حديقتها في صنعاء حتّى يعود الانسجام إلى الرّأس بدل الرّحام والطّنين، وفعلاً غادرت القرية مع مهيوب بعد أن أصرّت سعاد على أن يصحبها بدلاً من سائق شاحنة النّقل الّذي كان يتقاضى الأجر من الغرباء. بل إنّ سعاد دفعتها دفعاً إلى سيّارة مهيوب الّذي لم يفتح فمه طوال الطّريق ممّا جعل الموقف في غاية الحرج، فهي لم ترد حرباً بينها وبينه. حاولت التحدّث إليه لكنّه لاذ بالصّمت، ولم يصدر عنه سوى وقع أنفاسه الثّقيلة الضّيقة.

جلست انغريد في بيتها في صنعاء على كرسيها الّذي يطلّ على الزّقاق والرّمل واللاّشيء لكن بعد مدّة قصيرة من جلوسها أخذت تتململ فرأسها لم يَصْفُ كما توقّعت بل ازداد اللغط به خاصّة لدى استرجاعها الثّقل الّذي خيّم على السّيّارة أثناء عودتها، فملامح مهيوب المتجهّمة كانت توجّه لها اللّوم الدّفين، تنادي بأن انغريد شرّيرة، كأنّها تمسك بمفاتيح سعادة الآخرين تلاعبها بين أناملها من غير أن تديرها في ثقوب أبوابهم المغلقة.. كأنّها.. كأنّها.. ولم تكن انغريد قد واجهت نفسها من قبل وهي في هذه الحيرة وهذا

www.ibtesama.com

الضعف الّذي يكاد أن يكون هلاكاً. وأيقنت أنّها لم تجرّب قطّ ما كان يتغلغل في قلوب الّذين كانت تعلمهم وتسألهم التحلّي بالصّبر لتخطّي المصاعب. وإذا بها تستحضر «الجمل» رمز الصّبر الّذي زارته في أقدم كهف في قلب سوق صنعاء. وإذ سألت الرّجل الّذي كان محاطاً بأكياس القمح في الطّاحونة.. عن الجمل، فقد مال برأسه، وأشار إلى كفّه، ووضعها تحت أُذنه وردّد: «هو نايم.. تعبان» وأشار إلى المطحنة مضيفاً: «هو يدور ويشغل المطحنة.. الآن تعبان إي والله تعبان». وإذ سألته لماذا لا يستبدله بآخر، فقد أجابها ضاحكاً: «هو يموت إذا ما اشتغل يحبّ الشّغل أعصب عينيه خوفاً من الغشيان.. حتّى يظنّ أنّه يحلم بأنّه يسير.. يشتغل وينام.. ينام ويشتغل».

صورة الجمل الّذي يعمل وينام، ينام ويعمل في زمن يسرع، وزمن يتمهّل.. والطّاحونة تدور في كهف جاوز عمره الـ ٤٠٠ سنة، مدّتها بالطّمأنينة، وإذا بها تدور كالجمل بعد أن أغمضت عينيها تحاول أن تفكّ رأسها من التّخبّط الّذي كان يشبه شبكة أسلاك وشرائط رأتها في أحد الأحياء.. لتعود إلى ثباتها وهي تتشبّث بالّذي حلّ لها تلك الشّبكة: الحقيقة وعدم الحياد عنها، هي الّتي تسود دائماً، هي البدء في المشورة مع النّفس والصّدق معها، في حضور الصّدق فقط تنهار الأسباب والحُجَج الزّائفة وإذا بكلّ شيء يبدو وكأنّه مُقْنع، وكأنّه مفرود على الطّاولة بمتناول العين واليد. اللوم يقع عليها ومهيوب وسعاد هما المحقّان تصرّفت معهما ومع القرية كالشّمس الّتي تغمز بعينها للحظة قبل أن تختفي خلف الغيوم، ثم لتعود ولتظهر قليلاً ثم لتحجب نفسها بتدرّج تاركة بعض النّور

www.ibtesama.com

الخفيف الّذي لا يذكّر إلاّ بوجودها الغائب. هكذا هي معهم، هكذا غير صريحة مداهنة.. تخاف أن تظهر ما تريده منهم، حتّى لا يتفرّقوا عنها، ويتعثّر مجهودها وتمحي زياراتها وتصبح أحاديثها معهم حدّوتة.. وإذا بلومها ينقلب إلى محبّة.. إلى تفهّم.. إلى الشّعور بطلب الغفران والمعذرة.. إلى اشتياق.. إلى حنين.. إلى الشّعور بالضياع من غير تلك القرية..

وإذا بها تركض إلى صورة مريم العذراء المعلّقة في غرفة نومها تركع قبالتها كما ركعت في أوائل حلولها في هذا البلد وهي تطلب منها المغفرة والمعذرة لأنّها لا تستطيع أن تجاهر بالحقيقة وإلاّ تعذّرت مهمّتها هنا وأصبحت مستحيلة.

* * *

تجلس انغريد في غرفة سعاد نفسها بين النّساء اللّواتي اصطففن وكأنّهنّ أسياخ «شيش كباب» تضمّ كلّ ألوان وأشكال اللّحم والخُضَر.. وهي أيضاً تبدّلت، رغم معارضتها الشّديدة لأن تبقى على حالها، لكن كلامها لم يفلح. كان كالماء مهما حاولت الخبط أو الدقّ به يتعكّر قليلاً ثمّ يعود إلى حاله إذ ما إن نادت سعاد وأعلنت عن العرس حتّى وجدت نفسها جالسة على طراريح ممدّدة اليدين والقدمين بين رائحة الحنّاء والحنّاءة تكبّ على أطرافها بعود كبريت بعد أن تغطسه في كوب الحنّاء وتنقش لها الزّخرفة الدّقيقة الجميلة، لتبقى انغريد مستيقظة طوال اللّيل حتّى تجفّ الحنّاء حتّى لا تفسد دقّة الزّخرفة. ثم أُلبست في اليوم التّالي فستان عرس سعاد الّذي كان مخبّأً في صرّة، وقد أصرّت النّساء على فرد شعرها الطّويل الّذي كاد

www.ibtesama.com

يصل إلى خصرها، والّذي من كثرة ما خبّأته أصبح ذا ألوان عدّة، وكانت الماشطة قد أخذت تمسّده بيدها عشرات المرّات متعجّبة لطوله ولثقله أمام النّساء اللّواتي رأين شعر انغريد مفروداً لأوّل مرّة فأخذن بالبسملة وهنّ يلمسنه لتقول افتكار: «قمر قاعد على اجرين» وأخبرت كيف أن أخاها أقسم أنّه لن يتزوّج إلاّ عندما يجد عروساً شقراء الشّعر، وكيف هي قصدت المدارس مدرسة مدرسة تسأل المعلّمات إذا كان هناك يمانيّة شقراء، وكيف تحايلت بأنّها شغّالة حتّى عاينت البنت وطلبت يدها لأخيها وتزوّجها.. وإذا بكوكب تصيح: «شعرها مصبوغ.. ما في يمانيات شقر»، وافتكار تقسم بالأولياء، وعندما لم يصدّقنها نهضت غاضبة مقسمة ألاّ تعود إلاّ بعد أن تبتهل إليها سعاد بأن لا تفسد التّحضير للعرس الّذي لم يترك النّساء إلاّ وقد عبّرن عن أفكارهنّ وما يجيش في صدورهنّ.. فالّتي صاحت بانغريد قائلة: «صمت طويلاً... وتزوّجت من يماني.. ألا تعرفين أنّ اليماني مجنون». وهي تشير إلى رأسها وتهزّه يميناً وشمالاً وتجحظ عينيها وتمدّ لسانها.. وأخرى تقدّم النّصائح إلى انغريد: «اسمعي أختي أمينة.. أنت تولدي ٤ أولاد. وبعدين تغلقي بالمفتاح» وتشير إلى أسفلها «ثم تخفي المفتاح في صدرك».. وإذا بافتكار تتدخّل منادية: «تخفيه في صدرها؟ أهو ليرة ذهب.. لازم تصكه وترميه كما فعلت أنا».

ثم وضعن التّاج على رأس انغريد وكان من قماش ملوّن وعطّرنها بعدها بالمسك الاصطناعي وبخّرنها بمباخر العود ثم أجلست على مرتبة عالية، هكذا بين أمواج الأغاني والازدحام والأصوات الملعلعة مع قرع الطّبلة وغناء من تقرعها: يا عروس يا قمر.

www.ibtesama.com

تجلس انغريد وكلّها إيمان. . بأن هذا ما شاءته لها مريم العذراء. . كيف تطوّرت الأحداث حتّى صبّت في عين الحقيقة. تصبح منهم فيمتدّ الإيمان بها وبالمسيح من تلقاء نفسه في قلوبهم، حتّى من غير أن يدروا هكذا طوال الوقت عند كلّ لفتة، عند كلّ كلمة. . إنّها كالعدوى. . هي بينهم كالعدوى تنشر إيمانها بالمسيح شاؤوا أم أبوا. سوف تترك صلواتها ـ ولو صامتة ـ آثارها على كل الأرجاء والجوانب والوجوه والنفوس خاصّة أنّها لم تجبر على ترك دينها واعتناق دينهم.

لن ينقطع الحوار معهم، هذا هو المهم. . إذ كانت زياراتها في السّابق بمثابة غيمة تزخ مطراً فيتحلّقون حولها مندهشين. . وما إن يتوقّف المطر حتّى يتفرّقوا إلى حياتهم الّتي كانت تدور حول التّندر وتخزين القات والتحدّث في السياسة والهجرة. . .

تشعر انغريد براحة لا مثيل لها، وبسعادة أقرب إلى الطّيران. إنّ ما حقّقته من غير أن تدري كان أخاذاً كالمعجزات. . هي الّتي قدمت من تلك البقعة النائية عبر البحار والضباب بعد أن دقّت على بصرها الرؤية ذات مساء: «انغريد. انهضي صلواتك هذه أصبحت محدودة. . اذهبي إلى أقاصي الأرض، إلى بلاد محجوبة عنّي وعن المسيح. . ارفعي العتمة عن أبصارهم. . دعيهم يلمّون بنا واتركي لهم حريّة الخيار». .

وفي اللّيلة الّتي قررت بها انغريد الزواج من مهيوب ارتمت أمام صورة مريم العذراء تخبرها عمّا حصل، تطلب منها المشورة وتعترف لها بميلها أيضاً إلى مهيوب. وإذا بعيني العذراء تشيران إليها بالموافقة. .

www.ibtesama.com

الأغاني لاتزال تصدح والنساء يرقصن بينما يساعد بعضهن سعاد في المطبخ وهي تخلط الماء بالببسي كولا الّتي اشتراها مهيوب حتّى تقدّمها إلى المدعوّات وفرحتها عارمة لأنّ الشّابة ذات العينين الزرقاوين الّتي ترى الدّنيا كما تراها سعاد بعينيها البنّيتين هي للأبد أمام ناظرها. . رغم انهماك سعاد فهي قد توقّفت لحظة وتساءلت «ترى هل تُذَكّر انغريد بالشّرط ولو على سبيل المزاح عندما ألمّت سعاد والرّجال منذ الزيارة الثانية بأن انغريد عازمة على نشر دينها في منطقتهم وقرّر الرجال فيما بينهم على عدم استقبالها والتّرحيب بها فلربّما الاستماع لها قد يتدخّل بإيمانهم». جنّ جنون سعاد، فهي لم ترد أن يخطف شعورها بالسّعادة والترقّب لزيارة انغريد القرية، فقد كان ذلك الشعور يفوق الاحتفال بالأعراس والولادة والتّعزية بالأموات. كأنّ نفحة من العالم الّذي كانت تراه أحياناً من تلفزيون أخيها مهيوب قد جرجر نفسه وركع بين يديها قائلاً: «لبّيك لبّيك. عبدك بين إيديك». . . لذلك شارطت سعاد الرّجال بأنّ النّتيجة ستكون كما يحدث الآن في الغرفة المجاورة أن تضم انغريد إليهم وتصبح واحدة منهم وتعيش بينهم.

ولم يبارك أو يصدق توقّع حدوث هذه المعجزة سوى أخيها مهيوب لأنّه كان غارقاً في حبّ انغريد منذ اللّحظة الأولى لرؤيتها. .

تفرغ سعاد من خلط المشروب وتقرّر أنّها لن تُذَكّرْ أنغريد بهذا الشرط، إلاّ بعد مضيّ وقت أو ربّما لن تذكره أبداً، لكنّها لم تستطع أن تطرد صورتهما معاً وهما تحتسيان القهوة ذات صباح عندما قالت

www.ibtesama.com

لانغريد وهي تقرأ لها بختها في فنجان القهوة«ستتزوّجين منّا وسوف تنسين مواضيعك وقصصك». . . وكيف هزّت انغريد رأسها تنفي ضاحكة: «أبداً، أبداً لن أتزوّج والسّلام» وكيف أمسكت سعاد بيدها وقالت: «ستتزوّجين وستتزوّجين من هذه القرية. . أشارطك على حياتي».

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

لا أريد أن أكبر

كان يجب أن ترى لوناً غير لون الرّمل والرّمال. أن تلمس أيديتا شيئاً غير طبقة الغبار. أن تتسلّى بغير صوت الرّيح والمكيّفات وثرثرات الأولاد. إذ كنّا نعيش في كمبوانتد يخص شركة للتنقيب عن البترول في جوف الصّحراء. هذا الشّيء الّذي تمنّياه دون أن تعرف ما هو أحضره لنا أو بالأحرى أحضره لأخي الصّغير خادمنا بوسطة. رغم فرحتي بهذا الشّيء الّذي أتى به فقد خطر لي أنّ بوسطة ينوي التقرّب إلى أخي الصّغير بطريقة جديدة إذ بدأت أشكّ بتواياه. فيداه أيتما كانتا على أخي الصّغير. تتحسّسان كتفه، رقبته، وجهه، وتداعبان خصلات شعره حتّى أصبح بوسطة يذكّرني بالإلهة الهندية ذات الأيدي الكثيرة. يوهمني أنّه يهتمّ بأخي كأمّ أو كأب وهو يفكّ المنشفة من حول خصره ليعود فيحكمها بحزم. وفكّرت وأنا أحدجه بنظراتي أنّه يطمع في رؤية أخي في المايو. كان يصرّ على أن يجلس أخي في حضنه حتّى يعلّمه قيادة الدّرّاجة أو السّيارة. يشير له حتى يأخذ ما خبأه له في جيب مريول المطبخ الّذي يلبسه دائماً فأرى أصابع أخي الصّغير تمتدّ إلى الجيب الّذي يقع وسط المريول، تبحث عن قطعة شوكولا أو سيارة صغيرة.

كنت أعرف أنّ على الصّبيان الحذر أيضاً، من أيّ رجل هنا، لا البنات فقط. الأولاد في المدرسة يتداولون الأحاديث عن الشّذوذ.

www.ibtesama.com

يرددون تحذير أهاليهم لأخذ الحيطة حيال أيّ غريب خاصّة الخدم الّذين يكادون يعيشون في البيوت. رغم أنّي جئت بما تعني كلمة شذوذ من القاموس إلاّ أنّ عقلي سجّل هذا الموضوع بطريقة تختلف عن حديث الأولاد، عندما رأيت صوراً فوتوغرافيّة لرجلين متعانقين في مجلّة شهريّة كانت تصل إلى أمي بالبريد مرّة في مطلع كلّ شهر. هذه المجلّة السّميكة الّتي تشبه الكتب، قلّما حوت صوراً وإذا حوت فهي رسوم لا تعني لي شيئاً سوى أنّها غامضة وباللّونين الأبيض والأسود. أفشيت هواجسي تجاه بوسطة إلى أخي الّذي كان يصغرني بخمس سنوات، ولمّا لم يفهم ما أقصده أتيت له بمجلّة أمّي. شعرت وأنا أريه الصّور بأنّه لا يستوعب ما أرمي إليه. وفعلاً قال لي: «ولكن بوسطة لا يشبه هذا ولا ذاك». كان بوسطة في مثل طولي، شديد النحولة لولا تجاعيد جبهته وسنّاه الذّهبيّتان لبدا أصغر من سنّه. بينما بدا الرّجلان المتعانقان وسيمين طويلين كعودي الخيزران يتّكئ أحدهما على الآخر في ولع شديد. كان كلّ منهما يرتدي بذلة رسمية وربطة عنق وكأنّهما رئيسا جمهورية.

قال أخي: «لابدّ أنّهما يبكيان. لابدّ أن أحدهما ماتت أمّه أو كلبه». زفرت بضيق وأطلعته على صورة أخرى. كان وجهاهما متلاصقين، ينظر كلّ منهما في عينَي الآخر نظرة حبّ وحنان وكأنّهما ممثّل وممثّلة. قلت محرضة: «أرأيت؟ أفهمت ما أقصده» وأنا أشير إلى وجهيهما. لكن جواب أخي وقع عليّ كدوش ماء بارد: «دكتور يفحص عينيْ المريض؟» ووجدتني أطرح المجلّة جانباً. وأمدّ إصبعي أحذّره، أخيفه، بأن لو لمسه بوسطة في أيّ مكان من جسمه لأحدث له أوجاعاً عظيمة وربّما مميتة.

www.ibtesama.com

منذ اللّحظة الّتي أنهيت فيها جملتي هذه بدأ أخي الصّغير يتحاشى بوسطة بمبالغة، ما عاد حتّى ينظر في وجهه. بل إنّه لم يعد يترك نفسه مع بوسطة في مكان واحد من دوني خاصّة في اللّيل، عندما كان يخرج والدي وأمّي لزيارة البيوت الأخرى ويبقى بوسطة معنا ريثما يعودان من الخارج. كان أخي الصّغير يلتصق بي ونحن نشاهد التلفزيون، ونحن نأكل، ندخل الحمّام معاً إذ ما أراد أحدنا دخوله. كان هذا يضايقني غاية الضّيق. إذ كان يتعذّر عليّ التبوّل أثناء وجوده حتّى وإن أشاح بوجهه ناحية الباب.

لم يخطر ببالي أن أفضي بشكوكي إلى أمّي حتّى قبل أن يأتينا بوسطة بذلك الشيء. فهو إذ كان يقطع البطاطا على شكل إجاصة، ويتفنّن في تحضير كعكة عيد ميلادي، كان يساعدني في تلوين الخرائط. ويرسم الوجوه على ورق وكأنّه رسّام محترف، يطرّز حبّات من الكرز فوق بلوزتي. كنت أعرف مدى اتّكال أمّي عليه، فهي تكاد لا تلمس شيئاً من أعمال البيت والمطبخ. بل إنّها تجلس فتطالع الكتب بتواصل. فكيف إذن أشكوه لها بعد أن شبكنا بالأرنب الصّغير الّذي أتى به؟

الأرنب الأبيض اللّون الّذي كان يشبه مكبّ الصّوف الانغورا والّذي أقام له قنّاً نقفل بابه كلّ مساء بعد أن نلعب معه عقب عودتنا من المدرسة. كنّا نضعه في القنّ قبل أن نخلد إلى النّوم، فيأخذ الأرنب يضرب بقائمتيه الأماميّتين على الباب حتّى نفتح له. كان أرنباً ذكياً، يعرف أنّ خارج القنّ أكثر متعة له من داخله. كنّا نتركه يدور بين الغرف بينما ألحق أنا به. ألملم حبوب الخرز الأسود الّتي كان يتركها خلفه خوفاً من أمّي، أبعده عن غرساتها الخضراء. لكنّه كان

www.ibtesama.com

أسرع منّي ذات مرّة فالتهمَ نصف ورقة. أصبح هذا الأرنب فرداً منّا إلى أن حمله بوسطة ذات مساء من أخته ـ رغم صراخ أخي بأن لا يحمله هكذا ـ وقال بأنه لم يرَ في حياته كلّها أرنباً يكبر بتلك السّرعة وأثنى على جهودنا. كنّا فعلاً نسرق له من الجزر والخسّ أكثر ممّا سمحت لنا أمّي به. ولدهشتنا اتّجه بوسطة بالأرنب إلى سلّة لها غطاء، يعلّقها عادة في مؤخّرة درّاجته قائلاً إنّه يودّ أن يجمع هذا الأرنب مع آخر فلربّما كان أنثى وأنجبت. صاح أخي الصّغير صيحة واحدة دون أن يفهم ما يقصده بوسطة لكنّه سرعان ما رآه يخرج أرنباً آخر صغيراً من السلّة ممسكاً به من أذنيه. لم يتردّد أخي بين حبّه لأرنبه الّذي اعتاد عليه وبين هذا الأرنب الصّغير سوى لحظات معدودات.

وهكذا كلّما كبر أرنب استبدله بوسطة بآخر أصغر منه. اعتاد أخي على هذا الاستبدال بل ربّما رحّب به، فملامح الأرانب هي واحدة. حركتها واحدة، من ارتجاف الفم والأنف إلى نظرة الأعين. عدا أن الأرانب الصّغيرة ذات سحر خاص يمسّ القلب.

وكان الرّبيع قد أتى ومازال البردُ محتملاً. تنبّأ أخي ونحن نصعد السّلالم إلى السّطح في صباح اليوم الأوّل بعد أن نقلنا الأرانب إلى هناك، بأنّنا لن نجد الأرنب.

وكنّا قد اضطررنا إلى نقل القنّ إلى السّطح بعدما أصبحت أمّي لا تطيق رائحة الأرانب في الرّدهة أو في المطبخ. وهي لم تدعنا نضع القنّ منذ البداية في حديقتنا، معلّلة ذلك بأنّها قرأت أو سمعت أنّ رائحة الأرانب تجتذب الأفاعي والعقارب.

www.ibtesama.com

وعاد أخي يسألني إذا كانت الأفعى تزحف عمودياً وأنا أطمئنه حتّى وصلنا إلى السّطح. ولدهشتنا لم نجد الأرنب. وقفنا والحيرة تكاد تأكلنا إلى أن ظهرت حركة بين أوراق وكتزة بالية كنت قد تركتها على السّطح منذ مدّة طويلة. كانت الأرنبة المتطوية على نفسها، الّتي لم تكن تدعنا نداعبها كالأرانب الأخرى، قد خرقتها بعد أن أحاطت نفسها ومخلوقات صغيرة بفروها لتكتشف أنّها أرانب صغيرة تشبه الفئران. أسرعنا بها إلى بوسطة الّذي ما إن رآها بين أيدينا حتّى صاح بأنّها ستموت كلّها إن نحن فصلناها عن أمّها في الأسابيع الأولى. وفعلاً ماتت الأرانب الصّغيرة كلّها رغم أنّنا وضعناها في صندوق كرتون في غرفة الصّالون وقرّبنا منها زجاجة ماء ساخن حتّى تشعر بالدفء. لمّا أراد بوسطة أخذها أيقنّا أنّه لن يدفنها بل سيرميها، لذلك انتظرنا والدي ريثما يعود من عمله ليصطحبنا خارج أسوار الكمبواند، حتّى ندفنها بعيداً خوفاً من الأفاعي استجابة لطلب أمّي. وبينما أنا أنكش في الرّمل، عمّتني سعادة ما كأنّي على شاطئ بحر لا يتقصني فيه سوى ارتطام موجه، ونسيم البحر. كان الوقت ساعة غروب وبدا الكمبواند من حيث نحن كنقطة خضراء على ورق كيس. صبرنا على الأرنبة السّوداء، وما عدنا نحملها، واكتفينا بمراقبة بطنها وانتفاخه. وكلّما شكا أخي أمره لي أعدت إليه صبره بتذكيري له بالأرانب الصّغار الّتي ستحملها قريباً ثمّ تناقشنا إذا كان سيتركها كلّها لنا. لكن بوسطة ترك لنا أرنباً واحداً سرعان ما مات. وجّهنا اللّوم إليه بقولنا إنّ الأرنب مات حزناً على فراق إخوته. لكن بوسطة أجابنا وهو يضحك مستهزئاً بأنّ إطعامنا له البقدونس والكزبرة هو الّذي أماته. ثمّ وعدنا بإحضار أرنب آخر صباح اليوم التّالي. هزّ أخي

www.ibtesama.com

رأسه موافقاً وخرج ليلعب مع الأولاد ليعود مهرولاً فيخبرني أنَّ الأولاد أصبح لديهم طاووس وطائر كالبّبغاء يحدث صوتاً اليكترونياً، خرجت ممسكة بيد أخي الصّغير أستفسر من الأولاد عن قصّة الطّاووس والبّبغاء فأقسموا أنّ خادمهم كميل قد جاء بهما من بلاده. وكان أولاد الكمبواند قد أخذوا يربّون الأرانب الصّغيرة مثلنا ثمّ يستبدلها الخدم كلّما كبرت بأخرى صغيرة. طاف في خيالي قفص الكنار الّذي رأيناه مرّة يكرج على حزام الأمتعة المتحرّك في المطار. وكيف ضحكت بل ضحك كلّ من في القاعة لمنظر الكنار بين الحقائب الّذي بدا مستأنساً بما يجري حوله. قال أحد الأولاد إنّ الطّاووس يفرد جناحيه كالمروحة، علّق آخر: «ما النّفع إذا كنّا لم نره بعد؟» سألت الأخير ماذا يقصد؟ فصاح الجميع بصوت يكاد يكون واحداً: «كميل ينسى أن يحضره من غرفته رغم أنّنا نذكّره به كلّ يوم». قلت: «لابدّ أنّه يكذب، كان بوسطة يخبر أخي أنّ في بلاده جهاز تلفزيون بحجم الغرفة». قرّرت أن اصطحبهم إلى غرف الخدم القائمة في نهاية الكمبواند وسألت: «لماذا لا نذهب الآن ونطلع على الحقيقة؟» تحمّس الأولاد وانطلقوا كالغزلان حتّى يستأذنوا أهلهم. ربّما طال غيابهم أو أنّي توهّمت ذلك فأمسكت بيد أخي ورحت أركض باتّجاه غرف الخدم. أتساءل في الطّريق لماذا يفوق حماسي حماس الأولاد لرؤية الطّاووس أو اكتشاف كذب الخادم. لماذا لم أنضج بعد؟ اهتم بالأرنب وبكلّ ما يتعلّق بأخي وبالأولاد، لدرجة أنّ أمّي قالت لي مرّة مؤنّبة إنّه لابدّ أن يكون عقلي أصغر من عقل أخي بعد أن رسمت على وجوه الأولاد بالأقلام الملوّنة نقوشاً كالهنود الحمر بقيت آثارها يومين على وجوههم رغم حكّهم لها بالصّابون

www.ibtesama.com

والكريمات. كنت فعلاً أتسلّى باللّعب معهم. أضحك لضحكهم، كنت قائدتهم أعلّمهم أشياء فيها أحياناً بعض التهوّر. ألقّنهم أدواراً لتمثيلية، في حين أن رسائل ابنة خالتي الّتي بقيت في لبنان والّتي هي في مثل سنّي تتحدّث عن الشّباب ومساحيق الوجه ومغنّي الرّوك.

شعرت بسعادة كمن يقدم على مغامرة خاصّة لمّا بدت النّجوم قريبة واختفت البيوت. الشّمس حمراء تكاد تغطس في الرّمل، الشّفق قد أعطى ألواناً بنفسجيّة، برتقاليّة، رماديّة. كانت لديّ فكرة عن مساكن خدم الكمبواند، أو آلات المصنع، لطالما شبّهت الكمبواند بالمصنع والخدم بآلاته. فهم يغذون وقود الحياة فيه من الأكل والشراب بالاضافة إلى تنظيف البيوت والطّرقات. كانوا يسكنون قرب جامع صغير تغطّي جدرانه فسيفساء زرقاء.

كَوْني سيّدة نفسي وسيّدة أخي يتبخّر إذ بدأ أخي يتلكّأ في المسير. ولمّا سألته ما به قال إنّه تعب، ولمّا عرضت أن أحمله عاد واعترف أنّه خائف. رغم أن العتمة في الصّحراء لم تكن داكنة أبداً. تلفّت حولي علّني أعثر على حجر أو عصا أحمي بها أخي. كان كل ما حولنا ساكناً: الحدائق شبه قاحلة، كذلك الربوات قاحلة إلا من غرسات كأنّها المراوح ومن نبتة ما إن وضعت يدي عليها حتّى استسلمت لي هي وجذورها. أبعدت فكرة العصا أو الحجر وسألت أخي لماذا هو خائف؟ ولمّا أجابني: «من بوسطة»، انحنيت عليه قائلة: «حبيبي». لمّا حملته بين يدي وجدتني أبدّل رأيي بسرعة إذ كان ثقيلاً لدرجة أنّي أعدته إلى الأرض قائلة: «ما تخاف بوسطة بعده بالبيت. ولوّ أنا معك وبتخاف؟» ندمت على تخويفه من بوسطة.

www.ibtesama.com

كأنّه الغول الّذي كانت تخيفني منه جدّتي. ثم سألني: «لماذا لم تنتظر الأولاد؟ لماذا لا نعود الآن ونأتي بهم؟» أجبته: «حتّى نرى الطّاووس قبلهم ولربّما أخذنا البيّغاء...» سأل: «تسرقها؟» أجبت: «ربّما؟» ولم أستطع تخيّل وجود طاووس أو ببغاء في هذه الغرف الخشبيّة، إلاّ أنّي أردت أن أسير بعيداً عن البيت وأن أتحقّق من هذه الكذبة. غلفتنا العتمة فجأة، ثم عادت فانقشعت، أنوار تأتي من بناء ومن الطّريق المعبّدة الّتي ترجّلنا فوقها إذ كنت قد أخذت طريقاً ما بين البيوت لأنّها أقصر من طريق السّيّارات المعبّدة.

لم يعد أخي يلتصق بي إذ كلّما اقتربنا واقتربت منّا رائحة طعام وأصوات أولاد ترتفع بلهجة بلادهم أيقنت أنّهم أولاد الخدم يزورون آباءهم في أيّام العطل. سمعت يوسطة مرّة يتمنّى لو يرسل في طلب أولاده لزيارته لولا تكاليف السّفر المرتفعة. رؤيتنا لهم خفّفت من ضربات قلبينا، لكن خروج أحد الرّجال من الغرف وتوقّفه حالما رآنا ثم يحلقته بنا أعادت الضّربات إلى قلبي، ولكنّ بعنف أكبر. يجب أن أسأله عن بيت يوسطة أو كميل. يجب... يجب أن أسأله بصوت شحته بكلّ ما أوتيت من قوّة. يشير بيده إلى آخر البيوت. أشكره بصوت مرتفع وهو مازال يحدّق بي. إنّه يتحرّك، هل يلحق بنا؟ عاد أخي يلتصق بي للدرجة أنّه كان يتعثّر عليّ السّير. عرفت أن وسواس الأهل في محلّه. ها أنا أركض خلف الشرك. ولم أعرف مدى خوف أخي من يوسطة إلاّ وأنا أشعر بمثل خوفه من هذا الرّجل.

رائحة كريهة طغت على أفكاري، ثمّ حبال غسيل امتدّت بين المبنى وعمود الكهرباء والطّريق. كان علينا أن نخبّئ رؤوسنا تحت

www.ibtesama.com

الغسيل المنشور حتى تصل إلى حيث أشار الرّجل. فكّرت أنّ مجاري الكمبوانـد تصبّ هنا. الغسيل يرتطم برأسي ورقبتي. ارتطامه يحدث صوتاً. غسيلهم يبدو غريباً، لابدّ أنّهم يستعملون مسحوقاً يجعل ملابسهم يابسة تحت الشّمس. الرّائحة تزداد والغسيل على شكل واحد كأنّه غيارات أطفال. نور ما انبعث من إحدى الغرف تحت الضّوء. لمع الغسيل في عيني ورأسي وصرخت. ثمّ صرخ أخي، تبيّن لنا أنّ الغسيل المنشور ما هو إلاّ أرانب. يرؤوسها وبأذانها. جلود الأرانب، البيضاء والمرقّطة والسّوداء الصّغيرة والكبيرة. إنّها تجرح وجهينا بأرجلها المقدّدة. لا أتصوّر الأرنب الّتي كانت عيناها جذّابتين تبدوان كأنّ أحدهم مرّ بقلم كحل أسود فوق أجفانها والّتي أطلقنا عليها لقب كليوباترا معلّقة الآن على هذا الحبل. صرخت وصرخ أخي. وأخذنا نعدو لنتخلّص منها وهي كثيرة. رائحتها تكاد تخنق الحنجرة. نتخلّص من الأرانب الّتي كنّا نعانقها وندفن أنوفنا بوبرها ونضعها في سيّارة أخي ونجرّها. إنّها تتابعنا الآن بأعينها الميّتة والّتي كانت بلون الجزر. الأرانب الّتي أبعدت عنّا رتابة الصّحراء بقفزها وبألوانها تبتعد عنها كأنّها نار لاسعة. طرنا فوق إسفلت الطّريق ونحن نصرخ. وكلّما لاحت بيوت الكمبوانـد والجناتن علا بكاؤنا. لربّما استطلع أحدهم أمرنا وقصصنا عليه هول ما رأينا. لكن الموسيقى والأصوات ورائحة الطّعام فقط كانت تنبعث من هذه البيوت الهادئة. سأل أخي: «لماذا؟ لماذا؟» ثمّ كأنّه فطن إلى البوّاب فشد على يدي وقال: «هو أماتها كما أراد أن يميتني. لماذا؟» وما أجبته إلاّ بكلمة: «سنقتله»، ردّد أخي: «سنضربه»، «لا سنقتله، سأذبحه». قلت وأنا ألهث وأعدو كأنّ بوسطة يهرب منّي

www.ibtesama.com

وأنا ألحق به. لكنّ أخي الصّغير صاح: «لا. لا. نضربه فقط» ثم وهو يخبئ عينيه صاح باكياً: «لا لن نذبحه».

ربّما وضعنا له حبوباً منوّمة كالّتي تستعملها أمّي من وقت لآخر، ربّما دسسنا له السمّ. من أين لنا أن نأتي بالسمّ؟ سيطرده والدي حالما يعرف، لكن لا، الطّرد لا يكفي، سيجد بوسطة عملاً آخر. يجب أن ننتقم. ذعري وحقدي كانا عظيمين لدرجة أنّي لم أهتم إذا كنت سأعاقب لأنّي عصيت الأوامر وذهبت إلى غرف الخدم.

ما كان وقع دخولي على أمّي كما تصوّرته إذ بقيت عيناها معلّقتين فوق سطور الكتاب الّذي كان بين يديها ولم ترفع عينيها بفضول إلاّ عندما سمعت من قصّتي كلمة غرف الخدم فأثّر بها بكائي وبكاء أخي فجأة، هبّت تتحسّسنا ولا تسمع ما نقول إلاّ بعد وقت ثمّ لتنفجر ضاحكة. تطلب منّا أن نعيد عليها حكاية ما رأيناه ليغالبها الضّحك من جديد. ونادت بوسطة، وكأنّها تحدث نفسها تقول إنّها لم تتصوّره بهذا الذّكاء. فَعَمَلُ بوسطة قبل أن يأتي إلى الصّحراء ويشتغل في البيوت كان يقتصر على نقله للرّسائل الشّفهيّة بين سكّان قريته والقرى المجاورة. وهاهو الآن يعهد بتربية الأرانب لأولاد الكمبواند ثم يبيع لحمها وفروها: عمليّة مربحة من غير تكلفة. نادته مرّة أخرى. كنت أعرف أن بوسطة قد ذهب ليعبّئ الماء من الخزّان إذ لم أر درّاجته عند الباب ولا سكّاب الماء. تركت أمّي تناديه وأنا مازلت مصعوقة تحت وقع ردّة فعلها الضّاحك. انتشلت يد أخي الصّغير بعنف لأفهمها أنّي غاضبة. كيف يمكن أن توجّه لنا مثل هذا الحديث ونحن في هذه الهستيريا؟ تمنّيت لو أقول لها كم أنها عديمة الشّعور.

www.ibtesama.com

بل كم أنّ جميع الكبار في منتهى الغباء والقسوة، وبأنّي لا أريد أن أكبر. لا أريد أن أكبر. غادرت غرفة الجلوس بالطّريقة الّتي دخلتها وكأنّي زوبعة. حملت أخي إلى سريري أضمّه إلى قلبي. لم نأكل ولم نشرب. لم نودّ دخول المطبخ ورؤية عدوّنا السفّاح. لم نبدّل ملابسنا، أو نفرشِ أسناننا. بل حضنت أخي أجفّف دموعه وأعده بالانتقام. نمنا والملوحة ماتزال في حنجرتنا.

استيقظنا في صباح اليوم التّالي على رؤية أرنب صغير أبيض على طاولة الطّعام، ينظر إلينا حائراً. لم يمد أخي يده إلى الأرنب الجميل، بل حدّق بي منتظراً ردّ فعلي. ووجدتني أسرع وأحمل الأرنب المرتعش بين يدي للحظات قبل أن أرفعه إلى أنفي أقبّله ثم أعطيه إلى أخي الّذي أمسكه بدوره متردّداً. اقترب بوسطة منّا وهو يقشّر البطاطا ويسأل أخي أن يعطيه قبلة كعربون شكر وامتنان، لكنّ أخي اقترب منّي وعدونا معاً خارج المطبخ.

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

أكنس الشّمس عن السّطوح

هجمت كالحصان الظمآن إلى الماء. لم أكن عطشى بل كنت احترق. لم أدلق الماء عليّ بل على الشّاب الإنكليزي وصديقه. بينما تركت النّار تتصاعد من رأسي وقلبي وصدري وأسفلي أيضاً.

صور كثيرة جعلتني كالحصان الهائج الّذي كلّما تمرّد ورفع رأسه محاولاً طردها، لمعت مخيلته بفلاش جديد هيّجه أكثر وجعله يميل برأسه في كلّ الاتّجاهات...

... سعد مسجّى على الأرض بلا صوت. سعد الّذي كان صوته الجهوري ينبع من جذور أحشائه. كأنّ زوجته خطفت صوته لتولول به. تساعدها بناتها وعمّاته وشقيقاته. يلطمن وجوههن بعنف. يمرغن وجوههن بالرّماد وبالشّحار الأسود.

... الحمام الانكليزي وهو يكبّ على ما تبقى من الكسكس. لم يكن يأخذ نفساً بين اللقمة والأخرى. يغمس كامل مقاره ورأسه في الحبيبات، وأنا أبتسم له وأخاطبه: «الظّاهر عجبك كسكس العلب.. أنت ترجع لأصلك إنكليزي متعوّد على الطّعام المثلّج وعلى المعلّبات..».

... كلمات عائشة تنادي نفسها بنفسها. في غرفة المؤونة تحتّي على البقاء في بلدتي وهي تهزّ قرطيها الذّهبيين وسوار معصمها

www.ibtesama.com

الذّهبي. بصري يتعلّق بحذائها الّذي كان يطابق شنطة يدها بلونه وموضته.

... أرى نفسي أقف وسط بيت عائشة المغربي الأثاث والرّائحة. غير مصدّقة أنّي في لندن.

... رسالة تأتيني على عنواني هنا. على طرفها اسمي بالإنكليزية. طابع بلدي عليها، فحواها طلبات من عائلتي حتّى اشتريها وأرسلها لهم: طرحة بيضاء لعرس شقيقتي، جوارب طبّية لأخي، صحن صيني لأمّي.

... أراني وأنا أعرض على الشّاب الإنكليزي الأشقر الّذي أدلّق عليه الماء الآن ـ نصف وجبة غذائي وأجلس ممتنّة لأنّه يستذوق طعم قطعة الدّجاج المغمّسة بالكمّون والزعفران وهو يبتسم لي لأوّل مرّة. كنت أتمنّى نيل رضاه لأنّه إنكليزي. أتمنّى نيل رضى الجميع هنا، من قاطع تذاكر الباص إلى البائع الهندي لأنّه كان يملك دكّاناً ويتكلّم الإنكليزية.

... أنا تائهة في الاندرغراوند. دموعي تسيل على خدّي. أتبيّن المحطة في المرّات التّالية. أتبيّن كلّ المحطّات. حفظت أحرفها وكأنّها رسوم. أدلق الماء عليهما وهما يصيحان: «مجنونة، يا سيّدنا المسيح، إنّها فعلاً مجنونة». أتحوّل أمامهما إلى ثور هائج لا يرى إلاّ اللّون الأحمر. أرى لون الدّماء الأرجواني عليه وعليّ بعد أن هبّ عند صرختي. نهض كمن لسعه ثعبان وصاح: «أنت عذراء، حتّى الآن عذراء... لا أفهم.. لا أفهمك». وبدلاً من أن أعض أصابعي ندماً على ما أعطيته منّي وأثور على ضعفي الّذي مدّدني وسهّل عناقي

www.ibtesama.com

مع هذا الشّاب الإنكليزي ـ فقط لأنّه إنكليزي ينتمي إلى هذه البلاد العظيمة الّتي تحكم نصف الكرة الأرضية ـ وعوضاً عن لوم نفسي لتشبّثي بفكرة أنّي قد قطعت كل الخيوط بيني وبين بلدي، لمجرّد أنّي قدمت إلى لندن وحدي من غير أي فرد من عائلتي، وبدلاً من اللّطم والنّدب لأن أسفلي أصبح مثقوباً وجدتني أفكّر بل أتساءل: ألأنّه إنكليزي لم يشعر بالزّهو لأنّه فضّ بكارتي؟ أم أنّه خائف من أن أضع اللّوم عليه وأجبره على الزّواج منّي؟

حاولت أن أشرح له أنّه غير مسؤول عن اختراقه لعذريّتي، ولكنّه لا يسمعني. إنّه مازال مصعوقاً كأنّه يهذي: «عمرك ٢٥؟ ٣٠ سنة؟ وأنت مازلت عذراء يا سيّدنا المسيح حقّاً لا أفهمك... لا أفهم شيئاً».

وقتها لم يقصد الحمّام ليغتسل، بل بقي في الغرفة. راقبته بطرف عيني وهو يمسح نفسه بورقات من الكلينكس ليرميها على الأرض، غير مبال بآثار الدّماء عليها. يرتدي بنطلونه ويسرع إلى الموسيقى يرفعها. يميل برأسه معها وينام على بطنه.

... أرى نفسي على سطح بيتنا، أشمّس الكسكس فوق الشّرشف للمرّة الأخيرة قبل سفري إلى لندن. أرى كلّ البلدة في ذهني. رؤوس الأشجار، مئذنة الجامع والسور الأثري الّذي يحيط ببلدتي. رغم أنّي لم أكن أفكّر آنذاك إلّا أنّي أسير في لندن، أتلمّس طريقي بين بناياتها العالية الملتمعة بالأضواء.

... أرى صديقة عائشة وهي تساعدني على الفرار من بيت

www.ibtesama.com

عائشة. وهي تحمل طفل عائشة بين يديها. بينما أمسك شنطتي وأجر طفل عائشة الآخر. أرى الجارة الإنكليزية تسدّ بابها في وجهينا، ومع ذلك تترك لها الطّفلين عند الباب وتعدو بعد أن قرصتهما في خدّيهما حتّى يبكيا.

. . . بدون جَوْربيْن أسير في برد لندن. بدون معطف أو كنزة أدخل مارك اند سبنسر حيث مئات الفساتين والكنزات وقمصان النّوم الجميلة. أدفع للمرأة الّتي تقف خلف الصندوق وأبتسم لها. ترد ابتسامتي وتقول إنّ ما اخترته في منتهى الجمال. أفرح. إنّها راضية عن ذوقي وعن الطّريقة الّتي دفعت بها. أشتري المعطف الأحمر الّذي لم ألبسه حتّى الآن. أكبّ على المكنسة الكهربائية كأنّها مكنسة السّاحرة الّتي سوف تنقلني من دنيا إلى أخرى. من دنيا الفقر إلى دنيا المال. أدوات التّنظيف كثيرة، ملوّنة، متعدّدة الرّائحة، كذلك الأماكن الّتي أقوم بتنظيفها. سلسلة رقبة عائشة الذّهبية الّتي أخفيتها بين ملابسي هي الآن بين يدي ثمّ على طاولة الصّائغ في اكسفورد ستريت. يعود اللّون الأحمر يفور وكأنّه عصير برتقال وردي يعصر نفسه في شارع السّياح في بلدتنا. يحطّ الآن بين عيني ويجعلني أرى كلّ شيء أحمر رغم استحضار ذهني لشقيقة الشّاب الانكليزي قبل ثوانٍ. هي مؤدّبة، أهدتني علبة شوكولا صغيرة مرقّقة ببطاقة شكر. قبّلتني وهي تصافحني وتشكرني على دعوتي لها يوم الأحد. إنّها تختلف عن أخيها وعن أصدقائه الّذين كانوا يأتون لزيارتنا. يستأنسون بجو الغرفة النّظيف، والفراش النّظيف، يفرحون لوجود الفيديو والمسجّل والكاسيتات. يأكلون من طعامي الشّهي، يستمعون إلى الموسيقى العالية. يكرعون المشروب الّذي كانوا يأتون به.

www.ibtesama.com

يتمنّون كلّهم زيارة بلدي، وأنا أهزّ رأسي أعدهم بأنّهم لن يتكلّفوا بنساً واحداً بينما أفكرّ أنّه ستلتفّ البلدة حولهم، حول شعورهم الملوّنة، المقصوصة أو الطّويلة. وأنا أبتسم لهم أزيد من الطّعام في أطباقهم. الشّاي بالنّعناع أو القهوة في أكوابهم. أتمنّى رضاهم، رغم رائحتهم الكريهة الّتي هي رائحة شعورهم الواقفة كالوتد الملوّن والمختلطة برائحة المشروب إلى أن بدّلت ضيافتي هذه، قدّمت لهم وجهي الفاتر البارد عندما لم يعودوا يفارقوننا. عندما علت موسيقاهم. عندما أخذوا يتضاحكون من غير أن يتكبّدوا كما من قبل عناء الشّرح لي وإعادة ما يقولونه حتّى أفهم ما يجري. عندما أخذ الشّاب الانكليزي يريهم أدوات التّنظيف والتّطهير شارحاً لهم هوسي بالنّظافة وكيف أنّي قمت بغسل كلّ ملابسه ذات يوم ممّا اضطره للبقاء في البيت طوال النّهار. شعرت بكراهية حيالهم عندما أصبحت أنام في الرّدهة تاركة لهم الغرفة بعد أن أسحب وسادتي والحرام الصّوفي من على السّرير. لربّما فهموا غضبي، وتوقّفوا عن الفشخ فوقي وهم يغادرون في السّاعات الأولى من الصّباح وقد تركوا المنافض والأكواب على الأرض تختلط مع علب وقناني البيرة الفارغة. أو حين كانوا ينامون أحياناً من شدّة سكرهم على الأرض من غير وسادة أو غطاء إلى حين عودتي من العمل. عندما كنت أهذي بالعربيّة، أخبرهم أن غرفتي ما هي إلاّ مزرعة الخنازير الّتي كانت تخصّ الرجل الإيطالي في طرف بلدتنا والّتي كنّا كلّما اقتربنا منها نبصق على الأرض مردّدين: «تفو على النّجاسة والوساخة». من غير أن نرى من هذه المزرعة سوى السّياج الخارجي.

لماذا يحدث ما يحدث الآن. لماذا أقف وأدلق الماء عليهما،

www.ibtesama.com

وهما يتصايحان. ربّما كانت تحدث أشياء مشابهة في الغرف المجاورة المسكونة من مختلف النّاس وكانت تمنعني من النّوم من جرّاء الصّخب الّذي يدور بين جدرانها: صياح، وزجاج متناثر وكلمة بوليس تدوي هنا وهناك. كم فرحت في اللّيالي الأولى لوجوده معي. ظننت أنّه يحميني من هذه الأصوات، لكنّها تحدث الآن في غرفتي. أحاول الصّياح مثلهما لكنّي أسكت نفسي لأنّ صيحتي مبتورة. لا أعرف حتّى الآن التّعبير عن غضبي بالإنكليزية. لذلك أعود إلى دور الحصان المتمرّد. الثّور الهائج. أدور وأعلو وأحطّ وأهجم وأتراجع. هما يتصايحان؟ لا هما يضحكان. إنّهما يضحكان.

الموسيقى هي الّتي أنهضتني من الرّدهة. كانت الموسيقى تضرب على وتر واحد. تخبط في رأسي. يضيق بها صدري. فكّرت أنّ عليّ أن أطردهم. عليّ أن أطرد الشّاب الإنكليزي. سأجعله أمام خيارين، إمّا أن يبقى وحيداً معي أو يغادر. أعرف أنْ لا بيت له وهذا ليس شغلي. لا سأسحب شريط المسجّل الآن. سأقطعه إذ إنّ الموسيقى لاتزال مرتفعة منذ المساء، وها نحن في السّاعات الأولى من الصّباح، هما بلا ذوق. بلا ضمير. أهجم كالثّور. عندما لا أرى أحداً في وسط الغرفة الّتي كانت تعبق بالموسيقى والدّخان ورائحة الحشيشة، أفكّر أنّه لابدّ قد سها عن باله إسكات الموسيقى قبل أن ينام. وجدتني أفكّر بحنان هذه المرّة بأن عليّ مصارحته، إذ إنّ الانكليز يحبّون الصّراحة. معلّلة بأنّه لربّما لم يفهم حتّى الآن سرّ عبوسي وغضبي. لكنّي وقفت مذهولة بلا حراك. مذهولة، رجل ينام إلى جانبه. إنّهما عاريان. إنّهما يحتضنان بعضهما. أرى

www.ibtesama.com

عضويهما غير المطهّرين، واضحين كلّ الوضوح وأرتعش، هذه هي المرّة الأولى الّتي أرى فيها عضو رجل عن كثب. جفّ ريقي، جفّ زلعومي. جفّ أسفلي للحظات. ثمّ هجمت عليهما. هبّا. صعقا. لم يحاولا تخبئة أسفليهما. ثمّ وكأنّهما أفاقا من المفاجأة أخذا يضحكان ويقهقهان وكأنّهما طفلان فرحا بالماء الّذي يتساقط عليهما وكأنّه من لعبة.

لابدّ أنّي أحلم. وأنّي أرى عكس هذا. لابدّ أنّهما صعقا وتمنّيا لو تنشقّ الأرض وتبتلعهما خجلاً. لابدّ أنّهما يختبئان منّي ويتذرّعان بشتّى الحيل والأكاذيب، إذ كيف سيعيش الشّاب الإنكليزي بعد الآن وقد كشفت أمره؟

مازالا يستنجدان بالسّيد المسيح. وهما يحاولان مسح الماء عنهما ثم يضحكان. يشير الشّاب الإنكليزي إلى وجهي ولا يتمالك نفسه من الضّحك. لابدّ أنّي بدوت كالسّعدان المجنون الّذي كان يطوف بلدتنا برفقة صاحبه الغجري.

ضحكهما حوّل هياجي إلى رغبة في الانتقام. كيف؟؟ وهو يكاد لا يملك شيئاً حتّى آخذه عنوة، أسرقه، أخبّئه أو أكسره أمامه، أمزّقه، أرميه أو أدعس عليه بغضبي وشرّي. إنّه لا يملك شيئاً سوى الملابس التي يرتديها وبعض الكاسيتات الّتي استدان منّي بعض ثمنها. تلفّت حولي مائة مرّة وما عرفت ما عليّ عمله سوى أنّي وضعت معطفي فوق قميص نومي وجواربي الصّوفية فوق البنطلون الصّوفي الّذي أرتديه اتّقاء للبرد وركضت إلى الباب دون أن أسمع ما حاول صديقه أن يقوله لي. أخرج وأردّ الباب ورائي بقوّة. أدير

www.ibtesama.com

المفتاح في الثقب كأني أودّ أن أحتفظ بدليل الجريمة. بالشاهدين الوحيدين عليها. وأنا أردّد العبارة ذاتها: «سوف ترى»... وأكمل حديثي بالعربيّة: ستندم، الكلّ سيعرف، كان عليّ الانتباه، أسبوع بكامله وأنت معي كالبنت، كالولد المخصي، وأنا أكبر شهامتك، تجلس السّاعات مكتفياً بإحاطتي بذراعك حتّى قلت في نفسي: إنكليزي لكنّه يفهم ظروفي، ومع ذلك أردتك أن تتمادى معي ولندن بعيدة. وأنا لن أعود إلى بلدي، بل سأعيش هنا. كان يجب أن أحترز! كيف؟ لو كانت مؤخّرتك عريضة سمينة لكنت حدست. لكنّك نحيل. ممصوص، مؤخّرتك تكاد تكون كقبضة اليد. أنا مجنونة، لأنّي جعلت لحمك الأبيض ونحولك وشعرك الأشقر تمحو كلّ ما كنت أرتعد منه وأنا في بلدي.

اتّصلت بشقيقته من صندوق التليفون، لمّا سمعت صوتي سألت بجفاف: «ماذا تريدين؟» أجبت: «أخاك» فبادرتني: «توقظيني في هذه السّاعة لتتحدّثي عن أخي»؟ أجبت «إنّ الأمر في غاية الأهميّة» وهنا استدركت وقاطعتني قائلة: «هل هو بخير». أخبرتها ما اكتشفت، صاحت تتّهمني بالجنون لأنّي أيقظتها من أجل هذا مضيفة بأنّ عليّ ترك أخيها وشأنه خاصّة أنّ الأمر لا يعنيني البتّة، وبألا أتصل بها بعد الآن في هذه السّاعة. ويبدو أن غضبها قد أيقظها إذ عادت وقالت: أعرف أنّك تكيّدت العناء ودعوتني إلى الغداء، لكن أمر أخي ليس من شأنك أو شأني. وجدتني أصيح بها: «كلبة» ثمّ استدرك أنّهم يحبّون الكلاب هنا فأصيح بها: «عاهرة، عاهرة».

سرت وأنا أنتفض غضباً وقهراً. سرت في لندن، الجميلة البيوت،

www.ibtesama.com

النّظيفة الشوارع، حيث أهاليها لا يرتدون سوى أفخم الملابس بين البنايات العالية حتّى السّحاب، وبين الأضواء المشعشعة. أم أنّي كنت أسير في الظّلمة بين ظلال الأشجار القليلة والبيوت الحكومية المتشابهة المطفأة الأنوار والنّائمين المحتمين من البرد في صناديق الكرتون وأكوام الزّبالة والأكياس السّوداء وقناني الحليب الفارغة إلاّ من آثار الحليب الفاسد؟

أسمع صوتاً يأتي من الرّصيف، من كومة ملابس ومن بين أنفاس مخمورة. صوت يستجدي الشّراب أو النّقود لأنّه ظمآن. كنت أبتسم للّذي يستوقفني ليشحذ منّي جاهلة ما يريده في بادئ الأمر. لأكتشف أنّ في لندن شحّاذين. وكنت أتصدّق عليهم بكل فخر لأنّي أكثر مالاً من شخص إنكليزي ولو كان شحّاذاً.

أسير وفي أسفلي ثقب. أعي الآن كلمات عائشة ونحن في غرفة المؤونة وهي ترفض مساعدتي على القدوم إلى لندن: «تروحي وحدك لندن بلا خالة أو عمّة أو أمّ أو زوج ويقولوا عنك أنّك تبيعي روحك. تصيري بنت حرام وإن كنت فاطمة الزّهراء».

كانت زيارة عائشة السّنوية إلى البلدة تزرع نواة السّفر في نفسي إلى أن كبرت هذه النّواة واشرأبت ووصلت إلى عيني ولساني. فأنا لم أستطع في زيارتها الأخيرة مفارقة قرطي أذنيها الذهبيّين وسوار معصمها. أسحبها إلى غرفة المؤونة أستجديها أن تأخذني معها إلى لندن. لم تكن شنطة يدها المطابقة للون حذائها ذي الكعب العالي هي الّتي زادت في حماستي فقط، بل رائحة غرفة المؤونة الّتي كانت تعبق بالكسكس وبرائحة الحبوب الأخرى الّتي كلّما شممتها ذكّرتني

www.ibtesama.com

بوضعي وتمنّيت ألاّ أعود أشمّ سوى العطر الإنكليزي الّذي كان يعبق من عائشة، ووجدتني أحثّها لأن تسمعني، لأن تشعر معي. خلعت قرط أذني الذّهبي الصّغير ثمّ أخرجت من عبّي كل ما ادّخرته من مال وما سرقته من جيوب إخوتي على مدى السّنين أضعها في كفّها وأطبق عليها، وأضخّم لها خلافي الدّائم مع أفراد عائلتي وهي تردعني قائلة إنّ العمل في لندن شاق، وأن الغربة ليست سهلة. وأنا أفكّر بأنّها لا تريدني أن أركب الطّائرة وأشتري الذّهب وآتي البلدة كلّ سنة محمّلة بالهدايا... إذ كيف تقارن تنظيف الأثاث الإنكليزي الفخم بتنظيف بيتنا حيث الخرق البالية والمقشة والسّطل وفرك الأرض والغسيل على اليد الّذي لا ينتهي. وقفت أمام رجل الأمن العام والّذي كان أشد صرامة من المحقّق الّذي يفد على البلدة من العاصمة للتّحقيق في جريمة أو سرقة فينسى مقصده ولو لمدّة قصيرة، وينسى أنّه في زيارة رسميّة، فيشرب الشّاي ويتناول الطّعام في بيت المتّهم وينام وقت القيلولة ويمازح ويجامل. المحقّق الإنكليزي خلف الطّاولة العالية يسألني أسئلة كثيرة لا أفهمها. ولمّا لم أجبه سوى بكلمة No English عاد وسألني إذا كنت أعرف الفرنسية وهززت رأسي حتّى عرفت أنّي أفتح مغارة علي بابا بكلمتي هذه وبإجابتي على أسئلته بكلمة فرنسية واحدة. Oui، إذ ختم جواز سفري وقد انفرجت أسارير وجهه أخيراً وعلّمني من غير أن يدري أن أستعمل الكلمات الفرنسية ولو القليلة المكسّرة لأنّها كانت تترك أثرها السّحري على كلّ جامد ومتحرّك في لندن.

وقفت صباح اليوم التّالي في وسط بيت عائشة غير مصدّقة أنّي في لندن. فشقّتها كانت كأي شقّة في بلدتي تحمل الرّائحة ذاتها،

www.ibtesama.com

الطّراريح الملوّنة، والسجّاد الملوّن والصّور على الحائط والصّدر النّحاسي في الوسط ورنّة صراخ وبكاء طفليها، لكن إحساسي هذا سرعان ما تبخّر وحلّ محلّه الشّعور بأنّي في سجن هنا ما إن أطللت من النّافذة. فعائشة استغلّت فرصة جهلي حتّى أن أكبس مسكة التواليت أو أن أستعمل دوش الحمّام أو أن أدير الفرن أو الإبريق الكهربائي لغلي الشّاي. أو أن أفهم ما يقوله ابنها الأكبر أو حتّى أن أجيب على الهاتف وأفهم ماذا تقول الجارة الإنكليزية، وتركتني سجينة البيت بدلاً من مساعدتي في البحث عن عمل متذرّعة بأغرب الحجج والأكاذيب.

عبر النّافذة رأيت شققاً مقابلة متساوية الخطوط وكأنّها رسوم أطفال. كانت تنبعث منها أصوات صاخبة، أجول بنظري حتّى الفسحة الّتي تكاد تكون مهجورة ومنها أنتقل إلى الباصات الحمراء والسّيّارات الّتي كانت تسرع في الطّريق مركّزة بصري عليها وأنا لا أجد ما أفعله سوى شتم عائشة متمنّية لها الهلاك، مقسمة بالنبي محمّد بأنّي سوف أنتقم منها لأنّها تقف بيني وبين سيري فوق هذه الطّرق والصّعود إلى الباص الأحمر كي أجد عملاً ويصبح لي بيت أو غرفة. وما إن كانت عائشة تفد عتبة الباب عائدة من عملها محمّلة بالأكياس بينما رائحة العطر المختلطة برائحة دخّان السّجائر تنبعث من معطفها حتّى كنت أنتفض غضباً. أريد أن أحمل أكياساً كهذه وأن أرتدي معطفاً كهذا.

ولمّا كان كلّ شيء يبدو بعيد المنال فقد كنت لا أستأنس إلاّ بالحمام الكثير الّذي اعتدت على سماع هديله والّذي جذبته إلى حافة النّافذة بفضلات الكسكس والطّعام حتّى يأتيني فأبادره: «ذوق يا

www.ibtesama.com

حمام انكلترا هذا الكسكس الميخّر المسقسق واعلمني إذا كان طيّب الطّعم». وكنت قد استغربت بيع الكسكس في علب جاهزة وبأن الانكليز يقومون بإعداده، أنا الّتي ظننت أنّهم لابدّ يعيبون علينا طعامنا إذ إنّ طعامهم لابدّ أن يكون كطعام الملوك.

تركت سجن عائشة عندما سمعت من امرأة من بلدتنا تنهيدة فاقت بعمقها تنهيدتي. سألتني إذا كنت سعيدة هنا، وكانت قد أتت لتستعيد ماكينة خياطتها من بيت عائشة. وجدتني أخبرها بأكاذيب تبيّن لي أنّها كانت حقائق ما إن تركت بيت عائشة. كيف أنّها تراقب ما آكله وما أشربه، وبأنّها قد آوتني في بيتها لقاء اهتمامي ببيتها وبأولادها. والمرأة تهزّ رأسها موافقة معلّقة: «أيوه، الكلّ يقول عائشة صارت إنكليزية». وهي تخبرني بأنّ عائشة قد وفّرت على نفسها ما يقارب الـ ١٠ جنيهات أسبوعياً إذ كانت جارتها الإنكليزية ترعى لها طفليها أثناء غيابها في النّهار. سرعان ما تكتّلنا ضدّها. نتقدها، تنعتها بأحطّ الأوصاف. تخبرني الزّائرة بما لا أصدّقه، لكنّي أهزّ رأسي موافقة. أخبرها بدوري أن لابدّ أن يكون لعائشة عشيق. ورحنا نبحث عن الدّليل. تخلع خزانتها الوحيدة المقفلة، ولمّا لم تجد سوى الملابس الجديدة والأحذية والمصاغ المخبّأ في هذه الأحذية شرعنا نؤكّد أنّها تتلقّى المال من عشيقها وأنّها تودّ تركي في البيت مع أولادها حتّى يتسنى لها هجر زوجها. كأن كلام الهلوسة هذا الّذي سمعته جدران بيت عائشة استوعبه طفلاها وطنّ في آذانهم حتّى وهي في عملها، لذلك أسرعت أعدّ حقيبتي قبل أن تأتي وأترك البيت مع المرأة الّتي نسيت أخذ ماكينة خياطتها، وأنا على يقين بأنّي لن أرى عائشة بعد الآن، وأنّ خبر خلعي لخزانتها سوف يصل إلى

www.ibtesama.com

أهلي وبلدتي مع زيادة في التهمة بأنني قد سرقت كل حاجياتها.

أخذت بنصيحة المرأة وبدأت أعمل بالساعة. مكتشفة أنّ الدقيقة معناها المال. لذلك انغمست بتنظيف المكاتب والمطاعم والمستشفيات وكلّما تخيّلت الجنيهات الاسترلينية تتراكم في حقيبة يدي لهثت غير مبالية بالشراسين التي كانت تنبض من التعب في كل جزء منّي. لم أوقف هذه الساعات المتواصلة الجنونية إلاّ عندما شعرت بأنني أريد قضاء الوقت مع الشاب الإنكليزي الذي دلقت عليه الماء منذ برهة. وكنت قد تركت بيت المرأة ما إن عثرت على عمل واستأجرت غرفة. وعندما أخبرت بأنه عليّ مشاركة المطبخ والحمّام مع آخرين غرباء خطر ببالي استغراب وقهقهة أهالي بلدتي. أفي انكلترا أمّ الدنيا يحصل هذا؟؟

كان الشاب الإنكليزي يعمل في مستشفى يوماً ويغيب أياماً. لم أره يأكل سوى لوح شوكولا أو قطعة بسكويت سواء في فترة الاستراحة أو عند الغداء. لم أره يتحدّث مع أحد. بل كان يضع كاسيت الموسيقى على أذنيه، ويغمض عينيه. كان أشقر الشعر، ملوّن العينين، تحيل الوجه. يبدو أنه أعجبني مع أنني قلت في نفسي إنني أشفق عليه لما يأكله. وتوبيت أن أقدّم له من أكلي. فوجئ بتقدّمي منه وأنا أقدّم له قطعة الدجاج، تمتّع في البداية ولمّا ألححت مدّ يده يتناولها ويسألني إذا كنت متأكّدة. ابتسمت. لم أعد آخذ الكلام الإنكليزي مأخذ الجد لأنهم لا يأخذون كلامي مأخذ الجد. يسألونني دائماً هل أنت متأكّدة سواء قدّمت لهم شيئاً أو عرضت طعامي عليهم، أو دعوتهم لتناول الغداء، أو أتيت لهم بالشاي، أو دفعت عنهم إذا اتفق أن صعدنا الباص معاً.

www.ibtesama.com

بعد قطعة الدّجاج المغمّسة بالكمّون والزعفران الّتي لابدّ أنّه استذوقها واستطيبها سألني من أين أتيت إلى لندن؟ ولمّا أجبته من أين بدا وكأنّي فتحت عينيه على باب الجنّة. إذ لان وجهه. توسّعت حدقتا عينيه، أصبح اخضرارهما غامقاً كلون زيت الزّيتون وقال بحماسة إنّه لطالما تمنّى لو يزور بل لو يعيش في بلدي وأنّ حشيشتنا لا تعلو عليها حشيشة، واستفسر بلهفة إذا كانت فعلاً رخيصة هناك. أجبته كاذبة سعيدة لأنّه يحدّثني بهذا الاهتمام، وكنت أيقنت أنّه لن يوجّه لي الحديث أبداً، بأنّي كنت أزرعها بنفسي وبأنّ أهالي يزرعونها، وبأنّها موجودة كوجود الحشيش الأخضر في لندن، وقناني الحليب الفارغة، وأنّها فعلاً حشيشة عجيبة. كيف ما رميت بزرتها أو شتلتها، امتدّت عالية كلهب النّار.

إنّه يحلم بحشيشة بلدي وبشمس بلدي ويقول: «تركت كلّ هذه الشّمس من أجل هذه الغيوم وهذا البلد التّعيس؟» وجدتني أجيبه: «ماذا أفعل بالشّمس هل أكنسها عن السّطوح؟» بينما يمرّ في خيالي وقع رتابة الأيّام في بلدي. الفقر واللّاشيء. رجال العائلة ونظراتهم المهدّدة. رجال الحيّ ونظراتهم المراقبة، أمّي وكلامها القاسي، وأعود فأردّد في نفسي «ماذا أفعل بالشّمس؟ هل أكنّسها عن السّطوح؟» أنا سعيدة في لندن. أنا حرّة، سيّدة نفسي وجيبي، كيف لا أكون سعيدة وأنا الّتي أعدّ من القبيحات في بلدي، أسمعه وهو يطري جمالي وسمرتي الدّاكنة وشعري غير النّاعم. يقبّلني على خدّي فرحاً كلّما أعددت الطّعام وكلّما دخلت البيت عائدة من العمل، وكلّما جلسنا نشاهد التلفزيون. كلّما رأيته ينتظرني عند رأس الشّارع إذا ما تأخّرت في العودة لسبب ما.

www.ibtesama.com

وكنت قد حثثته على العيش معي عندما شعرت بحاجة لأن أقبض على لندن من جميع أطرافها، في ذلك المساء الّذي أدخلني به إلى الـ Pub. رغم أنّي لم أفتح فمي في ذلك الضّجيج ولم أشرب سوى الماء، إلاّ أن وقوفي كالإنكليز في زحمته ودخّانه مدّني بالزّهو. بالفرح. بالثّقة بالنّفس.

ما إن دخل غرفتي تلك اللّيلة حتّى بادرني بأنّي ثريّة حتّى يكون عندي فراش كهذا ولحاف كهذا وكاسيتات وجهاز للتلفزيون وفيديو. ثمّ أضاف أنّه خمّن ذلك منذ أن لاحظ أنّي أضع طعامي في طبق خاص. وأتناول الشّاي في كوب خاص. وآتي بالشّاي لمن يجلس معي. ابتسمت وأنا أهزّ رأسي فرحة لاستنتاجه الخاطئ هذا، مستغربة أنّه يجهل الشّراء بالتّقسيط. انطرح على سريري يتحسّسه قائلاً: «كم هو نظيف، كم هو مريح، لم أنم في فراش كهذا من قبل». أحقّاً ما أسمعه أم أنّي أضعت هدف الكلام ككثير من المرّات. إذ كانت أحاديثنا كمن يرشق طابة. أحياناً كانت تصيب الهدف وأحياناً تلامسه وغالباً ما تعلو في الفضاء وتضيع. «لم ينم في فراش كهذا من قبل؟» وكلّ هذه الدّعايات عنها في التلفزيونات وكلّ هذه الشراشف والأسرّة، تكاد تكون في كلّ واجهات ومحلاّت لندن؟ وكنت أتخيّلها في كل بيت أراه عبر نافذة البّاص وقتها. غطّ في النّوم مستأنساً حتّى الفجر.

لندن لا تنام في هذه الأزقّة والأحياء. وإذا نامت فالملصقات على الحائط لا تنام. ملصقات عن أفلام السّينما والمغنّين والحليب والمخدّرات والإيدز... الإيدز؟ استيقظ فكري فجأة: «سيموت

www.ibtesama.com

بدلاء الإيدز». وهكذا يجب أن أصرخ به وأنا أمدّ أصبعي مهدّدة: «ستموت بالإيدز» ثم وجدتني أصرخ في داخلي: «وأنا سأموت بالإيدز يا إلهي». ثمّ أفكّر شبه مطمئنّة: «دخلتي مرّتين لكنّه أفرغ نفسه خارجي». ثمّ مرتعبة أصيح: «من يعرف؟ لربّما أفلت منه الميكروب وحطّ عليّ» وبحركة لاشعورية رفعت نظري إلى السّماء حيث الله، أبتهل، أريد أن يرى خوفي وتوبتي، لكنّي لا أرى النّجوم ولا أرى القمر، بل أرى السّماء كالحة. أخفضت رأسي بسرعة وكأنّي أعترف بما علّقت العجوز خديجة على قراري بالسّفر إلى لندن وكأنّها تودّ إحباط عزمي: «بأن لا إلّه عند الأجانب» ثمّ لتستدرك مستغفرة أنّ إلّه بلادنا والإسلام هو غير إلّه الغرب. ثمّ لتستغفر من جديد بأنّ الله لا شريك له. لكن الأعراب لا يتّبعون تعاليمه وهم ليسوا على سنّته. وعندها نهضت تغسل فمها عشر مرّات لتكفّر عمّا قالته وتصلّي عشر ركعات لاستهجانها وتشكيكها.

عليّ أن أعود إلى البيت، خاصّة أنّ هناك من يقتفي خطواتي. أتساءل وأنا أعجّل الخطى، لماذا أنا هنا؟ ولا أعرف الجواب. لماذا لا أعود إلى بلدي. وآخذ معي الشرشف الّذي يحمل آثار عذريتي والّذي لم أقم بغسله عمداً بل أخفيته في حقيبة ملابسي لربّما احتجته لأفرشه فوق فراش العريس في عتمة اللّيل. العريس؟ سأجمع المال وسأجد عريساً خاصّة إذا وعدته بالإتيان به إلى لندن. لكن لماذا أنا هنا. هل لأنّي بعيدة عن أعين أهالي بلدتي وأستلة رجال عائلتي إلى أين أنا آتية وغادية. بعيدة عن استفهام أمّي لماذا أنام على بطني ولماذا أمكث طويلاً في الحمّام.

إلّه بلدي البعيد لابدّ أنّه يتذكّر ذلك ويحبّني، وعليّ الآن أن

www.ibtesama.com

أحترس من الشّيطان ومن الإيدز. أفتح الباب الخارجي وأسمع صوت المغنية وردة الجزائرية يصدح عبر باب الغرفة الّذي ما إن فتحته حتّى رأيت نفسي أمام نفسي إنّما طويلة، شقراء، ملوّنة العينين. فقد ارتدى صديق الرّجل الإنكليزي كلّ ملابسي. وكحّل عينيه. وترك قرطي أذني يتدلّيان من أذنيه ومال برأسه مستأنساً للغناء العربي.

وقفت أمام نفسي الشّقراء. الآن زال الغيش عن كلّ شيء وبدت كلّ الصّور واضحة. ووجدتني لا أبعد صورة سعد المسجّى على الأرض. ولا أبعد عن مخيلتي صوته الجهوري الّذي كان يعلو صوت هبوب الرّياح وقد أصابه الخرس. نساء عائلته يلطمن وجوههنّ، يضعن الشّحّار على جباههنّ، خطف سعد روحه بنفسه تلك اللّيلة الّتي انتشر فيها الخبر أنّه ضبط وهو يضاجع راعي غنم متجوّلاً. ما عاد يستطيع أن ينطق، بلع صوته واختنقت كلماته بينما علا صوت زوجته الّذي كان منخفضاً. علا صوت بناته. صوت إخوته. علا صوت البلدة كلّها لمّا اكتشفت أنّ سعد ترك ورقة تثبت براءته. انتفع أهل سعد يحاولون أخذ الثّأر من الشّاهد الّذي جاء كالمجنون يتلو الخبر واللّذي لم يعد يهمّه موت سعد قدر همّه أن يثبت التّهمة عليه ويقنع الجميع بصحّة ما رآه في الكوخ في ذلك الظّهر الحارق، لأنّ الانشقاق قد أصاب أهالي البلدة حول تبرئة سعد من التّهمة أو إثباتها عليه، حتّى بعد مماته، لأنّه أصبح تحت التّراب ولا قوّة لروحه إلاّ أن تهيمن وتطير في اللّيالي.

أضحك عند هذه الخاطرة، أنا الشّقراء، أضحك على أهل بلدتي

www.ibtesama.com

وأنا أرى سعد متمدّداً مع الشّاب الإنكليزي يتغازلان، يتضاحكان. يقترب منّي الآن الشّاب الإنكليزي ويحيطني بذراعيه غير مصدّق هدوئي وضحكتي. أبتسم لهما وأنا أبادر صديقه بأنّ ملابسي جميلة عليه، وهنا يسألني إذا كان لديّ قفطانٌ حتّى يستعيره. أهزّ رأسي بحسرة، لم آتِ به، لقد فكّرت أنّ الإنكليز سوف يعيبون عليّ القفطان وحزامه الفضي، مع أنّي أرى أزياء شبيهة به وبأغلى الأسعار. أجدني لا أكفّ عن الضّحك الآن إذ أرى الشّحاذ الإنكليزي يجلس إلى جانب العجوز خديجة. قاطع تذاكر الباص الأحمر يتحدّث مع حمودة ساعي البريد. أصدقاء الشّاب الإنكليزي، وخاصّة مارغريت، يلعبون مع ابن خديجة، لأن شعرها يشبه منفضة الغبار الملوّنة الّذي كان ابن خديجة يبكي كلّما رآها في السّوق حتّى تشتريها له أمّه، ظنّاً منه أنّها لعبة. مارغريت تتحدّث مع سنيّة في الحمّام، أشخاص ينبعون من أرض بلدتي وسمائها. . . يتسلّقون الباصات الحمراء، يرطنون بالإنكليزية، بينما أرى الإنكليز في بلدتي يعتلون سورها الأثري بقبّعاتهم السّوداء ومظلّاتهم السّوداء. والإنكليزيّات يدفعن عربات الأطفال في الطّرق الملتوية الوعرة.

يعلو صوت التلفزيون مطفئاً كلّ محطّات عقلي. يتعلّق نظري بالدّعاية عن الكهرباء. فرن كهربائي. مدفئة كهربائيّة، سخّان كهربائي. عليّ أن أشتري سخّاناً كهربائياً كهذا بدلاً من سخّان الغاز الّذي تسرّب منه الغاز منذ أسبوع وأمرنا رجل الغاز ألاّ نستعمله وإلاّ انفجر بنا ووضع عليه إشارة حمراء.

التفت أودّ أن أسأل الشّاب الإنكليزي لماذا يعيش معي. ولماذا

www.ibtesama.com

هو برفقتي رغم أنّه قال لي ذات مرّة إنّي أريه اهتماماً لم يلمسه من قبل ولا حتّى من والديه، وبأنّه يودّ زيارة بلدي ذات يوم. لم أصدّقه وقتها فأنا لم أعتد على سماع الحقيقة من أفواه النّاس من قبل مكتفية بتصديق ما أفكّر فيه لا ما أسمعه.

وجدتني أعدل عن سؤاله وأتفوّه بكلمة (الإيدز) ثم أخاطبهما: «يجب أن تذهبا وتفحصا دمكما» وأنا أفكّر بأنّي سأغلي الشّراشف هذا المساء وسأسأل الصيدلي عن مادّة مطهّرة قويّة المفعول وبأنّي سوف أشتري حقنة دوش أحقن بها رحمي مستخدمة الماء الغالي والخلّ حتّى أبيد كلّ ميكروب داخلي.

ثم وجدتني أنتهز فرصة دخولهما إلى المطبخ فأرتّب الغرفة قليلاً وأنثر ما تبقّى من الأطباق الّتي كانت متروكة هنا وهناك على حافة النّافذة. سرعان ما تكوّم الحمام، رغم أنّ الفّجر مازال يبزغ. أعرف أنّ الجيران يشتكون من عادتي هذه الّتي جعلت الحمام يعتاد على الاقتراب من النّوافذ. وأنا لا أبالي بما يُقال. بل أجدني أقول للحمام: «كلْ.. هاأنذا أطعمك بدلاً من أن آكلك. كنّا إذا رأينا حمامة طائرة في بلدتنا ورميناها بحجر سقطت أيقنّا أنّها من نصيبنا فذبحناها وأكلناها. وإذا بقيت طائرة قلنا بحسرة إنّها من نصيب السّماء وملائكتها»... أعرف أنّكِ لست جميلة، لست بيضاء، ولا عسليّة. أنت رماديّة. سوداء بلون الجرذان، لكنّني أحبّك، لأنّك إنكليزيّة وتنتظرين إطلالتي.

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

قوت القلوب

كان الشّعاع الفضيّ الّذي يطرحه القمر المستدير على قرية كوكبانة خاصّاً، لأنّ قرية كوكبانة كانت تعلو حتّى عن الغيوم. وكأنّها لم تُشَيَّدْ بل نبتت على قمّة جبل. إذ كيف يمكن للطوب والطّين وكوى الزّجاج الملوّن أن تُنقلْ إلى فوق من غير أن يحملها الماعز بين أسنانه، إذ حتّى هذه كانت بحاجة إلى درب فكيف بالإنسان وقدميه اللّتين هما دائماً بلا حذاء ولا نعل؟ ومع ذلك كانت هذه القرية محفورة في الجبل فوق الصّخر، بعض بيوتها يكمل استدارة الجبل، الّذي كأنّه أوعز بدوره للجنّ بأن يساعده في بناء قرية لا يطأها إلاّ من يحبّها حتّى يستطيع المرء أن يصل إليها بشدّة همّته فقط ويَصْقُل صخرها حجراً حجراً منتبهاً إلى حجمه وإلى لونه حتّى يزخرف بيوتها زخرفة لا مثيل لها.

عندما كان القمر يكمل استدارته كانت السّعادة تغمر كلّ النّساء وهنّ يعدن أنفسهنّ بأشياء كثيرة مفيدة، كتوفير الكاز في المصابيح، والسّهر والتجوّل حتى ساعة متأخّرة من اللّيل وقد فارقهن خوفهنّ من وجود العقارب والثّعابين. فينصرفن إلى سماع الأغاني ومضغ القات عند فسحات المنازل الطّينية، وهنّ ينقرن على الدفّ والطّبلة وكلّهنّ سعيدات ما عدا ليلى الّتي كانت تقول: «كلّما هلّ الهلال ذكّرني بقصر عمري». وما عدا اللّواتي كنّ يتعاطين السّحر مقتنعات أن ضوء القمر

www.ibtesama.com

الفضّي إنما يفسد عليهنّ أعمالهنّ ونواياهنّ فلا يعدن يمارسن السّحر والشّعوذة بل يؤجلنها إلى أن يعود القمر صغيراً أو يخبئ قناديله، حتى يعدن فيجفّفن الأحجبة المكتوبة في خفية الظّلام، ويطمرن الأقفال في عتمة اللّيل (كانت هذه الأقفال من أجل فتح أنابيب رحم المرأة المغلقة). إذ كان شعاع القمر لا يكشف أسرار كلّ الخطط وكلّ الوصفات فقط بل كان كأنّه يسيطر على كل القوى البشريّة. لكنّ الساحرة قوت القلوب كانت تخالفهنّ في الرّأي إذ كانت تقسم أنّها لا تنتظر سوى هذا الشعاع الفضّي لأنّها أثناءه فقط يصبح بمقدورها تعاطي السّحر المستحيل وتنفيذه. كانت تردّد أن هذا الشّعاع الفضّي الّذي يدخل السّتائر، الحجارة، الأخشاب، الزّجاج إنّما يهزّها من نومها إذا كانت نائمة، يسيّرها إذا كانت واقفة، ينهضها من جلستها إذا كانت جالسة فيجعلها ترى لا الحقل والهضاب والقرى المنخفضة في السهول وحسب، بل كلّ البلاد. لم يصدّقنها هذه المرّة. لا لأن المبالغة هي أساس حياتها فهنّ آمنّ بمقدرتها في فكّ المنديل ورؤية الغيب وتحضير جرعات الحبّ والكره وتأليف الأدعية لردّ الحوائج، للتذلّل عند الله، لدفع الكائدين، للثمر حتّى يكبر، للنمل حتى يبتعد عنه، لتصبح المرأة محبوبة، ليتسنّى لها قراءة النوايا الشّريرة، خاصّة نوايا الحماة والضرّة حتّى إنّها ألفت أدعية خاصّة لفقرات الظهر حتّى لا تنوء تحت حمل الأثقال، للشعر حتّى يطول، للمعدة حتّى لا تطلب طعاماً أكثر... وفوق كلّ هذا لأنّ يدبّ الشّوق عند المتزوّجين فيأتوا لزيارة بيوتهم من المهجر والعازبين ليفكّروا في الزواج. كانت النّساء قد اعترفن بمقدرتها على تبديل القلوب والنّوايا، فقد كادت أن تلغي رجل رئيفة وتحوّله إلى

www.ibtesama.com

عينين تشتهيان وعضو يلهث حتّى بات كأنّه صدر أصابه داء الربو، لو لم يدبّ الخوف برئيفة وهي تضع خليط الأعشاب والماء الّتي نقعت بها خربشات قوت القلوب بقلم أحمر اللون على الورق أمام عنزتها بدلاً من أن تضعها في قهوة زوجها حتّى تتأكّد من أنّه ليس ضارّاً بالصّحة. وإذا بالعنزة تلحق رئيفة من مكان إلى آخر، تشمّ ذيل فستانها وتلتصق بها من دون توقّف عن مناداة رئيفة بثغائها. ليصل النّداء والهيجان إلى ذروته كلّما حنت رئيفة ظهرها أو قرفصت وهي في الحقل، إذا دأبت العنزة على اللّحاق بها وملازمتها هناك أو في البيت.

هكذا إلى أن ضجّت بها رئيفة وأخذت تهرب منها وتسكب عليها «بزر البقلة» حتّى تفكّ السّحر عنها مقسمة بأن تقبل بسلبيّة زوجها وإهماله لها. لكنّ كلّ مجهودها لم يوقف شهوة العنزة لرئيفة إلى أن أيقن الزوج أنّ العنزة أصيبت بمرض وأنّ هذه هي طريقتها في الشّكوى وفي توديع أصحابها وإذا به يذبحها ذات صباح ويسلخ جلدها ويتعجّب لتضخّم قلبها.

ومع ذلك كانت النّساء يشفقن على قوت القلوب لأنها تخطّت سنّ الثّلاثين ولم تتزوّج بعد. كنّ يعرفن سبب رفضها للكثيرين في البداية. أحبّت ابن عمها وأحبّها ولكنّه عاد فتزوّج شابّة من قرية أخرى ولم يعد يجرؤ على زيارة كوكبانة منذ ذلك الحين.

عندما تندّرت النّساء مرّة أن قطار الزواج قد فات «قوت القلوب» دعتهنّ ذات يوم ليشهدن عشرات العرسان الّذين قدموا من القرية والقرى المجاورة لطلب يدها والّذين وقفوا بالدّور عند الباب المغلق

www.ibtesama.com

في وجوههم أمام رفض قوت القلوب آن تفتح لهم الباب. وعندما تهافتت عليها النّساء يلمنها وهنّ يستطلعن خبر رفضها قالت بأنّها لا تودّ رجلاً مسحوراً: «إذا عانقني فإنّها إرادتي. إذا تحدّث معي فإنّها إرادتي وإذا نام إلى جانبي فإنّها إرادتي، كلّ شيء سوف يقوم به سيكون من عزم إرادتي ما عدا دخوله الحمام...» لتتراجع قائلة: «أيضاً دخوله الحمام سيكون إرادتي.. لربّما أردت له هذا وأنا منشغلة عنه».

لكن لم يَبْدُ على قوت القلوب أنّها كانت تعاني من كونها بلا زواج، بل كانت على العكس تظهر سعادتها قائلة: «أنا حرّة، مرتاحة.. اسمي قوت القلوب لا «بنت الحمولة»، (تحمل الأطفال) عدا أن الزواج يقضي على مشاعر الأنوثة فيتحوّل كلّ الحبّ الّذي في الأضلاع إلى الأطفال.. فلا يبقى منك سوى ظهرك المقطوع من العمل في الحقل، ومع ذلك... فزوجك ينادي من مكانه: فين الأكل؟ فين القات.. وفين.. وليه وكيف.. تلاقي حالك عم تسرقي الوقت عشان تجلسي مع الصّديقات والسّولفة». وكانت لا تكتفي بهذا التّعليق بل تظهر امتعاضها إذا سمعت بزواج، بولادة، كانت تقلب شفتها قرفاً.. وهي تدلّ على بطنها ثم على صدرها وتقول: «تفو على الرضاعة والحليب».

كان شعرها مفروقاً عند الوسط، أسود اللون، لا أثر فيه للشّيب حتى لإخفائه بصبغة الحنّاء. عقد من حبوب المرجان يحيط جيدها، وما كان يثير العجب في طبعها هو أنّها كانت دائماً على أحسن هندام. الكحل حول العينين، على العين البنيّة والعين السوداء وتاج

www.ibtesama.com

رأسها كان من قماش يلتمع كالنجوم ورائحتها من العود الثّمين الذي اشترته في إحدى سفراتها وكانت تخلطه بماء الورد، حتى بات يدخل نسيج ثيابها خيطاً خيطاً ولا يعود يفارقه، فهي بعد أن صنعت من عيدان الشّجر دائرة تلبسها فستانها وتضع مبخرة وسط الفستان طوال اللّيل، كانت تعلّق على تساؤلات النّساء عندما يقدمن إليها منذ بزوغ الفجر ويرينها في كامل هندامها بأنّها ليست وحيدة، بل هي دائماً في حضور الإنس وقوى خارجيّة لا تستطيع إعطاءها أسماء «الجن». كنّ يسألنها فتجيبهن: «لا أعرف فأنا أحاور هذه القوى ولابدّ أنّها تحضر وتراني، ولو بالفكر، فلماذا لا أكون في أجمل هندام أمامها، فحسن الهندام يزيد من قوّتي وثقتي بنفسي».

أكمل القمر استدارته هذه اللّيلة، عوت الكلاب، لحقت به وهي تعدو من جبل إلى آخر، إذ كان يبدو بمتناول اليد وكأنّه رغيف خبز نضج في تنّوره، أو كأنّه شقّ من شقّين لثمرة البطّيخ. كانت العادة أن يُقبِّل المرء من معه لحظة يرى البدر بعد أن ينوي بينه وبين نفسه أمنيته، لذلك قبّلت النساء بعضهنّ بعضاً وبسملن وتشهّدن ونوين الخير ووجّهن الدعوات خاصّة لنضوج محصول حقولهنّ وهنّ متّجهات عبر الحواري والمخارج والمداخل واالقناطر والفسحات ليصلن إلى بيت بتول الّتي توفّي زوجها ودفن منذ أسبوع بالتّحديد. أخذت العجائز يُسدينَ النّصائح إلى بتول بألاّ تنظر إلى القمر لأنّه مذكّر.. خوفاً من أن تسقط الملائكة روح زوجها وهنّ يتجولّن بها في السّموات متّجهات إلى الجنّة، ثم نسي الجميع بمرور الوقت أقوالهنّ ونصائحهنّ حتى غاب عن بالهنّ وجود المرأة الأرملة وحزنها وأخذن بلا شعور يسترقن النّظر إلى ضوء القمر والنجوم الّتي كادت

www.ibtesama.com

تدخل جميعها من النّافذة المشرعة فتبعث السّلوى في قلوبهنّ. كُنّ يتسلّين بما يرينه من غير أن يحرّكن أجسامهنّ المرهقة من عمل النّهار وقد جلست باسترخاء تحت أثوابهنّ المخمليّة السّوداء المطرّزة عند الصّدر ويتوسّطها عند الورك حزام مذهّب مخلوط بالفضّة. كان المجلس يضمّ جميع نساء القرية، ما عدا الصّبايا اللّواتي كنّ يسرحن على عاداتهنّ بين الهضاب والسّطوح وزيارة بعضهنّ بعضاً لتلحق بهنّ الكلاب وأخواتهنّ الصّغار، فتتعالى أصواتهنّ مؤنّبة شاكية وأحياناً ضاحكة فينقلها الصّدى والجوّ الجافّ ووضوح الرّؤية إلى حشد النّساء داخل بيت بتول.

كان الفراغ الّذي أحدثه غياب قوت القلوب عن هذا التجمّع واضحاً، فهي الحبّة الأخيرة في المسبحة، وجودها كان يشدّ الحبّات الأخرى بعضها إلى بعض فيكتمل العقد. كل ما تنطق به كان يثير حماس الأخريات واهتمامهنّ، وإن لم يتّفقن معها أحياناً، فهي أوّل من تنبّأت أنّها رأت في الغيب آباراً من البترول تجري من تحت الصّخور والحقول في أماكن كثيرة ورأت السّعودية تقف وتمدّ إصبعها تحذّر شركات التّنقيب الأجنبيّة عن البترول حتى لا تستطلع الأمر في اليمن، لأنّها أرادت الانفراد ببترول المنطقة حتى يبقى رجال هذه البلاد في خدمتها. وفعلاً كانت القرى ككيس أفرغ وألقي فارغاً من محتوياته، وكأنَّ حرباً قد دبّت ودُعي الرّجال جميعهم إلى القتال. هذا ما حدث. هجر الرّجال دكاكينهم المعتمة الّتي كانت عبارة عن خزائن خشبيّة إلى السّعودية يعملون فيها ويعيشون هناك ليزوروا عوائلهم مرّة كلّ عام بحيث كانت سيّارات الأجرة القادمة من المطار تأتي بهم وهي محمّلة بآلات التّلفزيون والفيديو والبطانيّات. وهكذا

www.ibtesama.com

إلى أن يموت نشاطهم ويستعدّوا لمواجهة الشّيخوخة والآخرة فيعودون للمرّة الأخيرة إلى بيوتهم وقراهم من غير أن ينتبهوا إلى أن نساءهم قد تبدّلن بكلّ شيء حتّى في طريقة كلامهنّ وكأنّهن ألفن لغة خاصّة بهنّ.

عندما طالت غيبة قوت القلوب لمشاركتهنّ الاحتفال بمرور أسبوع على دفن زوج بتول وتقديم المواساة لها، خرجت إحدى النّساء تنادي بأعلى صوتها من على حافة المصطبة باسم قوت القلوب، وكانت هذه هي العادة السّائدة للاتصال، للعراك، لنشر الأخبار السعيدة والتّعيسة. لكن الوقت يمرّ وقوت القلوب لم تظهر ولم يأت صوتها شارحاً أو معتذراً، رغم أن السّهرة مضت من دونها، إلاّ أن القلق دبّ بالنّساء، وكان قلقاً من نوع آخر، نوع من الفضول لا الخوف يغلبه شعور بالغيرة لدى بعضهنّ، وهنّ يفكّرن أنّ الّذي عاق حضورها كان هامّاً جدّاً، وإلاّ فكيف تتقاعس عن هذه المناسبة الّتي ستصبح وصمة في تاريخ حياتها بالإضافة إلى الوصمة الأخرى وهي سفرهاوحيدة من حين لآخر، الأمر الّذي كان يتنافى وحسن صيتها، ولاسيّما أنّها كانت تعود من سفرها مصابة بالإرهاق، شاردة، ضيّقة الصّدر، تنفرد بنفسها وهي تسمع موسيقى غريبة على آذانهنّ كانت تحضرها معها.

ومن غير اتفاق أسرعن بعد أن ودّعن بتول يقفزن على الهضاب وعلى الصّخور في الطّرق المتعرّجة إلى أن وصلن إلى بيت قوت القلوب الّذي كان معتماً في الداخل، مضاءً من الخارج بنور القمر. صحن بها يؤنبنها لعدم حضورها، طرقن بابها، رمين حجراً صغيراً

www.ibtesama.com

على خشب النّافذة، ولا من مجيب. أعدن الكرة مرّة وثانية وثالثة وإذا بصوت قوت القلوب يسألهنّ الذّهاب فهي تعمل ولا تودّ تشويش البال، فتردّ إحداهنّ هازئة: «يعني فاكرة نفسك المأمور..» ضحكت الأخريات، إذ في القرية المجاورة كان الأولاد يتوقّفون عن تجمّعاتهم المعتادة للهو واللّعب في موعد القيلولة ولمدّة شهر أثناء زيارة المأمور لعائلته. وإذا بقوت القلوب تفتح الشبّاك وهي تهمس «انتو ناسين.. اللّي فوق راسكم بدر.. اتركوني وغداً الصّباح تعالوا حتى رؤوسكنّ تشيب».

لم يصدّقن أنّها في خلوة السّحر.. لابدّ أنّها تذكّرت تجمّع المساء بعد أن خلعت تاج رأسها أو ربّما لأنّها لم تَبْدُ كما تودّ. إذ كانت أحياناً ترى نفسها جميلة وأحياناً في أقبح الصّور، ولاسيّما قبل دورتها الشهريّة، حيث كانت تقول إن كلّ ما فيها ينتفخ حتى خال خدها، حتى شعيرات حاجبيها.

عدن إلى الصّياح ضاحكات يذكرنها بقصّة خراء السّعدان وليلى... فهنّ مازِلْنَ يتذكّرن كيف أنها حاولت السّحر في أيّام كهذه وكان نصيبها الفشل، عندما طلبت من ليلى الّتي كانت تعاني لأن زوجها قد تزوّج من أخرى تصغرها سناً وتفوقها جمالاً أن تأتي لها بخراء سعدان حتى إذا ما وضع زوجها نظره عليه ثم على زوجته الجديدة رأى وجهها كالحاً، قبيحاً لا تقطر منه سوى رائحة الخراء.

لكن ما إن عاد زوج ليلى إلى بيته وأسرع إلى زوجته الثّانية يحملها بين ذراعيه سعيداً، لأنّها حملت في ظرف شهر من زواجهما، حتّى أيقنت ليلى أنّه لم ير خراء السّعدان، ولذلك حاولت أن تضعه في

www.ibtesama.com

مكان آخر حتّى يراه، وإذا بزوجها يعلّق بأنّه خراء حيوان لا تعرفه القرية. عندما نقلت ليلى الخبر إلى قوت القلوب لم تقتنع هذه بفشلها بل صرّحت بأنّ الخراء لابدّ مغشوش، وعلى كلّ فمِنْ أين لليلى بخراء سعدان ومنظر السّعدان كان بعيداً عن القرية كبعد منظر الثلج عنها!! حتّى إنّها اتّهمت ليلى بالكذب عندما قالت بأنّها أتت بالخراء من قفص سعادين متحف تعز الّذي قصدته مع البعثة الطّبيّة الّتي مرّت بكوكبانة. واتّهمت أيضاً بالنّفاق كلّ من تدخّلت مؤكّدة صدق ليلى إلى أن عادت ليلى بعد أيّام يسبقها أولاد القرية وعجائزها وشبابها إلى بيت قوت القلوب يزفّون إليها خبر السّعدان الّذي اشترته ليلى بعد أن باعت حليتها الذهبيّة.. تأمّلت قوت القلوب السعدان وفرحت، لم تكن قد رأت سعداناً من قبل، سرّها منظر عينيه الصّغيرتين القادحتين وتمتمت أنّها فهمت سرّ السّحر الّذي يكمن في عينيه، وخافت من سمعت جملتها هذه أن تطلب قوت القلوب عينيه من أجل السّحر؛ لكن قوت القلوب طلبت أن تترك وحيدة معه ثم خرجت إليهم وهي توصي ليلى بأن يكون الخراء أسود اللّون.. لكن زوج ليلى عاد يحمل زوجته الثّانية بين ذراعيه وكله حيرة وفضول لمعرفة الحيوان الغريب الّذي يفرغ أمعاءه أمام بيته، فلربّما كان شهيّ اللّحم. بينما عادت قوت القلوب تحتجّ بأنّ الخراء لم يكن أسود كما طلبته، وبقيت القرية تحاول أن تفكّر بإطعام القرد ما يجعل برازه شديد السّواد ولكن دون جدوى.. إلى أن تسرّب الخبر من بين ألسنة النّساء والأولاد إلى الرجال ثم إلى زوج ليلى الّذي جنّ جنونه لأنها أغدقت المصاريف وباعت حليتها من أجل خراء سعدان وأقسم أن يتزوّج من ثالثة، وهكذا كان.

www.ibtesama.com

تعود أصوات النّساء إلى الصّياح مُناديةً قوت القلوب أن تطلّ عليهنّ. فأطلّت أخيراً بوجه عابس تؤنبهنّ لأنّهنّ يقطعن سلاسة تركيزها، محذّرة أن يبتعدن عن بيتها وأن يحترمن ما تحاول إنجازه في هذه اللّيلة المهمّة، واعدة بأن تريهنّ النّتيجة في الغد.

ومن غير اتفاق تركن بيتها وخَطَوْنَ عدّة خطوات قبل أن يعدن كالمسحورات إلى موقعهنّ أمامه حيث كان القمر يسطع فوقه مباشرة. كن سعيدات بهذه اللّيلة، رغم حزنهنّ على الميت وعلى بتول، بل إن زيارتهنّ لبتول جعلتهنّ قنوعات، شاكرات حامدات الربّ لأن أزواجهنّ ما زالوا على قيد الحياة وليسوا في دنيا الآخرة كزوج بتول.. لاسيّما وأنّه مات في السّعودية وتكلّفت بنقله ودفنه هنا، عدا أن موردها منه قد انقطع وعليها أن تعتمد منذ هذا اليوم على الزراعة في الحقل فقط. كأن هذا الموت الذي لحق هذه القرية ذكّر النّساء من جديد بحظوظهنّ السّعيدة فَوَعَيْنَ أنّهن متزوّجات ولكنّهن طليقات.

الأرق يفتح أعينهنّ الآن حتّى أصبحت تحتلّ القسم الأكبر من الوجه، بَدَوْنَ حائرات، دائرات، جالسات، واقفات وقد أيقنَّ أن ذبذبات قوت القلوب قد جذبتهنّ إليها بواسطة القمر الذي قيل إن الإنسان مشى عليه، لذلك أذاع وقتها شيخ القرية من المئذنة بوجوب ذبح بقرة تكفيراً عن الدّناسة التي ألحقت به.

كان من الممكن أن يبقين هكذا تحت سطوة قوت القلوب وسعادتهنّ لو لم يسمعن ثُغاء التيس، فعلقت رئيفة: حتى التّيس استيقظ من جلبتنا. ثمّ أعقبت جملتها بأغنية ألفتها في لحظتها:

www.ibtesama.com

تعى يا حبيبي وشوف.
اشتريلك قات وشوف.
طعميها للعصفور.
بيطلعلك تيس بقرون.

وعندما اتّجهت أنظارهنّ بحركة تلقائيّة إلى موقع تيس قوت القلوب وكأنّهنّ ينتظرن ردّة فعله على أغنية رئيفة انتبهن إلى أنّه ليس في مكانه المعتاد.

درن حول البيت يبحثن عنه، تأكّدن من أن قوت القلوب قد نسيت ربطه وها هو يهيم وحيداً بين الجبال. خفن عليه قليلاً، رغم أن خوفهنّ قد استدرّ الضحكات الطّويلة ورئيفة تمثّل أمامهنّ ما سوف يحدث للتّيس وكيف سيقفز عالياً في الفضاء إذا عضت مؤخّرته الكلاب كما حدث لحمار وجيهة، وإذا برئيفة تنادي قوت القلوب مخبرة إيّاها عن إفلات تيسها وضياعه، وبدلاً من أن تجيب قوت القلوب أجابها التّيس بثغائه، وكان مصدره البيت. وهنا ارتفعت الحيرة في رؤوس النّساء حتّى غبشت وضوح الرّؤية حولهنّ وكانت حيرة رئيفة هي الّتي صاحت بقوت القلوب تسألها عن التّيس مرّة وثانية، ليصل إليهنّ أخيراً صوت قوت القلوب الماجن: «صدّقتوا؟ التّيس معي. وهذا أكبر برهان لانعكافي على السّحر».

عدن إلى منازلهنّ ليتعالى شخيرهنّ بمجرّد ارتمائهنّ كيفما اتّفق على وسائد مجالسهنّ، إذ لم يتسنّ لهنّ وضع فرشهنّ على الأرض من شدّة تعبهنّ. وفي اليوم التالي حضّرن ككلّ صباح الخبز على التنّار وحلبن الحليب من الأغنام وجلبن البيض من قنّ الدجاج ثم

www.ibtesama.com

هيّأن القهوة من الزنجبيل قبل أن يهرعن إلى الحقل الذي كان يقع في الوادي، يزرعنه بالجوز والقات والقمح والحلبة والخضر. وعندما التقين قوت القلوب عند البركة ومعها التّيس يشرب، سألنها أين وجدت التّيس لاغياتٍ بسؤالهنّ هذا الاعتراف بانعكافها اللّيلة السّابقة على السحر. فهمت تجاهلهنَّ هي الأخرى واكتفت بأن ربتت بكفّها على رقبة التّيس، مسّدت قرنيه وحفّت الوحل العالق بوبره وأبعدت عن عينه ذبابة. تجاهلن حركاتها هذه، ولكي يزدن في كيدها سألنها عن سبب تخلّفها عن زيارة بتول. وإذا بها تجيبهنّ بضحكة كبيرة مجلجلة بانت من جرّائها أسنانها ودندولة حلقها قبل أن تبدأ بأخبارهنّ عن ضوء القمر الفضّي. لكنّ النّساء لم يستمعن لها بل انصرفن عنها بضجر إلى العمل في الحقل وكأنّ موضوع قوت القلوب لم يعد له أهمّيّة بعد ليلة البارحة، وليضعن كلّ مجهودهنّ في العمل الشاقّ تحت أشعة الشّمس الحارقة، يغنين معاً أو يتركن إحداهنّ تغنّي على حدّة فيقطعن رتابة النّهار ويتسلين بمحاكاة حيواناتهن الّتي كانت تساعدهنّ في الحصاد والحمل ثم ليعكفن على درس موقع الشّمس والسّحاب والنّظر إلى غِلال بعضهنّ والبسملة خوفاً من أي عين حاسدة.

عاد تيس قوت القلوب يختفي في اللّيلة ذاتها، وعادت هي للتفرّد بنفسها. وكان من الممكن أن تطوي الأيّام هذا الحادث لولا ظهور التّيس في اليوم الثّاني وقد انقلب وبر جلده إلى لون الحنّاء. تفرّست فيه ليلى وأخبرت الباقيات أن نظرته ليست بالنّظرة التي عهدتها فيه. ولم تسأل النّساء قوت القلوب شيئاً ولم يعلّقن على هذا التبدّل الذي طرأ على التّيس بل أخذنَ يُكثرنَ من البسملة كلّما وجدن أنفسهنّ في

www.ibtesama.com

مواجهتها، كلما ضبطن نظراتها باتجاههنّ، وكنّ قد أوصين أولادهنّ منذ الصغر أن يردّدوا: «اسم الله علينا» في قلوبهم كلّما كانت قوت القلوب ظاهرة للعيان.

عندما اختفى التّيس لليلة الثّالثة وانفردت قوت القلوب بنفسها أيضاً، هرعت ليلى ورئيفة إلى بيت قوت القلوب نيابة عن جميع النّساء خوفاً من أن يثير حضورهنّ جميعاً اللغط والجلبة. بحثتا عن التّيس وآثاره، حبستا حركاتهما حتى لا يزفر عنهما نَفَسٌ واحد. التصقتا بالحائط السّاعة تلو الأخرى ولم تتحرّك أجفانهما إلاّ عندما سمعا جلبة التّيس وكأنّه يرفس بقائمتيه تأتي من داخل البيت. مرّت الدّقائق والثّواني في الصّمت والانتظار. نظرت رئيفة إلى ليلى نظرة فيها تراجع ورجاء.. ولمّا لم تستجب ليلى لنظرتها هذه أومأت رئيفة برأسها طالبة الذّهاب، عندها هزّت ليلى رأسها إلى الجّهتين رافضة، ثمّ إلى الأمام وهي تذبل عينيها كمن تسأل رفيقتها الصّبر. صمت.. صمت.. صمت وإذا بنحنحة تتعالى وتوقّف من جرّائها قلْبيْ المرأتين وآذانهما، ولم تكن بنحنحة صادرة عن قوت القلوب، أو عن أي امرأة، ولا عن التّيس أو أي حيوان آخر، هل هذا صوت طيف.. وإذا بقوت القلوب تقول: «من غير الشرّ عليك». هزّت المرأتان رأسيهما استنكاراً، لن تتحدّث قوت القلوب مع الأطياف بكلّ بساطة وكأنّها تجلس إلى جانبها، وإذا بالحيرة والتخيّلات والتّخمين والمنطق تختلط جميعها في رأسيْ المرأتين، ومن غير اتّفاق انسحبتا تعدوان إلى باقي النّساء، حتّى تستمدّا منهنّ التّأكيد والاطمئنان بأنهما لم تفقدا عقليهما وهما تتخيّلان أغرب الصّور.. ويصدّقْنهما بسرعة.. فقد أصبحتا كخفاش ضرير يتصوّر فريسته من

www.ibtesama.com

ذبذبة الصّوت ليكوّن لها شكلاً بتفاصيله الدّقيقة.

تصوّرت المرأتان أن قوت القلوب قد سحرت الرّجل الّذي أحبّته ولم يتزوّجها إلى تيس، فهي قد أقسمت عندما أتاها خبر زواجه من أخرى بأنها سوف تنتقم منه ولو بعد سنوات طويلة، تصوّرت المرأتان أيضاً أنّها قد أفلحت في سحر التّيس إنساناً يتجسّد في شخصيّة حبيبها، لتعودا إلى القصّة الأولى بأنها سحرته تيساً وها هي تعفو عنه أخيراً وتعيده رجلاً.. أم أنها حاولت من قبل أن تعيده ولم تفلح إلا إبّان هذه الأيّام الثلاثة، أم أنه لم يكتمل سحره بعد و... ألم تسمع القرية بقصّة السّاحرة الّتي كانت تسحر حبيبها حماراً في النهار لتفكّ سحره في اللّيل فيتحوّل إلى رجل، كل هذا خوفاً من كلام رجال عائلتها وبطشهم إذ كان حبيبها من قبيلة أخرى.

لا تفسير آخر. رغم أن المرأتين تأكّدتا عندما سمعتا نحنحة أنّها نحنحة رجل. لكن من أين تلد هذه القرية رجلاً.. من المقابر؟ من صورهم المتصدّرة جدران المجالس؟ من ملابسهم المهترئة الّتي تُركت معلّقة في مسمار على الجدران، لأن عليهم أن يكونوا في أحسن لباس كلما سافروا؟ من أصواتهم الّتي كانت ترسل بواسطة كاسيتات يسجلونها ويرسلونها لعائلاتهم لجهلهم الكتابة؟ ولجهل نسائهم القراءة؟ لا أثر للرّجال هنا؟ لا أثر للرجال هنا سوى ذكراهم.. وهل يمكن أن تَلِد الذّكرى رجلاً من لحم وعظم؟

انسحبت المرأتان كما تسحب الشّعرة من العجين، وشيئاً فشيئاً تشبّث الخوف بهما رغم الفضول وصدمة الاكتشاف. ولم تتوقفا عن البسملة وترديد الدعاء لطرد الخوف.. لتعودا فتستغفرا الله إذ كان هذا الدعاء من تأليف قوت القلوب.

www.ibtesama.com

سرعان ما أصبحت القرية كثمرة بطيخ خضراء بين يدين تحاولان الخبط عليها لمعرفة ما إذا كانت حمراء شهيّة أو العكس، فقط ابنة ليلى ذكّرتهنّ بأنّ قوت القلوب حاولت أن تفصح لهنّ عن الحقيقة عندما سألنها عن تيسها، وأنّها ما إن ابتدأت بجملتها عن شعاع القمر الفضّي وكيف ينجز لها المعجزات حتى انصرفن عنها. أنصتت النّساء لابنة ليلى لحظة ليعدن إلى لغطهنّ متمنّيات وجود رجل واحد في القرية، زوج أو أخ حتى يستشرنه، كما كنَّ يتمنَّين هذا من قبل كلّما دبّ المرض المميت بأحد الأطفال أو الحيوانات أو عندما لم تكن تنجح فخوخهنَّ في صيد العصافير الّتي كانت تنقر الحبّ المزروع. ثم تمنّين لو أن قريتهنَّ كانت قريبة من القرى الأخرى بدلاً من قربها من السّماء والسّحب، فلربّما كُنَّ ناشدن رجل دين، ثم فكّرن بأن فراغ الجامع من مقرئ ومؤذن لابدّ أنّه جعل منفذاً للسّحر لأن يتدخّل بإيمانهنّ بالله.. ثم وجّهن لومهنّ من جديد إلى موقع قريتهنّ الّتي لابدّ أن القمر يسلّط عليها شعاعه مرّتين أكثر ممّا يفعل في بقيّة القرى.. عدن وفكّرن لو يختبئْنَ من القمر ومن شعاعه ليبعدن عن خاطرهن هذه الفكرة بسرعة إذ لم يشأن أن يبشّرن بفأل كسوف القمر.. كلّ هذه الأفكار والتصوّرات لتعكير الخاطر الذي كان يلحّ عليهنّ: الفضول لرؤية ما يحدث فعلاً في بيت قوت القلوب..

وإذا بهنّ يتسلّلن كخط من النمل الأسود، الأوشحة السوداء تغطّي رؤوسهنّ وملابسهنّ السوداء مرفوعة حتّى لا تعوق سيرهنّ وحناء أقدامهنّ اليابسة تكاد تلامس الأرض. تخطين بوابّة السور ومنها للمداخل الأخرى ليقصدنها من الطّريق الصّخرية حتّى إذا عوت الكلاب وأطلّت قوت القلوب لم تر لهنّ أثراً.. مررن قرب بركة

www.ibtesama.com

الماء وكان ضوء القمر قد جعل الطّحالب الخضراء على وجه الماء تبدو وكأنّها حشرات غريبة.. ثم التففن حول بيت قوت القلوب الّذي كان يكمل استدارة الجبل كدودة قزّ تلتفّ حول ورقة التّوت. بدت نوافذه وكأنّها أعين محدقة، من جرّاء الجصّ الأبيض الذي كان يحيط بها.

لكن منظر الباب الموصد، والنّوافذ العالية.. كاد يصيبهنّ بالإحباط لولا نور مصباح لمع فجأة من النّافذة ولو لم ترتم أعينهنّ على مكان التّيس الفارغ وكيس برسيمه فيزيدهنّ هذا شوقاً لمعرفة ما يجري في الداخل..

كان تصوّر كلّ امرأة ما سوف تراه في الداخل يختلف عن الأخرى، من صورة تمثّل جلد التّيس المرمي على الأرض وحبيب قوت القلوب يقف بكامل بنيته يتوسّل لأن تعيده رجلاً إلى الأبد وهو يقبّل قدميها ويقدّم لها توبته، إلى صورة تمثّل وجه إنسان وجسم تيس، أو العكس، إلى صورة رجل يتوسّل إليها أن لا تعيده إنساناً فهو لا يحبّ التعاطي مع البشر.. «كفاني شرّهم.. خاصة شرّك». وهكذا أخذ فضولهن يتحوّل إلى هذيان يزودهنّ بقوّة وحرارة خارقة تجعل منهنّ هرماً إذا تسلّقت كلّ منهنّ على كتف الأخرى، إلى أن وصلت رئيفة إلى النّافذة ورأت المصباح يضيء الغرفة، ولكن ضوء القمر هو الّذي كان ينير الغرفة فعلاً حتى بدت وكأنّها في وَضَح النّهار، وهو الّذي جعلها ترى قوت القلوب وقد فردَت شعرها وهي مستلقية على جانبها وقد بان معظم لحمها إلى جانب رجل كان قد أتى بجثمان زوج بتول.

www.ibtesama.com

حارس العذارى

تضاحكت النّسوة الجّالسات عند تقاطع الطّرق لجملة صدرت عن إحداهنّ تتساءل بها إذا كان القزم هو قزم في كلّ شيء. ورغم استغفارهنّ الله إلاّ أنّ ضحكاتهنّ ازدادت قبل أن يغيب القزم عن أبصارهنّ.

كنّ قد اعتدن كلّ صباح، بعد وقت قصير من انكبابهنّ فوق أغصان الكاركاديه ينقّين زهرتها النّبيذيّة اللّون على رؤية القزم يسير وتحت إبطه المجلاّت والكتب، بينما أمسك في يده لفّة قماش تحوي طعامه في طريقه إلى دير الطّاهرات بخطى وثيقة. كان يكتفي بإلقاء السّلام عليهنّ، رغم ترحيبهنّ به وعرضهنّ عليه تناول كوب من الشّاي أو رغيف ساخن، فقد كان يعلم بأن كونه قزماً يستدرّ شفقتهنّ هذه، ولم يكن يزعجه ذلك إذ إنَّ شعوره بأهمّيّته كان عظيماً، فهو عدا فهمه وتتبّعه لسياسة بلاده والبلدان العربيّة فقد مدّ اهتمامه إلى أبعد منها، إلى دنيا الله الواسعة. درس وحفظ الكرة الأرضية، نقّب في المعاجم، قرأ الروايات المترجمة والمحلّية، خطّ بقلم الرّصاص تحت كلّ ما يستعذب معناه ووقعه على الأذن، كتب الشّعر والنّثر وواظب على كتابتهما وإرسالهما إلى الصّحف والمجلاّت، رغم أنّه لم ينشر له سطر واحد، وواظب ولا يزال على المجيء إلى دير الطّاهرات والانتظار أمام بوّابته منذ عام أو أكثر..

www.ibtesama.com

كان ينتقل من الجلوس تحت شجرة الجمّيز الوارفة، إلى التمدّد على غطاء قد أتى به يفرشه على التّراب تحت أغصان الشجرة معطياً وجهه إلى جدران الدّير الّتي حفظ شكل حجارتها التّرابية الحمراء، والّتي كان يشبّهها بتقاطيعها وهندستها بصينية الكنافة. كان يمضي أوقاته الطّويلة إمّا بالقراءة بعينيه تارة، وبصوت مسموع تارة أخرى أو بإشعال بعض الأعواد ليغلي فوقها الشاي، أو بانتظار الهدهد الّذي كان يطلّ من حيث لا يدري، من جهة الأشجار والماء حيناً، وأحياناً من جهة الأرض اليباس، ثم بتعليق نظره طويلاً على بوّابة الدّير الحديديّة ما إن يسمع جلبة خلفها رغم تأكّده من أن ما يسمعه لابدّ أنه من صنع خياله إذ سرعان ما كان الهدوء يعود فيحتلّ المكان والوقت.

ومع مرور الأيّام كشف له أحد عمّال بناء القبور المجاورة وقد اعتاد أن يُجاذبه الحديث لوقت قصير كلّ يوم، أن الجلبة الّتي يسمعها هي حقيقة، إذ دأبت الطّاهرات على كنس الحوش من وقتٍ إلى آخر. كانت هذه الجلبة تعطّل عليه تركيزه لمدّة طويلة، فلا يعود يقرأ بشغف أو يستمتع بجملة أو بسخونة كوب الشاي أو بحلاوته أو بالطعام الّذي كان يأتي به، بل يصبح كنظره معلّقاً على البوّابة الحديديّة، وكأنّه بتحديقه هذا سيصهر الحديد ويجعله ينهار أمام عينيه.

كان قد حاول في الأسابيع الأولى لتردّده على الدّير أن يتحاور مع الطّاهرات حتّى يقنعهّن بأن يفتحن البوّابة، وكلّ مرّة كان يرفض طلبه بالصّمت الأخرس. فهو قد طلب أن يسمح له بتنظيف الحوش مقابل

www.ibtesama.com

لا شيء. طلب أن يقدّس في الكنيسة، طلب الاعتراف، ومع ذلك لم يسمع أيّة ردّة فعل تأتيه من البوّابة المطبقة. حتى أيقن شيئاً فشيئاً أن الجميع قد تكتّل في حبك كذبة الدّير هذه، لأنه قزم، وهو على معرفة تامّة كيف يفكّر البشر بالأقزام. إنّهم يكذبون عليه، من عمال بناء القبور إلى حلقة نساء الكاركادية، إلى أهله إلى الرّيح الّتي لابدّ أنّها اشتركت معهم بإصدارها جلبة ما خلف البوّابة المهجورة، إلى أم جورجيت التي ناحت طويلاً لأن ابنتها التحقت بدير الطّاهرات ذي الباب الّذي يفتح ويغلق ولا يعود يفتح مرّة أخرى.

لابدّ أن أهل جورجيت يخفون الحقيقة، لابدّ أن جورجيت قد أصيبت بالجنون وأخفيت عن الوجود، إذ في المدّة الأخيرة قبل إشاعة دخولها دير الطّاهرات كانت تعتصم بالبيت ولا تفارقه إلا لتسير فوق الأشواك، إلى أن تدمى قَدَماها.

وصل القزم إلى اليقين بأن كثيرين استفادوا من تردّده على الدّير، من أمه الّتي دأبت على إعداد الطّعام له منذ الفجر وكأنه يذهب إلى وظيفة، إلى أخيه الأصغر الّذي لابدّ أنه تنفّس الصّعداء لروتين القزم هذا، فهو مهما أحبّه كان ملزماً بأن يشركه في جلسات السّمر مع أصدقائه الّذين كانوا يجلسون في حضور القزم وكأنهم يجلسون على البيض يتحسبون لأية نكتة أو جملة طارئة خوفاً من أن تمسّه وتجرح شعوره.. لا يذكر أن أخاه ثناه عن عزمه ولو مرّة واحدة، كلّما رآه يستعدّ للذهاب إلى الدّير. ولا حتّى نساء الكاركادية اللّواتي لابدّ أنهنّ انتهزن الفرصة لنسج القصص المضحكة السّاخرة حوله. أمّا عمّال القبور... ولم يطق لهذه الخواطر أن تزيد من عذابه، فأسرع

www.ibtesama.com

يخبط على البوّابة بكلّ عزم، وكأنّ الخبط يَصْدُر عن يد جبّار لا عن يد قزم، ويسأل كالعادة عن جورجيت، يريد أن يراها حتى يشكرها للحنان الّذي كانت تغدقه عليه. لم تمرّ اللحظات، بل توقّفت وشعر بأنّ كلّ أعضاء جسمه قد تحوّلت إلى قبضة يده السّمينة، هذه المتباعدة الأصابع. وما إن همّ بالخبط مرّة أخرى حتّى سمع صوتاً ناعماً يهمس له بأن جورجيت تهديه السلام لكن مواجهتها مستحيلة.

بعد هذه الجملة أصبح الدّير هاجسه، البوّابة الحديديّة المغلقة هاجسه، منذ أن ناحت أم جورجيت بأنّها لن ترى ابنتها حتى عند الموت، ترى كيف يعشن خلف هذه البوّابة طوال الأيّام والسّنين من غير أن تراودهن فكرة الخطو عبر عتبة البوّابة لحظة.

هذه البوّابة الجاحدة لتفانيه بها قد فتحت مرّات قليلة، ودائماً أثناء غيابه تمّ كشف خيانتها له بنفسه إذ كان يدرس كلّ صباح الدلائل والإشارات الّتي كانت تدلّ على آثار دواليب سيّارة أو شاحنة أو عربة يجرّها بغل. كان يقرّب وجهه من التّراب حتّى يكتشف إذا كانت البوّابة فتحت على مصراعيها أم درفة واحدة منها وهو يعضّ على شفتيه ندماً لأنّ منظر الطّاهرات قد فاته وهنّ يفتحن البوّابة ويحملن الأشياء ويدفعن المال؟ من يعطيهنّ المال؟

كلّما امتدّ الوقت ازداد هوس القزم بالدّير وبالطّاهرات، هذا الهوس الّذي لم يعد يفسّره ولم يعد أحد من الّذين اعتادوا على رؤيته ينتظر أمام البوّابة يقلق عليه، بل لابدّ أنهم قالوا بينهم وبين أنفسهم إنّ هذا الهوس يتعلّق بحكمة قزم وعقليّة مختلفة خاصّة به.

إلى أن مضت ليلة ولم يعد القزم إلى بيته. وَلْوَلَتْ الأم تلوم نفسها

www.ibtesama.com

لأنها لم تردعه عن الذهاب من قبل وقد أيقنت أن وحشاً قد سدّ دربه وأكله بلقمة واحدة. بينما ظنّ أخوه أن إحدى الفرق البهلوانية التّابعة للسّيرك قد خطفته وأخذته إلى المدينة كي تدرّبه ويصبح فرداً منها.

أسرع إلى الدّير ينهب الأرض، يمرّ بنساء الكاركادية فيَدْلُلْنَه على الدّير، غمزة إحداهنّ جعلته يتوقّف عن طرح السّؤال، وما إنْ أصبح مواجهاً البوّابة حتى ارتعدت فرائصه، كان هناك ذرّة أمل واحدة في أن يكون القزم قد بات هناك، لكنّ الفسحة الفارغة إلاّ من شجرة الجميز والغطاء الّذي كان يودعه القزم كلّ مساء بين أغصانها والحجر الوحيد تحتها، وعلب سافو فارغة على مقربة من الجدران، وتوابيت مهشّمة متكسّرة، بعضها كان مبطّناً بالقماش الأسود وعلامة الصليب محوكة بالزّخرفة البيضاء فوقها، كلّ ذلك قضى على أيّ أمل. كانت الرّيح تصفر، وثمّة عمّال يراهم عن بعد يبنون القبور الجديدة. صاح باسم أخيه ولم يجبه إلاّ السّكون، وأخذ يوجّه اللّوم إلى نفسه، كان يعلم أنّ أخاه يهرب من واقعه عبر اللّجوء إلى الدّير موهماً الجميع بأنه في صحّة جيّدة وعافية عظيمة حتى يسير يومياً ما يقارب الأربع ساعات ذهاباً وإياباً، من أجل أن يعود فخوراً بأنه ينجز المغامرات.

المغامرات، الطرق هي نفسها، والبوّابة الحديديّة هي نفسها، طرق فارغة إلاّ من امتداد أشجار النخيل والتّرع وصوت نقيق الضفادع ونهيق حمار.

يسرع الأخ، يتعثّر ببقايا عظام بشريّة وبجماجم متآكلة، يدخل غرفاً من غير سقف ومن غير أبواب، يقرأ على جدرانها الكلسية (اذكر يا رب عبدك المطيع، اذكر يا ربّ عبدك الخاطئ.. اذكر يا

www.ibtesama.com

ربّ عبدك الصّالح، عبدك النادم) وفجأة يجد نفسه يجهش في البكاء شاعراً بالذنب لأنّه كان يبارك في قرارة نفسه ارتياد أخيه منطقة الدّير كل يوم. لم يكن يريد أن يُعرف أنّه أخو القزم، وأنَّ منزله هو بيت القزم.. يسرع خارجاً راكضاً إلى عمال بناء القبور، يسأل أحدهم، وكان يدهن أحد القبور بلون أحمر ـ بنّي، عن القزم فإذا بالرّجل يشير إلى الدّير. يتركه ويركض إلى البوّابة يخبط على حديدها وينادي باسم أخيه، ولدهشته يسمع صوت القزم يسأل «أيوه؟» يبكي الأخ من الفرح: «الحمد لله على سلامتك، يللاّ معي نرجع البيت، أمّك حتقطع روحها».. يجيبه القزم: «معلهش قول لها أنا بقيت حارس الطّاهرات. أنا مبسوط معلهش».

لم يدخل القزم الدّير إلاّ قفزاً. لا، لم يقفز من على رفّاص حتى يصبح داخله كما فكّر يوماً وطرد الفكرة المجنونة، ولا أوقف التوابيت واحداً فوق الآخر، حتّى يقفز من فوقها، بل قفز على أكتاف سيّدنا الّذي جاء في زيارته السّنويّة إلى دير الطّاهرات من المدينة ومعه بعض الصّناديق. كان القزم قد خطّط في جلوسه أمام البوّابة لهذه اللّحظة طويلاً، إذ لم يعرف كيف أتته هذه الشّجاعة والمرونة وسرعة الخاطر ليقفز من مكانه وكأنّه حشرة طائرة ما إن سمع ضجيج السّيارة يقترب ليحطّ عليها قبل أن تتوقّف ويقفز فوق سيّدنا ويحمل عنه أحد الصّناديق ويسرع حاملاً خفقان قلبه أيضاً. أسرع غير مصدّق أنّه يدخل البوّابة المفتوحة، وبأنّه تخطاها وبأنّه أصبح داخل الحوش، وحتّى يصدّق ما يجري تسمّر كلّه على البوّابة الحديديّة المغلقة يراها لأوّل مرّة من الداخل، وقد أيقن أنّها سوف تفتح بعد قليل ليرمى به خارجها. لكنّ الأمور لم تعد تتعلّق به، كأنّه اختفى

www.ibtesama.com

حتّى عن أنظار المكان، فالطّاهرات أخذن يتوافدن بملابسهنّ البيضاء، وبأكاليل رؤوسهنّ، ينحنينّ أمام سيّدنا الّذي بدا وكأنّه طير أسود اللّون، يكببن فوق يده يقبّلنها.

كُنَّ عرائس، بعضهنّ في غاية الصبا والجمال، بَدَوْنَ كزهرات نرجس جميلة، عندما اصطففن وأنظارهنّ خاشعة إلى الأرض. لحظات شعر فيها القزم بالحرج وبالخوف، حاول أن يخفي لهاثه الذي أخذ يسمعه، فإذا بسيّدنا ينظر إليه سائلاً: «هذا هو؟» فأجابته إحداهنّ، كبيرتهنّ، بكلّ خشوع ولكنْ بطيبة قلب ومودّة: «نعم سيّدنا». ومن جديد وجّه سيّدنا الكلام إلى القزم: «أخبرتني عنك الطّاهرات.. بورك فيك.. تحرسهنّ».

ارتبك القزم أمام سيّدنا.. ولم يعرف بِمَ يجيبه، فضوله ليرى هذه البوّابة الحديدية مفتوحة وليرى ما خلفها كان عظيماً، يشبه الشعور عندما شقّ البطّارية إلى شقّين حتّى يرى ويلمس ممَّ تتكوّن. بينما كان سيّدنا يعرض عليه وظيفة مساعد للطّاهرات وجد نفسه يوافق أن يبقى في الدّير ليشرف على زراعة الحوش وفلاحته من دون أن يفكّر مليّاً في الموضوع.

لم يتصوّر أن يكون الدّير هكذا، إذ لم يكن يمتّ بصلة إلى جدرانه الخارجيّة ولا إلى أسواره ولا إلى الطّبيعة الّتي كانت كلّها حوله من الرّمال وفي لون الرّمل والتّراب. لذلك تعلّق القزم في الأيّام الأولى بالألوان الّتي كان يرى بعضها للمرّة الأولى منحوتة فوق الجدران وفي رسوم كانت تمثّل الحيوانات أيضاً والخفافيش والملائكة والورود، ونساء يمسكنّ بالطّبل وقد بَدَوْنَ بملابس مزخرفة

www.ibtesama.com

مزركشة في سموات أو بحور قربها الحراب والخناجر والسيوف. . ثم شيئاً فشيئاً اعتادت عيناه على العتمة وأصبح يرى بوضوح، لاسيّما وأنّ الطّاهرات كنّ ينرن المكان بملابسهنّ البيضاء.

أسبوع مضى ولم يحزر القزم أيّهنّ جورجيت، إذ كنّ جميعهنّ على صورة واحدة، خاشعات، يتناوبن على الصّلاة والرّكوع تحت تمثال المّسيح المصلوب، حتّى تكاد أعينهنّ تصبح كبيض الإوز. لم يكن يتركنه ليلاً نهاراً، يفركن قدميه بماء الورد، يضعن الكمّادات المغمّسة بالزّيت والعطر على مسامير الصّليب، يشعلن الشموع، يحرقن البخور. ترتفع حناجرهنّ بالتّراتيل الجميلة، الحزينة، يتفانين في حبّه لدرجة أنّه شعر مرّة بأنّهن قد حلّقن في فضاء الدّير حتّى وصلن إلى التّمثال فالتحمن به للحظات قبل أن يعدن إلى أمكنتهنّ. لم يكن يعرف لماذا كنّ يأتين في يوم محدّد بدمية طفل يغمسنها بالماء وهنّ لا يتوقّفن عن الصّلاة، يدعكنها بأحجار ملوّنة ذات شذى أخّاذ، ثمّ يجفّفنها بقماش مطرّز، ويلبسنها ملابس أطفال بيضاء بعد أن يأتين بها من صرّة من قماش مرصّعة بالأحجار الثّمينة ومعقودة بحبال من اللّؤلؤ.

إنّهنّ يتفانين في حبّهنّ للمسيح. هذا هو الحبّ الحقيقيّ، لم يلمسه في أية رواية مترجمة أو محلّيّة، لم يقف على مثل هذا العشق والتّفاني. هل هذه تضحية؟ يتراجع القزم. إنهن قد ضحّين بالعالم، بالأهل من أجل هذا الحبّ، من أجل أن يتنافسنّ على هذا الحبّ. يقرّر وهو يغمض عينيه أنّه سيتجاوب وحبّهنّ، سيجعلهنّ يدركن بأن المّسيح على معرفة بأمرهنّ وبطريقة حبّهنّ له، فهو بالتّالي قد أرسله

www.ibtesama.com

رسولاً إليهنّ، ألم تقل له الطّاهرة المسنّة ذلك؟ سوف يساعد اللّواتي ينتظرن دورهنّ لحبّ المسيح بتطريز القماش وبتبديل بياض الكنيسة، سينتشل بدلاً منهنّ الغسيل من الماء الغالي، وكان بودّه لو يقوم بنشره تحت الشّمس الكاوية لكنّه لم يكن ليبلغ حبل الغسيل المرتفع. سيوقد بدلاً منهنّ نار الفحم ويقوم بتهويته حتّى يصبح جمراً ويعبّئه في المكواة، سيقوم بجمع الأزهار الّتي سوف يزرعها من أجل أكاليلهنّ بدلاً من استعمالهنّ الورود الاصطناعيّة. سيقوم بإطعام الدّجاجات بالحبّ ليلاً ونهاراً حتّى تنفر بالصّحّة والعافية وتبيض أطيب البيض، سينظّف لهنّ أحذيتهنّ ويقوم بتلميعها حتّى تصبح برّاقة كالمرآة، سيسوّي لهنّ أسرّتهنّ الطينيّة، سيكون على مقربة من شراشفهنّ.. إذ لابدّ للمسيح أن يشمّ نظافتهنّ..

عندها يوقف القزم سيل حماسه، ويطرد قفزة قلبه هذه بل يميتها كما كان يميتها كلّما سمع حفيف أقدمهنّ العارية فوق برودة الأرض المتربة. يغمض عينيه بشدّة، كأنّه بذلك قد أغمض أذنيه وأغمض نبضه الّذي كان يثب من مكانه لهذه الخواطر الّتي لم تكن في الحسبان.

بعد أشهر وجد القزم نفسه قد اعتاد كلّياً على عرائس المسيح المنتظرات وهنّ يطفن حوله، يتهامسن، يتنفّسن، يبتسمن له، يتكدّرن أمامه وكأنّه أصبح واحدة منهنّ وهو بالتّالي نذر نفسه للعذارى مقسماً أنه لن يفرقه عنهنّ سوى الموت. عند الموت سيختبر حقيقة حبّهن له، فهل يعدنه إلى أهله أم يضعنه في غرفة الموت الّتي دخلها ذات يوم بصحبة الطّاهرة الكبيرة حتّى يساعدها في

www.ibtesama.com

كنس أرضها الّتي لم يكن ليراها لو لم تشعل المرأة المسنّة شمعة صغيرة وتقرّبها من صندوق عالٍ وترفع عنه الغطاء ليشهق مذعوراً وهو يرى هيكلاً عظميّاً فوق الرفّ الخشبيّ، حيث أضلاع الصّدر ظاهرة، وبعض من اللّحم مايزال يلفّ اليدّ، وإذا بصوت الطّاهرة المسنّة تهمس: «لا تشهق يا من أرسلك الربّ وهداك إلينا».

وهكذا.. لم يعد يلتفت القزم إلى البوّابة الحديديّة إلاّ من وقت إلى آخر، حيث كان يعرف من النّحنحة الّتي يسمعها أن أمّه لم تفقد الأمل بعد في رؤيته وفي تفقّده، وكان هذا يؤلمه في البداية خاصّة وهو يتخيّلها تجلس على الحجر ذاته، وكان يسمع أخوه يناديه يوماً بعد آخر وهو يخبط على البوّابة يحثّه على العودة معه، لكن القزم كان يتبع التعليمات ولا يجيب بل يستأنف عمله، وقد وجد نفسه يعتاد على قطع صلة الوصل الضّروريّة هذه حتّى يركّز على ما يريده من غير أن يجعل ذبذبات دنيويّات العالم الخارجي تتدخّل به وتشوّش عليه، لكنّه لم يستطع عند تصوّره لأمّه ولأخيه وهما يتناوبان في الجلوس فوق الحجر إلاّ أن يفكّر بالهدهد، وإذا كان يقصدهما كما كان يقصده سواء من جهة الأشجار الخضراء والترعة، أو من جهة اليباس طالباً فتات الخبز.

www.ibtesama.com

صريف أقلام الملائكة

لا تستعملي إبريق الصّفيح للوضوء، افركي وجهك بصابون الزّيت، لا تنظري ولا تستحلي القمر. لا تضيفي أقراص النّيل إلى شراشفك، يجب ألاّ يرتفع صوتك عن الوشوشة، خاصّة في حضور رجل ولو كان في الغرفة المجاورة، إذا أردت النّحنحة أو التأوّه فادخلي الحمّام. لا تنسي. ثلاثة أشهر وعشرة أيّام، من الأفضل أربعة أشهر. تلازمين أثناءها البيت. ليل نهار. ليل نهار. حتّى لو توعّكت لا تغادريه. لكن إذا اشتدّ عليك المرض ناديني. سوف أذهبُ معك. إيّاك وصديقاتك المتبرّجات، لا تستذوقي الأكل الطيّب ولا تشمّي الورد... لا.

جلست شادية بملابسها السّوداء بين صفّين من النّساء النّائحات والصّامتات متمنّية لو تترك وحيدة لحظة واحدة، ووجهها الأصفر الشّاحب يلمّ بكلّ ما يجري حولها من نظرات ومن كلام لم يكن يُقال. النّائحاتُ كنّ قريبات زوجها الّذي توفّي في حادث سيّارة. والصّامتات كنّ قريبات أهلها أو من معارفهم.

تتمنّى لو أنها لم تزل معه في المستشفى رغم فراره أخيراً من بين أصابعها. كانت جميلة تلك الأيّام إذا ما قيست بما تمرّ به الآن، كان

www.ibtesama.com

لها وحدها في الغرفة. تجلس معه ساعات اللّيل والنّهار. تراقب وجهه وجسمه غير مصدّقة أن الحوار بينه وبينها أصبح ثانية واحدة، لحظة تململه فقط. لتهب على أثرها من جلستها عند قدميه، حيث تقوم بفركهما طوال الوقت، وتمسك بوجهه. فيومئ لها بعينيه، بجبهته، بأنفه، لم تكن تعرف، تريح خدّها على خدّه، فتشعر برطوبة لعابه، ربما يريد أن يقبّلها. يتمتم بما لا تفهمه، ثمّ يمدّ لها عينيه، كأنّه يهبها كلّ ما يملك، أو يظهر لها طرف لسانه. عندها تهوي على فمه تقبّله، وتدني شعرها منه واضعة خصلة في كفّه ثم مطبقة عليها أصابعه، فما أن يشدّ عليها بدوره حتّى تفرح... وهكذا تظلّ السّاعات متسمّرة إلى جانبه، تنظر إلى عروق كفّه، إلى أصابعه، وهي تقبض على الشّعر الأسود، بينما يعود هو ـ رغم خيبتها ـ إلى سباته العميق لتجد نفسها تتراجع بعد قليل وتبارك هذا النّوم لعلّه يمدّه بالرّاحة والشّفاء. ولم تكن تتحرّك من جلستها هذه، إلا عندما تدخل عليها الممرّضة فتستأنس بها شادية. كانت هذه الممرّضة وبقيّة الممرّضات معجبات بجرأتها وتفانيها في الحبّ. ابنتها الصّغيرة تلتصق بها الآن. لكنّ شادية لا تشعر بأي عزاء. بل تدخل غطاءً كثيفاً من الكلام والهمسات فتخرج منه راكضة. لكنّ الأحلام والهمسات تلحق بها هذه المرّة. إذ لم تكن عن الابريق والقمر والصّابون غير المعطّر... «يللاّ يللاّ بكرة بترجع لزوجها الأوّل، بترجع بتربّي هالبنت... يللاّ سبحانه وتعالى انتقم...» عندما سمعت شادية هذه الجملة أخفت وجهها بين يديها. وحتّى لا يعكّرن عليها صفو خلوتها حنت رأسها، وتكوّمت على نفسها حتّى أصبحت وحيدة كما تمنّت سابقاً. ومضت في العشق.

www.ibtesama.com

تستحضر رائحته. خاصّة رائحة رقبته وتحت إبطيه. رائحته قبل النوم، وبعد النوم، قبل الحلاقة وبعد الحلاقة. لتختمها برائحة أوّل قبلة. ثم تجد نفسها تتمايل وتتباطأ وتؤجّل أين تودّ أن تُرسي أفكارها. حتّى تستمتع بها أطول مدّة ممكنة. لكنها تجد نفسها تمضي بها وتعيش في اللّحظة الّتي كان يدخلها. اللّحظة الأولى فقط، اللّحظة الّتي كانت تفوق بزخمها ما يليها، حتّى من الشّعور بالنّشوة، كانت تلك اللّحظة هي نقطة ارتكازها، تذيب كلّ ما كان ينهشها: من حزن لترك ابنتها، ومن هلع لأن يتزوّج حبيبها قبل أن تتمكّن من الهرب من زوجها، ومن خوف لمواجهة عائلتها والجيران. وما تشعر به يصل إلى أعماقها، حتّى كانت تتأكّد أنّها قد خلقت من أجل هذه اللّحظة ومن أجل هذا الرّجل. فتغمض عينيها مُستسلمة لنوم ضميرها الّذي حسبته قد استؤصل منها.

لكنّهن لا يتركنها الآن معه تماماً مثلما لم يتركها عنف الكلام والمراسيل والتّهديدات من قبل عندما هربت معه. أصواتهنّ تفد إليها. تشعر الآن بأنهنّ يحوّلنها إلى عجينة بين أيديهنّ، وخاصّة النّساء في صفّ عائلتها، إذ الأخريات كنّ يفكّرن بفقيدهنّ بلوعة عظيمة، تجعلهنّ يتّهمنها بأنّها كانت السّبب في انتقام الله منه.

تحاول عمّة شادية أن تُعيد إليها اسمها السّابق «رشيدة»، فشادية ترمز إلى عهده إذ هو الّذي بدّله بشادية. عليها أن تعود لتصبح حكيمة مثلها... فلا تتوضّأ بإبريق الصّفيح إذ فوهته تذكّر بالرّجل. وأن لا تشتهي التطلّع إلى القمر لأنّه مذكّر وأن...

www.ibtesama.com

وهكذا بقيت شادية مكبّة على إغماض عينيها والغيب بين رائحته ووصولها إليه ووصوله إليها، وتحسّسه لكل جزء منها، حتّى لأصابع قدميها. ثمّ تأخذ أحاسيسها فجأة اتّجاهاً آخر وهي تسمع الهمسات تعلو بأنّها ستُجبر على العودة إلى زوجها السّابق هذه المرّة، مباشرة بعد مدّة العدّة. وبأنّها سوف تنقل إلى بيت أخيها ريثما يحين الوقت. عندها تجد نفسها تبارك الموت وتقرّر أنّ تموت. فتغمض عينيها وتكبت أنفاسها تودّ الاختناق. تشدّ على داخلها وكأنّها تعصره. لربّما عصرت قلبها لدرجة الالتواء. وبدلاً من أن تغيب عن الوعي، تحين منها نظرة إلى كفّها المعافاة، لابدّ أن التّوق إليه يتدخّل في قهرها هذا، ويمدّها بالعافية والحيويّة. تحادل الموت من جديد وهي تراه بارداً لا روح فيه؛ وكأنّه لم يعرفها قط. وبدلاً من أن تغيب عن الوعي، تصعق وعمتها ترفع لها رأسها عنوة: تبعد لها يدها المكوّمة عند حجرها، دافعة بدلاً منها رأس ابنتها حتّى تنام في حضنها وهي تأمرها: تجلّدي. هذه سنّة الله. من التّراب إلى التّراب؛ ثمّ تتابع: «عليك بالتّوبة. عليك أن تعودي من أهل اليمين، حتّى ينقهر خازن النار عندما يراك قد أفلت من بين أصابعه الناريّة... ماذا يطمح المؤمن أكثر من ذلك، طبعاً أقلام الملائكة سوف تشطب لك فعلتك الأولى من على اللّوح إذا عدت إلى زوجك الأوّل، زيادة في التأكّد عليك أن تنظري إلى السّماء في اللّيل ـ بعد عدّتك طبعاً ـ وكأنّك مضطجعة بين النّوم واليقظة، وعندما ترين النجم يسرع هارباً، اغمضي عينيك وتشهّدي وتوبي، فهذا النجم سوف يسمع توبتك ويسرع ليرجم الشّيطان الّذي وسوس لك بالزنا... توبي حتى تدخلي الجنّة وتري: «أرضها البيضاء مثل الفضّة واللّؤلؤ والمرجان

www.ibtesama.com

وترابها المسك ونباتها الزّعفران وأشجارها ورقه من فضة وورقه من ذهب[1].

لم يرف جفن شادية لهذا الكلام، فهي لا تزال تحادل الموت، لكن جملة واحدة اخترقت جهازها العصبيّ جعلتها تنتفض وتسترجع كل حواسها ونبضها باطمئنان وبصيص أمل. «الجنّة هي المكان لجمع شمل الأزواج». لكنّ شادية تراجعت بالسّرعة نفسها الّتي هلّلت بها وهي تسأل: «ألتقي بزوجي الأوّل أم الثّاني؟».

سؤال شادية الذي اندفع من قلبها ويأسها ورعبها تدحرج فوق الآذان الّتي لم تسمع من قبل همسة أو كلمة حلوة أو نغماً جميلاً، مات على الأفواه الّتي لم تذق سوى طعم البصل والمرّ، وانقبر في الصدور الّتي لم تحمل بين أضلاعها سوى الكبت والهموم. وإذا بعمّتها تشمئزّ منها فتصيح بها غير مبالية بالحاضرات؛ وكأن ساعة انتقامها قد أتت أخيراً: «عشت في دنياك على هواك، ولحقت بنا الفضائح الّتي ما زلنا ندفع أرواحنا من أجلها. إذا تبت لحقت بنا توبتك. لكنّك تريدين أن تكفلي آخرتك أيضاً. آه من حوّاء».

ثمّ انفجرت بها من جديد بكلّ شماتة وغيظ:

«طبعاً زوجك الأوّل، هو الّذي سوف تلتقين به في الآخرة». بينما أخذت هذه الجملة طريقها إلى شطر شادية شطرين تسمع إحداهنّ تؤكّد بأنّ الله يغفر كلّ أفعال المحرّمات ما عدا الزنا. عندها تستجمع شادية نفسها من جديد وتغمض عينيها وهي تستعيد ما قرأته إبّان مراهقتها عن الآخرة والأهوال...

www.ibtesama.com

«النّساء المعلّقات بشعورهنّ في شجرة الزّقوم والحميم يصبّ عليهنّ فيهري لحومهنّ لأنّهنّ شربن الأدوية حتّى يقتلن أولادهنّ[٢]».

«ونساء قد احترقت وجوههنّ وألسنتهنّ مندلعات عن صدورهنّ لأنّهنّ قلن لأزواجهنّ طلّقونا من غير سبب»[٣].

لا بأس، تهزّ شادية رأسها بكلّ اقتناع وهدوء، «لا بأس بكلّ هذا. . .» وهي تبعد عنها صورتين: صورتها مع زوجها الأوّل في السّرير، وصورتها معه على أرض الجنّة.

(١) (٢) (٣) من كتاب الاسراء والمعراج ـ حديث للإمام ابن عبّاس.

www.ibtesama.com

«الغاية من السفر»

عندما حطّت الطّائرة على أرض مطار القّاهرة، أصيب هشام بالدّهشة إذ اكتشف أن الطّائرة قد أقلعت فعلاً وطارت به في السّماء. جهله لما حصل لم يكن يقع على شدّة حماسه الفائق لأن يحطّ في القاهرة، بل لأنّه كان يطير للمرّة الأولى وينتظر شعوراً خاصاً، كهبوط في القلب، ارتفاع في الصّدر، وطنين في الأذنين. بدلاً من هذا لاحظ تعليمات المضيفات والمضيفين، شرب العصير، كتب في بطاقة الجمارك «للسّياحة» تحت خانة «الغاية من السّفر» رغم أن سفره كان من أجل امرأة. إذ حتّى الآن لم يجر بينه وبين المرأة الحقيقيّة أيّ اتّصال أو كلام أو مبادرة، عندما رفّ قلبه لشابّة كانت قد دأبت على المرور من أمام دكّان والده. أسرع يطلب يدها ويعقد قرانه عليها وعندما تُركا معاً في ليلة الدخلة أخذت تبكي وتهمس له بارتجاف: «أنا أختك.. اعتبرني أختك».

منذ أن وصل إلى الجمارك وهو في عَجَلَة من أمره، يتمنّى لو تنتهي هذه الأمور بسرعة حتّى يرى صديقه المصري مجدي بانتظاره، ليسرعا كما تواعدا على الغطس في السّهر والسّمر والتّرويح عن النّفس كلّما جلسا في كنتين الشّركة حيث يعملان وكلّما تجوّلا في السّوبر ماركت حيث كان هذا التّجوال المتعة الوحيدة إلى جانب اطلاعهما على آخر موض الساعات والمسجّلات والفيديوهات.

www.ibtesama.com

كان مجدي هو الذي زرع بهشام السّوسة، سوسة السّهر والسّمر، إذ كان هشام قانعاً بطريقة عيشه الجافّة في بلده الصحراوي، وقد كان يلوّنها بمشاهدة أفلام الفيديو. لكن صداقته لمجدي هي الّتي جعلته يشعر بعدم الاكتفاء والتطلّع إلى المغامرات.

بدلاً من الهرج الذي أيقن هشام أنّه سيصادفه ما إن تحطّ به الطّائرة على أرض القاهرة وجد نفسه ينتظر في صفّ الجمارك في جوّ جدّي يختلف عمّا يراه في الأفلام المصرية، خاصّة أن الشّابّات اللّواتي كنّ يعملن في المطار أخفين رؤوسهنّ بأحجبة سميكة.. لا نكات، ولا أغاني، ولا زغردة، ولا غمز ولا لمز، حتّى مجدي بدا متوتّراً وهو يأخذ منه جواز سفره ليستطيع بواسطته شراء بعض قناني الويسكي من السّوق الحرّة قبل أن يزعق بالزمّور ويتشاحن مع عسكري المرور، ويبعد عنهما سائقي التّاكسي ويسرع بأخذ هشام إلى الشقّة الّتي استأجرها له. لم يكترث هشام لأن يُعاين الشقّة الوضيعة، لكنّه تضايق من الأوساخ الّتي كانت القطط قد نثرتها على السّلالم بعد أن عبثت بسلّة المهملات لاسيّما وأنّه كان يرتدي حذاءً جديداً يلتمع كالمرآة. ولم يشعر بالسّعادة وبالرّاحة إلا وهو في طريقه إلى الملهى مصطحباً مجدي وأشقاء مجدي إلى شارع يفتقر إلى أضواء الشّوارع الأخرى، والمطاعم فيه مقفلة أو شبه مقفلة. يفكّر بقلق إذا كان مجدي قد سبقه إلى الملاهي التي كان يراها في الأفلام في شارع متلألئ كالنّجوم والنّيل يبدو تحت الأضواء وكأنّه يرقص. لكن سرعان ما غاب قلقه وهم يقتربون من الباب ويسمع الضّجيج والموسيقى. وما إن دخل الصّالة حتى عاد ترقّبه إليه.

www.ibtesama.com

كانت الصّالة واسعة. أجواؤها الذهبيّة الملوّنة كالمرايا والتماثيل واللوحات الّتي كانت تمثّل الرّاقصات في القصور وبين الجبال والأودية والأنهار جعلت حماسه وفرحه يزدادان. وحلّت ابتسامة ارتياح محلّ الابتسامة الّتي كان يخفي بواسطتها ارتباكه والسّاقي يقودهم إلى طاولة وهو يلقي عليهم الألقاب الرّفيعة. إلاّ أنّه بعد أن ابتعد السّاقي عن الطّاولة أخذ هشام يتأكّد من أن الكرافاتة هي وسط القميص، لا تميل إلى جهة واحدة، فمجدي عقدها له هذه المرة. يمرّ بيده على شعره ويفرح عندما يشعر بنعومته. لابدّ أنّ مناخ القاهرة جافّ وسيبقيه ناعماً بعد أن فرده بالسشوار. يزيح نظارتيه السوداوين ذَواتَي الإطار الذهبي، متمنّياً لو أن الدّنيا نهار حتّى يضعهما فوق عينيه. إنّهما تليقان به، تجعلانه في منتهى الأناقة. ثمّ إنّه، بعد اطمئنانه لهذه الأشياء، علّق عينيه قبالته، على المسرح ذي الستارة المسدلة، وانسجم مع مقدّم السّهرة الذي رحّب بالزبائن الكرام مستعملاً الألفاظ الطنّانة الرنّانة الّتي أدخلت الفرح إلى قلب هشام ثمّ ليشير المذيع إلى الستارة ويصيح: «الرّاقصة النّاشئة لواحظ».

وما إن فتحت الستارة وعزفت الفرقة الموسيقية ما يزيد عن الخمس دقائق ولم تظهر الرّاقصة حتّى عاد الهمّ يركب هشام، لربّما أصيبت بوعكة مفاجئة.. لكن الرّاقصة لواحظ تطلّ وتضربه بجسمها الأبيض وكأنّه أصيب بضربة شمس. يفغر فاه، يبحلق بعينيه، ولا يفيق من هذه الدّهشة إلا بعد لحظات والجسم النّاصع البياض بلون بيض الدّجاج يدور ويتلوّى ببدلة زهريّة اللّون بلون البطيخ أمام هشام الّذي يحاول أن يهدّئ نفسه إزاء هياج عظيم سيطر عليه.

www.ibtesama.com

إنّه يرى المرأة الحقيقيّة لأوّل مرّة، امرأة من غير العقود الفضّية والخلاخل والخواتم والأثواب الفضفاضة الّتي تنفي وجود الأجسام؛ يرى الشعر كما هو، لا في جدائل ولا مَخْفِيّاً تحت المناديل الملوّنة وحبوب الفضّة وقبّعات القشّ، وجهها عليه الألوان، أحمر الشفاه، والكحل الأخضر والأزرق بدلاً من الكحل الأسود الّذي كان يصف الحاجبيْن معاً، فيظهر المرأة قاسية مهما ابتسمت، يرى يديْن عاجيّتيْن بدلاً من إخفائهما تحت الوشم والحناء السوداء.

التّصفيق وقدوم السّاقي بالمشروب، وقرقعة الكؤوس جعلته يتلهّى عن هوسه، ويأخذ في تأمّل الثدييْن والبطن والرّدفيْن والفخذين وما تحت الإبطين، والشّامة الكبيرة السوداء عند الفخذ والبياض.. ثمّ يعتدل في جلسته الّتي شعر بأنّها ستكون جلسة أبديّة وهو يسترسل في التّحديق بالرّاقصة يلاحق حركاتها، وأين تحطّ بنظراتها.. وإذ كانت قد لاحظته فقد نظرت باتّجاهه.. وإذا بها تنحني أمام التّصفيق وتبعث قبلاتها في الهواء وتسدل الستارة خلفها.

ينخلع قلب هشام لاختفائها. أمَعْقولٌ أن تكون السّهرة قد انتهت؟ لكن الأطباق لم تزل توضع على الطّاولة وهو لا يشعر بتململ أحد. ومع ذلك فالستارة مسدلة، ومقدم الحفلة يتحدّث مع السّاقي وظهره إلى الطاولات.

«السّهرة لا تزال في أوّلها». كان هذا أوّل ما علّق به المقدّم وكأنّه شعر بقلق هشام، وها هو ذا يحثّ الزّبائن على التّصفيق والحماس، على السّهر والفرفشة سائلاً: «إيه.. باين عليكم نعسانين واللا إيه» وإذا بهشام يصاب بالحرج لفكرة أن المقدّم ربّما اختاره ليجيب عوضاً

www.ibtesama.com

عن السّاهرين فيواري وجهه خلف مجدي إلى أن سلك المقدّم طريقاً آخر في كلامه وأخذ يرحّب الآن بشباب السيّدة زينب، بمصطفى وإخوته، بأولاد عمّ مصطفى، يرحّب بشاعر دجلة والفرات، وإذا بالجالسين خلف الطّاولات الشّاغرة، وكانت قليلة بالنّسبة لعدد الطّاولات، يتلفتون حولهم حتّى يتعرّفوا بشباب السيّدة زينب وبشاعر العراق. وكان من السّهل التعرّف بهم، إذ نفخوا صدورهم كالديكة وهم يحيون المذيع.

يفكّر هشام بأن مجدي ليس بأهمّية شباب السيّدة زينب، وإلا لكان رحّب به المذيع، رغم أن بوّاب الملهى رحّب به أشد التّرحيب وسار معه إلى الدّاخل وهو يناديه بالبيه وبالباشا ويردّد «نوّرت». لا.. لا يمكن أن يكون مجدي بأهميّة شباب السيّدة زينب فهو ليس بالمهندس أو بالطّبيب.. إنما ضارب على الآلة الكاتبة في شركة صغيرة.. لكن السّاقي يحوم حول مجدي، يأخذ منه ورقة صغيرة ويسرع باتّجاه مجموعة من السّاهرين دخلت الصّالة. ثمّ تطلّ راقصة أخرى.

كان من الممكن أن تجعله ينسى الرّاقصة لواحظ لو أنّها لم تكن تفتقر إلى بشاشة الوجه، رغم جسمها الجميل، إلاّ أن هشام لاحظ حركاتها العصبيّة، وكذلك فعل البقيّة إذ نادى أحد السّاهرين: «هو واجب وللاّ إيه، ابتسامة لروح النبي».

عاد مقدّم السّهرة يرحّب بالمجموعة الّتي وفدت لتوّها، يطمئنهم أنّ السّهرة لم تزل في أوّلها وأنّهم بقدومهم قد أضفوا على الجوّ الفلّ والرياحين ثمّ مهّد للرّاقصة الّتي سوف تحتلّ بعد وقت قصير لقب

www.ibtesama.com

راقصة مصر الأولى، فهي قد أسندت إليها بطولة عشرة أفلام دفعة واحدة وظهرت ورقصت في برامج تلفزيونيّة. ثمّ ترتفع الستارة وتظهر الراقصة وهي تكاد تلتصق بالأرض. تتلوّى على ألحان الموسيقى وكأنّها ثعبان يتلوّى وترفع يدها ثمّ يدها الأخرى ثم صدرها، ترقص وهي منحنية إلى أن رفعت جسمها شيئاً فشيئاً وأصبحت واقفة بين الصّفير والحماس وتصفيق السّاهرين الحارّ. كانت عند حسن أذواقهم، فهي ممتلئة شهوة تقطر حتّى من وجهها. ومن ابتسامتها الواسعة العريضة. تغمز بعينيها، وبحاجبها، وترسل القبلات وتفتح فمها بطريقة تظهر طرف لسانها، ثمّ، وكأنّها لم تعد تماشي الطّبلة ولا النّاي، بل كان همّها أن تتدفّق بحيويّة وتقفز من أوّل المسرح إلى آخره، تدور وجسمها الممتلئ يلبّي قدميها اللّتين وضعتهما في حذاء أحمر منخفض الكعب، وضفيرتها السّميكة التي زيّنتها بالورد تطير معها. وإذا بها ترسل إلى هشام قبلة. قبلة أخرى فيبتسم لها هشام لكنّه، وتحت وطأة احمرار وجهه، ينتظر على أحرّ من الجمر ردّة فعل ابتسامته لها. هذا إذا كان فعلاً قد ابتسم لها. يبدو أنّها لم تلحظ ابتسامته لأنها أصبحت ترقص في اتجاه بعيد عن طاولته وابتسامتها العريضة وضحكتها لا تفارقان وجهها.

بقي هشام غائصاً في الوسوسة عمّا إذا كانت الرّاقصة قصدته أم لا إلى أن عاد المذيع يرحّب بالحاضرين الكرام، بشباب السيّدة زينب. بالرّجل والمرأة اللّذين انزويا في زاوية ما وقد اختلط عليه إذا كانا عربيّين أم أجنبيّين، فسألهما قائلاً: أهلاً بالإخوان من.. من.. وهو ينظر إليهما حتّى يسعفاه بإجابة، لكن تردّد الرّجل والمرأة جعل صبر المذيع ينفد ويتركهما، ثمّ، وللمفاجأة الكبرى، ينهي ترحيبه أخيراً

www.ibtesama.com

وليس آخراً بهذه الجملة «مسك ختام التّرحيب عشان يبقى في الأذهان وفي القلوب.. نرحّب بضيف الأستاذ مجدي، الأستاذ هشام.. اللّي هلّ علينا من البلد الشّقيق، البلد الحرّ، نرحّب بالأستاذ مجدي وبأشقائه وجيرانه». لينبض قلب هشام مع كل حرف من اسمه كأنّ أذنه لم تكسب لقبها إلا الآن. جلس فاغراً فمه، مبتسماً، لا يستطيع السيطرة على ملامح وجهه. ولم يكن هذا الترحيب المعلن في الميكرفون، في الصّالة الّتي لم تكن تغصّ بالسّاهرين، سوى بداية الأفراح، إذ عادت الراقصة الممتلئة صحّة وعافية بعد أن بدّلت بذلتها ببذلة أخرى، تلاعب عصا الخيزران على صدرها وتغمز بعينيها وبحاجبها من غير أن تنظر إليه، وهو كمن داهمه داء الحيرة يودّ أن يلفت انتباهها ويفكّر في الوقت نفسه بأنّها ربّما كانت تشاغله وتلاعبه بعدم خصّه بالنّظرات. ولم يستطع كالبقيّة أن يصفق وينادي ويتمايل ويصفّر لها ويناديها بذراعيه المفتوحتين، رغم أن التّوق إليها كان عظيماً، بل بقي في جلسته يحاول السّيطرة على حيرته وخفقان قلبه. وإذا بها تنظر إلى طاولته وكانت تكاد تهوي من خشبة المسرح وتسأل بكلّ دلع: «أزوركم» وهنا أسرع السّاقي يعاونه آخر بدفع الطّاولة، لتقفز عليها ويهبّ الجميع لإبعاد الصّحون والكؤوس عن قدميها رغم مناداة أخي مجدي «باركت الكفتة هي بقت عسل يا عسل». الرّاقصة كلّها.. كلّها على الطّاولة أمامه. وإذا بالرّاقصة تنحني وترمي بطرحة رقصها الشفّافة على رأسه. يضجّ الجميع ويصيح مجدي وباقي الشلّة: إي ده الحظّ يا هشام.. يا أبو الهشاميم».

وهشام غارق في نشوته من جرّاء العطر الّذي عبق من الطّرحة الّتي

www.ibtesama.com

أزاحها ببطء عن رأسه. لقد صدق حدسه، إنها ترغبه أيضاً. ولم يستيقظ من سعادته هذه إلا عندما رأى مجدي وإخوته يتطاولون إلى صدرها، ليضعوا في حمالتها الجنيهات، ومجدي يحثّه لأن يحذو حذوهم، مدّ يده إلى الجنيهات الكثيرة، ولم يهتمّ لأن يعدّها وتركها تتبلّل في عرق كفّه إذ لم يجرؤ على الوقوف ليودعها حمالتها، بل أعطاها لأخي مجدي الّذي وقف يغرزها في حمالتها وهو يشير إلى هشام.. والرّاقصة تضحك وتردّد بدلع لا يماشي ضخامتها الرّشيقة: «أنا أحبّ التنقيط.. مين عايز ينقّطني كمان؟؟» وهي تنظر في وجوههم وتخصّ هشام بنظرة مستغربة هدوءه وخجله الّذي كان يطغى على صخب مرافقيه. وإذا بهشام يمدّ يده من جديد إلى جيب بنطلونه ويرفعها إلى الرّاقصة الّتي تناولتها من يده وقبّلتها ومرّت بها على صدرها بحركة كلّها إثارة قبل أن تحشرها بين نهديها وإذا بحماوة أشعلت كلّ الجفاف الذي يعيش فيه هشام كغيره من الرّجال وإذا به يفكّر بالطفّائتين اللّتين وقفتا عند كلّ جهة من المسرح وكأنهما مستعدّتان لإطفاء القلوب التي تحترق كلّ ليلة.

الرّاقصة تغادر طاولته وتقفز إلى الأرض ومنها إلى الطّاولات الأخرى.. فترقص وتتدلّع والرّجال يقومون بتنقيطها وهم في أشدّ حالات السكر والانتعاش، لكن هشام لم ير كل هذا.. فالسّعادة قد أطبقت عليه وأحكمت بابها. لم ينتبه لماذا طلب منه مجدي عشرين جنيهاً لمقدّم السّهرة، لأنّه رحّب بهم، بل بقي هكذا يفكّر بأنه أخيراً التقى بالمرأة، احتلّ قلبها بكلّ سهولة، تبادلا النّظرات، باحا بشعورهما بصمت.. وهو يستعيد ذكرى إلقاء طرحتها على رأسه الّتي جاء السّاقي في طلبها بعد وقت وأمسكها بلامبالاة تاركاً ذيلها

www.ibtesama.com

يزحف على الأرض، وكذلك قلب هشام الذي قفز فوقها وغاص تحت إبط السّاقي معها ريثما أشعل الأخير سيكارة وأخذ يحادث ساقياً آخر بينما كان هشام يسترسل في أحلامه البعيدة رغم أنّ الرّاقصة مرّت من بين الطّاولات في طريقها إلى الخارج وقد ارتدت معطفاً وأحكمت غطاءً فوق رأسها وأحاطت عينيها بنظارات سوداء كبيرة غطّت بهما نصف وجهها.

ولم ينهض هشام من صدمة اختفاء الرّاقصة إلاّ في اليوم التّالي. بل الأحرى في ليل اليوم التّالي، وعندها رآها تلتصق بخشبة المسرح وتتلوّى كالأفعى. لو لم يكن قد عقد كرافتة أخرى لكان التبس عليه ما إذ كان لايزال في كنف اللّيلة الأولى. المذيع والرّاقصات والسّقاة والموسيقى وكلّ شيء كليلة البارحة حتّى نظرات الرّاقصة إليه كانت كالبارحة نظرات شقيّة، لعوبة، ليس فيها مسحة من الاعتذار لاختفائها البارحة أو الدّهشة لعودته هذه اللّيلة.

جلس على النّار يحترق رغم وعد مجدي له بأن السّاقي سوف يعرّفها به. يحترق والسّاقي يردّد كلّما التقت عيناه بعيني هشام (الّذي لم يَحِدْ بهما عنه قط): «أنا مش ناسيك يا بيه.. مش ناسيك أبداً..».

ولا يعرف هشام من نسيه، الرّاقصة أم السّاقي، لكن في اللّيلة الرّابعة جلس وكأنّه يحرس جوهرة. لم يجعل صخب الموسيقى ولا عبارات السّاقي ولا حتّى تشجيع مجدي يحيد به رفّة عين عن الباب. وكان مجدي قد أصرّ عليه بأن يقوم بتنقيط الرّاقصة بأكثر ممّا كان يغدقه عليها في اللّيالي الماضية. ولم يربط طلب مجدي بتشريفها إلى طاولتهم هذه اللّيلة بل فعل ذلك من أجل أن لا ينعت بالبخل.

www.ibtesama.com

جلست أخيراً إلى جانبه بعد أن رافقها السّاقي الّذي ظلّ واقفاً يردّد أمام هشام «ألف شكر يا بيه.. ألف شكر» بينما كان هشام يحاول السّيطرة على دقّات قلبه، على فمه، يحثّه لينطلق بجملة تأهيل بالرّاقصة الّتي انتظرها أربع ليال وكأنّها أربعة قرون. لكنّه كان يلهث. لأوّل مرّة يجد نفسه أمام امرأة حقيقة ولم يستطع أن ينبس بكلمة واحدة بل ترك الرّاقصة تبتدئ بالحديث، عرّفته باسمها وسألته عن اسمه، وعن مدّة بقائه في القاهرة ثمّ همست له بأنها لم تعتد الجلوس مع الزبائن «لكنّك ضيف وما يصحّش.. واجبنا نتأهّل بيك..» وأخذت تسأله بكلّ اهتمام عمّا إذا كان يقضي وقتاً سعيداً في القاهرة وبأنّ عليه الانتباه من النشّالين، «ماليين البلد». وأخذت تسأله أين يقيم هنا. «لازم بأوتيل عالنّيل، عشان الواحد يرتاح وينبسط ولا تبوظ إجازته». وعندما أجابها بأن مجدي قد استأجر له شقة، لم تعلّق بل سألته أين التقى بمجدي. ولم يبدُ أنّها كانت تسمع عن صداقتهما الّتي توطّدت أثناء عملهما في الشّركة، بل سألته وهي تتأمّل ملابسه وساعته الذّهبيّة إذا كان يحتاج إلى سيارة تأخذه إلى شقته إذ إنَّ سائقها وسيّارتها على استعداد واستفهمت عن العنوان. وما إن نطق به حتّى تثاءبت وقالت: «معلهش المرّة الثّانية أصلي أنا تعبانة وسكّتك غير سكّتي..» لتتثاءب مرّة أخرى وتمدّ يدها إلى رأسها قائلة بأنها تعبة، تعبة للغاية وتمدّ له يدها قائلة كم هي سعيدة لتعرُّفها به، ولتقديره لفنّها، وكم هي ممتنّة له. ثم همست بأذنه بأنّها لم تعتد الجلوس مع الزبائن.. لكن وجهه ذكّرها بوجه أخيها أحمد. ولم تنسَ أن ترمي عليه جملتها الأخيرة قبل أن تنهض وتختفي: «أوعى تنسى أنت بقالك أخت في القاهرة».

www.ibtesama.com

«موسم الزواج»

كانت ألماظة تكدح طوال السّنين من أجل يومين ونصف. تكبّ بكلّ نشاط على زرع القصب ثم تقشّشه سلالاً من غير توقّف إلاّ لتنظر إلى وجهها من وقت لآخر في إبريق الصّفيح الّذي كان يلازمها ويؤدّي لها شتّى الخدمات من الوضوء إلى حلب الماشية إلى سقي التّنكات المزروعة.

كانت تهمس لصورتها كلّما واجهتها في صفيح الإبريق «الفرج القريب». كان الفرج هو اقتراب «موسم الزّواج» الّذي كانت تحضّر له ألماظة كلّ خزانتها، وكلّ مالها، فيتقلّص تعبها ويتبخّر، تاركاً يديها منقوعتين بالزّيت والطّين، وشعرها بماء الورد والغسول، وجسمها كلّه بين يدي الحكّاكة في الحمّام ثم مسترخياً أمام مزخرفة الحنّاء حتّى تنقش لها الرّسوم الجميلة. كانت تنفق كلّ ما تدّخره في بحر السّنة على ملابسها، من القبّعة القشّ إلى قماشة الرأس والمجوهرات الفضّية المشكوكة عند الأذنين وحول الرأس والجيد والمعصمين إلى المناديل والجلباب الجديد. لم تكن تنسى البخور فتتعطّر به لدرجة أنّه كان يفوح حتّى من أهدابها.

وهكذا.. كانت تنطلق ألماظة في هذه المراسم الّتي أتقنتها بغريزتها قبل أن تقصد «موسم الزواج» من غير تردّد أو خوف من الفشل رغم أنها دأبت على العودة منه كما كانت تقصده «عازبة»

www.ibtesama.com

عكس الأخريات اللّواتي كنّ يقصدنه معها سواء من قريتها أو من القرى المجاورة فيعدن ظافرات بورقة عقد القران، فرحات للعرس الّذي سوف يقام لهنّ عن قريب. وجدت ألماظة نفسها ككلّ مرّة في هذا الموسم تتجوّل بين الخيام المنصوبة حيث مئات العازبات والعازبين. بل بين بحر من أعين العرسان الثّاقبة الّتي كانت تدرس مليّاً كلّ شابّة مرشّحة للزواج أو تترقّب إطلالة حبيبة القلب حسب الاتّفاق المسبق للقاء هنا حتّى يتمّ الزواج في هذا الموسم الّذي كان يجلب معه الحظ السعيد، عكس الزواج الذي إذا تم بعيداً عن هذا الموسم كان مصيره الافتراق.

ولم يكن ليشارك في هذا الاحتفال من يودّ الزّواج وحسب، بل الكثير من العائلات الّتي كانت تحتفل أيضاً بذكرى أحد أسياد الدّين فتزور المقام وتؤدّي الصّلاة للتبارك وليشعّ الازدهار في أيّامها طوال عام. عدا أن التّسلية واللّهو كانا عظيمين إبّان أيّامه الثّلاثة، إذ كان هذا الموسم يشمل سوقاً تُعرض فيه المُنْتَجات من قمح وشعير ومواشٍ وسكّر.. إلى البضائع والسّلع المستوردة من المدن.

لم تبق ألماظة وحيدة مع العازبات سوى دقائق إذ اختارتها عينا أحدهم لتجد نفسها إلى جانب رجل تسير معه جنباً إلى جنب، تجلس معه جنباً إلى جنب، يدها إلى جانب يده.. ومع ذلك فهما لم يتجها معاً كسواهما من العزّاب والعازبات إلى المصوّر الفوتوغرافي الّذي كان يأخذ الصّور للّذين عزموا على الزّواج من أجل إتمام عقد القران، ولم يتقدّما من خاتم البصمات حتّى يوقّعا على ورقة الزواج. ولم تلفّ ألماظة نفسها بالهندية الصوفية السوداء

www.ibtesama.com

المخطّطة بالخطوط الحمراء والصّفراء الّتي كان من المفروض أن يقدّمها لها رجل المستقبل، بل لتسير مع الجموع في طريق العودة إلى قريتها وحيدة إلى جانب ضحكات الأخريات الظافرات برفيق العمر وإلى جانب صدور العرسان المملوءة بالفخر والجميع يفكّرون في العرس القريب، وهي تفكّر في أن تعمل وتكدح وتحضّر نفسها للموسم القادم. تلقي ألماظة نظرة أخيرة على الخيام المنصوبة الّتي كانت تتهالك، وعلى المحتفلين الّذين كانوا يجمعون حوائجهم استعداداً للرّحيل، وعلى البائعين والبائعات وهم يركّزون بضائعهم الكاسدة فوق الحمير والجمال فتنهمر دموعها وكأنّها فرو أرانب صغيرة بيضاء فوق بشرتها السّمراء وهي تتمتم لإحدى العرائس الّتي كانت تواسيها: «لا بأس الله كريم.. هناك عام آخر وموسم آخر..».

كانت تعرف أنها سوف تردّد هذه الجملة كثيراً ولعدّة أيّام.. لخالتها العجوز الّتي كانت تسكن معها، لعجائز القرية، وللصّبايا.. ولكلّ من سوف يلاحظ غياب الهندية الصوفية عن كتفيها. وكانت تلمّ بتساؤلات الجميع ولو في الخفاء عن سبب كسادها رغم جمالها ورشاقتها وشامة ذقنها وابتسامتها، ومنهم من أيقن أن عينيها لعوبتان والعريس يخاف منهما إذ كانتا تبدوان من شقاوتهما وكأنّهما قفير نحل يعجّ بالحركة وعدم الاكتفاء.. ومنهم من تأكّد بأنّ السّبب هو قدرها المكتوب بعدم الزواج، وهي مازالت في بطن أمّها.. وكان من الممكن أن تقصد ألماظة الموسم سنة بعد أخرى وتشارف أعوامها الثّلاثين، وتعود من غير الهندية الصوفية، بل بغضون إضافية على الجبين، وبهمسات وتمتمات حولها لو لم يلحق بها في

www.ibtesama.com

هذه المرّة الشّاب الّذي ما إن رآها بين مئات العازبات حتّى فرّ قلبه لدرجة أنّه ركض خلفه ليتلقّفه. لكنّ قلبه كان قد تمسّك بعينين لعوبتين زحلقتاه من حركتهما الدّائمة فاستنجد بالشّامة السّوداء عند الذّقن الّتي تلقّفته ورمته في ضحكة تكشفت عن أسنان بيضاء متراصّة كحبّات اللؤلؤ، الشاب الذي سارت معه ألماظة، وتمايلت، وضحكت، وصمتت ووشوشت، ولمست حرارة اليد، ودعت الإبط يقترب منها كذلك الذّراع وكذلك الخصر.. وسمعت وأنصتت.. حفظت الاسم وماذا يعمل صاحبه. رأت الكفّين الأسمرين ولامستهما واشتهت سيكارته المحكمة بين الأصابع السمراء وسألته عن مجّة واحدة، لكنّه قدّم لها سيكارةٍ بكاملها أخذت تنفثها سعيدة. ولم يكن ينظر إليهما أحد، إذ كانت الأعين الأخرى تركّز على من قبالتها، على السلع المعروضة، على البائعين، على المشترين.. على الأطفال، على الحلوى، على الأمّهات وعلى الموسم بأجمعه. أما العزّاب والعازبات فكانوا في كلّ زاوية يطبّقون المثل القائل «كل الأحبّاء اثنين اثنين».. امرأة ورجل يستندان إلى شجرة، إلى وتد خيمة.. يجلسان على صخرة، يتشاوران.. يستفهمان، سعيدان، متّفقان على الشّرط الأهمّ وهو أن يفي بالزّواج ويدع عروسه تزور أهلها مرّة كلّ عام، أو قبل ذلك في حال رضى أمها أو والدها.

يومٌ ونصف وألماظة تتحوّل إلى زهرة جميلة من جرّاء الحمرة الخفيفة الّتي لازمت وجنتيها، ومن الشّذى الذي دأبت على تعطير نفسها به.. تصبح فراشة دائخة من كثرة ما سمعت من الشّاب كلاماً جميلاً.. تصبح نحلة من كثرة ما مصّت من رحيق الالفة.. ومع ذلك عاد اليوم الثالث يمضي، بل لقد مضى وتُركت وحيدة من غير

www.ibtesama.com

الهنديرة ومن غير ورقة زواج، لتسير والدموع تفرّ من عينيها. . لكنّها لم تطو ذكر اليومين والنصف كالعادة بين العمل والتأوّه وصراخ الخالة بأن هناك من يكنّ لابنة أختها شراً إذ لحق بها الشّاب الّذي اختارها وظنّ أنّها اختارته وتبعها خفية إلى قريتها وهو يكاد يطير صوابه من تراجعها في اللحظة التي جرّها فيها من يدها إلى كاتب ورقة الزواج. لم يفهم سبب تصرّفها هذا رغم أنّه لم يتلكّأ في إجابتها «معلش أنا راضي معلش» عندما أخبرته بمرض الدم الذي لابدّ أن يطيح بها يوماً كما أطاح بأمّها من قبل، وبجدّتها وجدّة جدّتها.

يذكر أنّه كلّما بكت أثناء الموسم وشرحت له استحالة زواجهما أكّد لها بأنّه راضٍ وبأنّه يريد الزّواج بها وبأنّه سوف يكون إلى جانبها دائماً. لكنّها لم تصدّق. لم تقتنع، طلبت منه أن يفكّر مليّاً، طلبت أن لا يتصوّر بيتاً يعجّ بالأطفال، بل غرفة انتظار عند أطبّاء المدن، بعد سفر مضنٍ بين الجبال الوعرة. طلبت منه أن يتصوّر نقوده تدفع للطّبيب، انقصاف عمرها وتركه مع رضيع أو من غير ولد يرثه، ومع ذلك لم ترتبك عيناه، أو يرتجف شريان عقله، بل أكّد لها وفاءه وهو يمسك بيدها ويدنيها إلى صدره. وكانت كلّما تشبّث بها أجهشت بالبكاء إلى أن أخبرته بالحقيقة وهي أنها لا تنتظر المرض بل هي فعلاً مريضة، ولم تجفل عيناه حتّى هذه المرّة ولم تتلاحق أنفاسه، ولم يرتبك لسانه بل ردّد كلاماً كان أقرب إلى الصّياح وهو يطمئنها إلى سلامة نيّته حتّى أيقنت أنّه لم يكن يستمع إليها. هدأت من روعها وأخذت تحاول أن تجعله يستوعب ما تقوله وما تعني حقيقة مرضها هذه، لكنّه كان معلّقاً في عينيها يراهما لعوبتين، حنونتين، صادقتين، جميلتين. وما إن مسحت دموعها ورأى عينيها نصف

www.ibtesama.com

مغمضتين حتّى أيقن أنّه لا يستطيع إلا أن يكون بجانبها؛ ومضى في إقناعها ومضت في صدّه وكلّها إيمان بأن ما تفعله الآن هو رأفة به.. لكنّه سألها حانقاً لماذا بادلته هي نظراته، حركاته إذا كانت لا تستطيع الزّواج.. لماذا دعته يمسك بيدها؟ ألم تكن تعرف أنّ مسك الأيدي معناه القبول.. وحجب الأيدي هو الرفض.. ولو أنّها حجبت يدها عنه لكان مضى إلى يد أخرى. أخذ يستجوبها بإصرار وألماظة تقذف دموعاً كالأنهار وتخبره سرّ تجاوبها معه. لقد لسعها الحبّ وكأنّه شمس صبّت نفسها فوقها وهي في العراء.. ولم تستطع الهرب منها، بل تركت نفسها بين حرارتها تدخل في غيبوبة وتخرج من أخرى.. إلى أن أيقظتها كلماته وهي تهدر بشروط الزّواج.. فهربت منه.

عندما رأته يدخل بيتها ارتبكت واختبأت خلف خالتها العجوز تقرصها حتّى تساندها في كذبها، لكن خالتها شتمتها قائلة: «أنت برغوت.. وقملة تحت الابطين..» وقبل أن تحاول ألماظة مرّة أخرى مع خالتها وقف الشّاب في وسط الدّار أخذ ينادي بأنّه أتى حتّى يتزوّج من ألماظة وبأن الأمراض يضعها الله في الانسان ويرفعها عنه متى شاء، وبأنّه سوف يأخذها إلى المدن وينفق كلّ ما ادّخره على صحّتها.. وكانت ألماظة في هذه الأثناء قد تمالكت نفسها بسرعة وتسلّحت بأوائل دفاعها وعلى رأسها الحضور الذهني وأخذت تشاغله بتفاصيل كانت تعرف في قرارة نفسها أنّها خالية من الأهمّيّة فتسأله من أين تأتي له بثمن وثيقة الزواج والصور الفوتوغرافية وكل ما تكبّده من مصاريف إذا ما فتك بها المرض وطرحها في الفراش؟، لكنّها لم تكن قد استعدت لردّة فعله، لفكه الحزام الّذي كان يعتمره

www.ibtesama.com

وهو يفرغ من جيوبه الكثير من النّقود القديمة والجديدة ويطرحها على الأرض وكأنّها بذور ينثرها للدّجاج: «كلّ هذا مهرك الآن وأكثر، إذا انفصلنا أصبحت كلّها لك».

وإذا بألماظة تبكي.. تأخذ وجهها بين يديها وتبكي.. تهزّ رأسها وتبكي.. غير مبالية بخالتها الّتي نهضت من جلستها على الأرض وأخذت تحبو على ركبتيها لتجمع الأوراق النّقدية ببطء أشبه بالسّلحفاة من غير أن تتوقّف عن التّرديد: «حرام. المال على الأرض فأل سيّئ.. إنّه الكفر بالنّعمة». عندها أخذ الشّاب يحدث الخالة، يخبرها أنّه نوى الزّواج من ألماظة غير مبالٍ بمرضها. لكن الخالة أصرّت أن ألماظة عبارة عن براغيث وقمل تحت الإبطين، وأنّها ابنة أخت قاسية وأن الله قد كتب لها عدم الزّواج لأنّها لا تستاهل الخير». انصرف الشّاب عن الخالة رغم أنّ عينيه لم تفارقاها وهي تجمع النّقود في تنّورتها وكأنّها تجمع الثمار، وانصرف إلى ألماظة يقول لها إنّه عقد نيّته للزواج منها ولن يتراجع، وألماظة صامتة تفكّر بخيبة أمل في ما يحدث لها.. نظرها يرنو بعيداً عنه. كانت قد توقّعت أن يحدث كلّ شيء في موسم الزّواج ما عدا هذا.. فهو لم يهرب كالآخرين، لم تعلُ الحمرة أو الاصفرار وجهه لحظة إخبارها إيّاه بمرضها.. لم يتلعثم، لم يهزّ رأسه أسفاً، بل أصرّ على الزّواج منها وكأنّها باعترافها هذا قد فتحت له ذراعيها وأرته دماء تجري في شرايين أبديّة لا تنبض ولا تعد بغير الحياة الجميلة المكلّلة بالعطاء والأولاد.. وكأنّها أرته برفضها جسماً معافىً إلى الأبد و.. و..

يسألها الردّ بالموافقة، لكن ألماظة تكتفي بالصّمت والتّحديق بالقشّ المرصوص في أنحاء الغرفة وكأنّها تودّ أن تصوّر له أنّ مرضها

www.ibtesama.com

يناديها، لكنّها كانت خائفة من أن ينفد صبرها وتدلق له الحقيقة وتفضح نفسها صائحة: بأن قلبه دليله فهي ليست مريضة.. ولا ينتظرها المرض. بل إنّها قرّرت عدم الزّواج منذ سنوات طويلة، منذ أن اكتشفت أنّ الزّواج يغطس الخفقان واللّهفة والخصوصية بماء بارد، يغلّف الحبّ بالجليد، فتصبح الحبيبة المشتهاة رفيقة الدّرب تمهّد الطّريق الوعرة.. تصبح بقرة بثدييها وهما يتفجّران بالحليب المتدفّق لوليدها. تصبح يدين تدعكان الشراشف، تحضّران الفراش للنوم لا للخلوة المتواصلة بل للموت المؤقّت، للشّخير المتصاعد بسبب انتفاخ بطن الزّوج بعد الأكل والشّبع وموت شعيرات حاسّة الشمّ بعد أن توقّفت عن اشتمام المرأة.

إنّها تذكر اللّيلة التّالية لخلوتها مع قريبها في الخيمة بعد أن تكبّدت مشقّة الوصول إليه سيراً طوال ثلاثة أيّام، إذ كان المفروض أن تتناوب وأمّها على ركوب الحمار، لكن قبول أمّها للسّفر الشّاق رغم ضعف بنيتها جعل ألماظة تصرّ على أمّها أن تظلّ راكبة، وكيف أنّه بعد أن اطمأنّ حبيبها لنوم الجميع في خيامهم لم يُقْبِلْ عليها كما في اللّيلة الأولى، لم تصلها خفقات قلبه قبل أن تصلها يده. لم يضرب أنفه بقبضة يده كما فعل في اللّيلة الأولى عندما رأى نهديها لايزالان في جسمها لا في فمه إلى الأبد كما أصرّ في اللّيلة الثّانية، بل اكتفى بمرغ رأسه بينهما قليلاً ليرفع رأسه ويسألها شيئاً بعيداً عن الخلوة.. وعنها.

تجبر ألماظة نفسها على الانسلاخ عن صور الخيمة، على فكّ نفسها من أسر رائحة أنفاس حبيبها قريبها، لتدخل من جديد الأيّام الّتي كانت تلي زواج قريباتها وجاراتها.. فتُصدم لنظراتهنّ الّتي

www.ibtesama.com

كانت تبدو وكأنّ أحداً رشف رغوة المشروب وترك السائل راكداً. ساكناً من غير روح. تُصدم للأعين الفارغة الّتي لم تعد تلتمع إلاّ لرؤية جهاز عرسهنّ إذ كان يذكّرهنّ بأيّام الخطوبة والترقّب لهذه الصّفحة الجديدة اللّذيذة المجهولة وهنّ يقمن بتطريز الألوان وحياكتها وكيف أنّ هذه الرؤية ماتت أيضاً ما إن بهتت ألوان الجهاز ونأت الأعين تحت أثقال هموم البيت والأولاد. الشّاب يتدخّل ويسحبها من هذه الغيوم السّوداء، من عنادها، يطلب إليها القبول. لربّما عليها القبول. لربّما هو رجلٌ غير الرّجال لربّما عليها القبول. لقد لحق بها إلى هنا وها هو يحاول أن يقنعها. رغم أنّه يقنعها بصوت عال، ينادي بأنّه سيتزوّج منها ولو أجبرت على ذلك. إذ أوصلته إلى نصف البئر ثمّ قطعت الحبل به. كأنّ القهر منها أخذ يعادل انجذابه إليها. لقد نوى ولن يتراجع، صوته يعلو سائلاً خالتها الّتي لا تزال تملّس النّقود وكأنّها أوراق التّبغ، أن تساعده في إجبار ألماظة على الزّواج منه. فهو يريد أن يعلّمها درساً حتّى لا تلعب بالنّار. تلعب بالنّار؟ لا، بل كانت تترقّب حلول الموسم وهي تحضّر كيانها كلّه من أجل الخصوصيّة والخلوة مع رجل مجهول طوال يومين ونصف لتبقى معها الصّور والذّكريات لمدّة عام كامل تلازمها كمؤونة الشّتاء، تستحضرها متى شاءت. أينما شاءت. تسترجع الدفء واللّهفة كأنّها نسمة تحمل عطراً يخدّرها. تسترجع الملامسة والهمس والنّظر في العينين والرّقص والكتف تحنو على الكتف انسجاماً مع الموسيقى وتسترجع موسيقى الأكل والضّجيج والحلوى المُشتراة وفوق كلّ شيء عيون الرّجال المتلهّفة، وهم خلفها لا يفكّرون إلاّ بالمرأة، يصبّون حياتهم في

www.ibtesama.com

عينيها، في نهديها، في وسطها وفي رِدْفَيْها، وهي لم تكن تحبّ سوى ذلك. لم تكن تحبّ سوى ملامح الوجوه وعصب الأيدي.. لا ما خلفها من طباع وحقيقة ومشقّة... إذ هذه كلّها كانت كالمعدن الصّلب الّذي يتلقّف شرارة الصواعق ويخمدها.

www.ibtesama.com

عندما تركت الحياة حياتها

تمنّت سمر لو تكون وحيدة منذ أن تركا فندقهما ودخلا خليّة النّحل. ولو كانت صادقة مع نفسها لاعترفت بأنّها تمنّت ذلك منذ أن حطّت بهما الطّائرة هنا. منذ أن باشرا بالسّير وكأنّهما في عمليّة دفاع عن النّفس؛ إذ كلّما ضاقت الطّرق ازدادت كثافة المّارة، وعاقت البغال عمليّة السّير بسهولة. غالبهما الظنّ في البدء أنّهما إذا حادا قليلاً مرّت البغال تماماً كما يفعل بقيّة المارّة فيحشرون البغال أو يتحايلون على الزّحام والطّرق ويمرّون كالرّيشة. لكنّهما وجدا أنفسهما يهربان من طريقها ويعتليان عتبة الدّكاكين المحشورة عند جانبي الطّريق، لدرجة الاحتماء بداخلها أحياناً. إذ كانت البغال محملة بتلال من المفروشات والنفايات والبضائع والخُضَر حتى مواد البناء.. يعلّق زوج سمر، الّذي كان يحمل كتاباً سياحياً في جيبه، بأنّ البغال تحلّ محلّ السيّارات في هذه المدينة القديمة وأنّها كبقيّة موظّفي البلدية تحمل أسماءً وأرقاماً وتتقاضى راتباً شهريّاً من أجل خدماتها في نقل الماء والنّفايات.

تخفي سمر تأفّفها لجملته هذه لتفرح بها بعد قليل.

كلّما توغّلا في هذه الطّرق الضيّقة المتشعّبة، أدّت بهما إلى متاهات متعرّجة حجبت عنهما النّور من جرّاء كثافة الأبنية الّتي كانت

www.ibtesama.com

رؤوسها تلتقي في الفضاء، وإذا لم تلتق مدّت بينهما حصائد من الحشيش والقشّ المتشابك.

ولم يكن هناك شيءٌ لافتٌ للنظر في هذه الأسواق سوى الزّحام والضّجيج والنّعال الّتي كانت معظمها نسائيّة مزخرفة، متعدّدة الألوان تذكّر بألف ليلة وليلة سواء كانت معروضة، أو في السّلال والصّناديق آتية من المعامل أو بين أيدي الشّارين والشّاريات وكأنها اللّباس الوحيد المهمّ.

كانت النيّة زيارة الجامع الأثري المشهور. لكن الزحام وتداخل المارّة عاقا زوجها عن درس الخريطة جيّداً رغم عدم استحسان سمر فكرته هذه. وما إن عبرا قوسُ المدينة ووجدا أنفسهما بين آلاف خلايا النّحل البشريّة في حركة وتكاثر مستمرّين حتى اقترحت سمر أن يلبّيا طلب أحد الشبّان والأولاد الّذين كانوا قد التفّوا حولهما يعرضون عليهما خدماتهم السّياحيّة بكلمات إيطاليّة، فرنسيّة، انكليزيّة. لكنّ زوجها رفض رفضاً قاطعاً وكأنّها باقتراحها هذا قد أهانت ذكاءه ونباهته في تدبير أمرهما.

يسيران من جديد في قلب خليّة النّحل الّتي كانت تموج بالزّحام وكأنّها تعتاش على حركة الإنسان والدّواب والأشياء. أخذ الضّيق يبدو واضحاً على وجه زوج سمر حتّى كأنّه فقد روح المغامرة الّتي بدأ بها تجوالهما. بدا الخوف على وجهه؛ الشّعور بالاختناق، بعكس سمر الّتي بَدَتْ وكأنّها ضغطت على زرّ في عقلها أعادها إلى الماضي وهي صغيرة فوجدت نفسها تستمتع بهذه الطّرق الضيّقة والضّجيج والفوضى كما كانت في الطفّولة وهي تصحب جدّتها إلى

www.ibtesama.com

الأسواق. زوجها يلتصق بها الآن، يحاول التحدّث إليها بالعربيّة. كان يريد أن يخفي عينيه الملوّنتين وشعره الأملس، الفاتح اللّون، الّذي وقف نشازاً بين الرّؤوس المجعّدة الشّعر. يردّد بأنّه يشعر بالاختناق من هذه الطّرق الضّيقة، من سيل الشّباب والأطفال الّذين مازالوا يلحقون بهما. وإذا بها تستدير وتتحدّث إلى من حولهما بالعربيّة، تمازحهم وهم يلحّون على معرفة بلدها العربي وما إذا كان هذا الأجنبي هو زوجها. وعندما نفت أنّه أجنبي تحدّوها أن يتحدّث إليهم بالعربيّة، وهي تشاكسهم بضحكات وابتسامات. ولم يبتعدوا عنهما رغم ضغط المارّة والبغال ورغم محاولة زوجها إيقافها عن السّير مع الشلّة منتقداً تدخّلهم بهما، مؤكّداً بأن الجامع على بضعة أمتار وهو يدلّها على موقعه في الخريطة. وسمر تحاول أن تجعله يرى الطرافة والبراءة خلف تصرّفهم هذا بدلاً من دافعهم المادّي كما يتوجّس. وعندما أراد مراهنتها بأنّهم سوف ينتظرون أجراً لقاء اصطحابهما إلى الجامع أجابته ببساطة: «ولِمَ لا.. على كلّ حال أجر زهيد...».

لم يكن اهتمام الشلّة بهما، وكانت عبارة عن ثلاثة شبّان، كما تصوّره زوج سمر. إذ بعد خروجهم جميعاً من الجامع رفضوا رفضاً قاطعاً أن يتناولوا من سمر المال الّذي مدّت به يدها. حتّى عندما زادت من الأوراق النقديّة خوفاً من أن يكون المبلغ ضئيلاً. حتّى عندما أصرّت على زوجها أن يدفع لهم. ولم يتفرّقوا عنهما بل دعوهما إلى مقهى عند مدخل المدينة القديمة لتناول كوبٍ من الشّاي بالنّعناع.

عندما جلسوا جميعاً، غابت فجأة معاكسة الشبّان لها ومزاحهم،

www.ibtesama.com

وانقلبت إلى جلسة تخيّم عليها الجدّية. إنّهم يتحدّثون العربيّة والفرنسيّة الرّكيكة عن مستقبلهم القاتم، عن اليأس الّذي يدبّ بالّذين مازالوا في طور الدراسة إذ لم تكن فرص العمل متوفّرة حتّى بعد التخرّج الجامعي ونيل الشّهادات. ثم عن فرص العمل في الخارج، عن الدراسة والتخصّص هناك، عن الآلات الكهربائية عن الكومبيوتر...

وإذا بأسارير زوج سمر ترتاح لدرجة أنّه أخذ يحيطهم بكل انتباهه واهتمامه، يستفهم ويعلّق ويقدّم لهم نصائحه، بينما تفكّر سمر بأن أسنانهم.. كانت في حالة سيّئة للغاية، لدرجة أنّهم كانوا يرفعون أياديهم إلى أفواههم يخبّئونها كلّما ضحكوا. لكنّها عادت فبدّلت رأيها إزاء حركتهم هذه فلابدّ أنّها كانت تخفي خجلهم وعدم ثقتهم بأنفسهم أمام الغرباء.. وعجبت لإلمامها بأيّ حركة أو نظرة تصدر عنهم، وفضحها مكرهم إذ كانت براءتهم واضحة.. كأن هذه السّنوات التي قضتها في أوروبّا لم تؤثّر على ما اكتسبته سواء بالوعي أو اللاّوعي من هذه الخصال الّتي خلقت معها.

اكتشفت وسع عاطفتها لجانبها العربي وحنينها إلى اللّغة والحياة وهي تتابع إرشادات المضيف بالعربيّة وتأخذ في قراءة ما يرافق لائحة طعام الطائرة، وإذا بجملة كيس ملح وكيس بهار، مياه معدنيّة، منديل معطّر، تدخل إلى قلبها الحنين والبهجة. ولم تتراجع عن حنينها عندما أراد رجل الجمارك التّحقيق معها لأنها تحمل اسماً عربيّاً ومولداً عربيّاً وتتحدّث العربيّة بطلاقة رغم أنّها كانت تحمل جواز سفر أوروبيّاً، بل وجدت هذا الأمر مسلّياً نظراً لسذاجته رغم ضيق زوجها وأجوبته لرجل الجمرك الّتي اتسمت باللؤم.

www.ibtesama.com

يتجرّأ أحد شباب الشلّة، وكان اسمه مصطفى، ويسألها إذا كانا قد أنجبا الأطفال؟ وعند إجابتها بالنّفي تظهر علامات التأسُّف على الوجوه يخالطها شعور آخر حزرته سمر من كيفية النّظرات الّتي تبادلتها الشلّة، ولذلك علّقت سمر بأنّهما يفكّران جدّياً بالموضوع وبأنّها تفكّر بالاستقالة من عملها وكانت تريد أن تفهمهم أن علاقتها بزوجها قوية، وبأن مزاحها وضحكها المتواصلين معهم ومن دونهم لا يعنيان أنّها زوجة مستهترة أو أنّها أمرأة سهلة. فهي منذ أن صعدت الطّائرة إلى هذه المدينة التي لا تزال تعيش كما منذ آلاف السّنين، وحطت بها وهي سعيدة، مهتاجة الحواس، سريعة الأسئلة، عديمة التّركيز، مفتوحة الصّدر والصّبر، متدفّقة بالحيويّة والنّشاط. لم يكن هذا الشّعور ينبع من كونها في إجازة بعيداً عن الغيوم وواقع الحياة الأوروبي المنظّم، فقد قضت عدّة إجازات في أماكن مشمسة، بين البحور والجبال لتستسلم لهدوء داخلي أشبه بالاستسلام للكسل والضّجر، للنّوم وللأكل. لم تصبح كما الآن، كذبابة تطير وتحطّ وتطنّ على كلّ جامد ومتحرّك. تفهم اهتمام شلّة الشّباب بها ووضعها في حالة طمأنينة بأنّها ليست غريبة تتخبّط كالسائحين في الدروب والأماكن وتدخلها، ومع ذلك يبقى كلّ شيء منحجباً عنها، مختبئاً كأنّه في صندوق، العكس حصل، في حضورهم، فتحت المدينة أبوابها وتركتها مشرّعة، تنير لها دهاليزها وتغدق عليها مكنوناتها، فتتعرّف سمر حتى إلى حامل مفتاح الجامع وترى أين يخبّئه. عدا أن اهتمامهم الشديد بها وضعها في حالة سعادة بأنّها لاتزال تجذب إليها الرّجال والشّباب، رغم أنّها قاربت الخامسة والثّلاثين إذ إنّ جذب الجنس الآخر في أوروبّا هو عمليّة جدّية صعبة لأنها تصبّ في مبادلة

www.ibtesama.com

الحبّ الجنسي في أغلب الأحيان. حزرت أيضاً أنّ انجذاب الشلّة إليها لم يكن كلّه لمغازلتها مغازلة بريئة تماماً كالمراهقين، إذ بَدَوْا وكأنّهم لم يتخطّوا هذه المرحلة رغم أعمارهم الّتي كانت تتراوح بين العشرين والخامسة والعشرين، بل لأنّهم وجدوا فيها وفي زوجها درباً برّاقاً يوصلهم لنقطة التقاء بالعالم الخارجي الّذي يسمعون ويقرأون عنه، كأنّها وزوجها أشبه بضوء غريب حطّ فجأة على هذا المكان الّذي يبدو وكأن الكرة الأرضيّة قد نسيت أن تحسبه منها فبقي على حاله، يعيش في شبه عتمة، في شبه ركود منتظراً بتشوّق دائم الزائر الّذي لا يرى ما خلف هذه الحيويّة المتدفّقة من المكان، لذلك لم تمانع في أن تستمع إلى قصصهم وأخبارهم وأن يسألوها لماذا تزوّجت من أجنبي مع أن شباب العرب لابدّ أن يكونوا قد رموا بشباكهم فوقها.

وكان هذا السؤال قد غمرها بشيء من العاطفة تجاههم. فقد طالما أساءت الظنّ في شباب العرب عامة حتّى دون خوضها لأيّة تجربة مع أحدهم تؤكّد لها هذا الظنّ. وهاهم يسألونها كالندّ للندّ.. ما يخطر على بالهم من استفهامات من غير مداراة لزوجها، حتّى إنّ السؤال الأخير وجّه إليها باللّغة العربيّة..

«لماذا تزوّجت من أجنبي؟ لأني أحببته»، تجيب باختصار وهي تأخذ كوب الشّاي بالنعناع والسكّر زيادة لتنتقل بالحديث إلى العموميّات وتترك الحديث لزوجها الّذي أخذ ينظر إليها بشيء من العتب لأنّها توقّفت إلى حدّ ما عن القيام بترجمة ما كان يفوته.

وصل حبّ سمر في سنّ المراهقة لكل ما يصدّره الغرب من لغة

www.ibtesama.com

وموضة وأزياء ومأكولات وموسيقى وأفلام وأدوية وأسماء ومجلّات وأشياء أخرى لا حصر لها، أحبّت المغنّين الأجانب ثم الممثّلين، حتّى لقد توهّمت بأنّها تحبّ جارهم الفرنسي الّذي كان يكبرها بعشرين عاماً، إذ كانت ابتسامته تذكّرها بالمغنّي إيف مونتان، فدأبت على انتظاره عند مدخل البناية الّتي كان يقيم فيها حتّى تسمع جملته بالفرنسيّة Bonjour ma petite fille . . أو Bonsoir ma petite fille .

ولم يختف إعجابها بكلّ ما يصدره الغرب حتّى بعد سنّ المراهقة بل ازداد، وأخذت تفضّل التعرّف بالشبّان الأجانب والخروج معهم مستأنسة باختلاف طريقة كلامهم وطريقة غزلهم الّتي تبدو وكأنّها تتمّة للممثّلين، عدا عن أنّ الاهتمام الّذي كانت تستمدّه منهم كان عظيماً. فهي كانت بالنّسبة لهم كالعصفور «الاكزوتيك»، وهذا ما حدث مع زوجها الّذي كان يدرّس اللغة الأجنبيّة في الكليّة قبالة منزلها ولاحقته ولفتت نظره وتزوّجته وتركت بلدها إلى بلاده وهي في أوج السّعادة لأن حلمها قد تحقّق.

وانخرطت في الحياة الأوروبيّة في كلّ شيء، حتّى في أثاث الشقّة، رغم أن زوجها كان قد جمع على مدى سنوات إقامته في بيروت بعض القطع من الأثاث الشرقيّ من صدرٍ نحاسٍ وطاولة مشغولة بالصّدف إلى بساط مزركش. لكن سمر تركتها ملفوفة في صناديق الكرتون مبعدة إلحاحه على أن تخرجها إلى النّور بجملة واحدة. . «تذكّرني ببيت ستّي وجدّي». . ولم تكن تندمج معه في سماع الموسيقى العربيّة الّتي أصبح خبيراً بها. ولم تهتم قطّ للاطّلاع على الكتب، وخاصّة حول فنّ المعمار بالبلاد العربيّة بل كانت تضحك لاهتمامه الشّديد سائلة إياه: «من العربي؟ أنت أم أنا؟».

www.ibtesama.com

لكنّها كانت عربيّة لا في لكنتها فقط بل في حركاتها، في الشّهقة وفي صراخها بالعربيّة «يا ماما» كلّما شعرت بالخوف من شيء، أو تأخّرت عن موعد، أو نسيت الطّعام فوق النار. في لمّها لكسرة خبز عن الأرض وتقبيلها ورفعها لملامسة جبينها احتراماً.

لكن الحنين إلى أصلها العربي عاد يلحق بها بعد سنوات وهي في أوروبا ويعيدها إلى حظيرته، يتسلّل إليها بكلّ هدوء. ابتدأ كالنّسيم الّذي كان يلفح وجهها وهي متمدّدة في إحدى الجنائن، مغمضة العينين تحاول أن تتلقّى الشّمس بأسرع فرصة، قبل أن تبدّل الشّمس رأيها وتنحجب لتعود إلى بلادها الشرق. وما إن فتحت عينيها قليلاً ولامست ازرقاق السّماء حتّى خيّل لها أنّها سمعت صخب الأمواج. وإذا بها تنتفض وتهبّ واقفة. التبس عليها الأمر لثوانٍ خيّل إليها فيها أنّها عند شاطئ البحر في مدينتها تتلقّى حماماً شمسيّاً حتى تصبح برونزيّة ويُعجب بها الشباب.

ثم عاد الحنين إليها مرّة أخرى في صوت «ربابة» كان يعزف عليها رجلٌ تركيّ قرب مكتبها. ولكنّها لم تجد نفسها تفكّر أن تقوم بخطوة من أجل هذا الحنين إلا عندما جلست مبهورة تشاهد فيلماً تلفزيونياً عن اليمن، تقدّمه صحافيّة أوروبيّة كانت قد قصدته مسحورة بعد أن رأت صورة عنه في إحدى المجلّات. ولم تقتصر مشاهدة سمر لهذا الفيلم على الإعجاب بجماله، بجباله الوعرة، وبعاداته، بل لقد فتح أبواباً مغلقة لديها كان قد اكتنفها الصدأ وبيوت العناكب، وإذا بها تعود بالذّكرى وبالعاطفة إلى بلدها وتقارن منطقة به شبيهة بما تراه.

هذا الشعور جعلها تكتشف سرّ هوسها في المرّة الأخيرة، ببلاد

www.ibtesama.com

كالنيبال وبوتان وكشمير وكانت قد ظنّته ردّة فعل لصقيع أوروبا. وواقعها الترتيبي المنظّم والحياة التي لا تتبدّل فيها. بينما تاه عنها السّبب الحقيقيّ وهو أنّها أخذت تهتم بلبّ الأشياء وتغدق الوقت عليها والتفكير فيها منذ أن أخذت تعيش في أوروبا وتسأل عن بلادها وأخبار ذلك العالم وهي تبدّل الموضوع بكلّ حنكة لجهلها. إلى أن أخذت سمر منذ أن زرعت فيها البزرة العربيّة تقرأ الكتب الأجنبيّة عن تاريخ المنطقة لأن الكتب العربيّة الّتي كانت تجدها في المكتبة العربيّة الوحيدة في المدينة الأوروبيّة كانت لا معنى لها: تتحدّث عن تفسير الأحلام أو عن مواعظ ونصائح للتلميذة الجامعية في البلاد العربيّة. وأخذت تطلب الكتب من بلدها وتزور قسم الآثار الخاصّ بالمنطقة في المتحف، وتدمن على سماع الموسيقى العربيّة وتكتشف الأصيلة منها بفضل اختيار الموسيقيّين الغربيّين لها.

رحّب زوجها بعودتها هذه، فهو قد انجذب إليها لكونها عربيّة أوّلاً وآخراً. أحبّ لفظ اسمها ومعناه، وقع كلامها، لون بشرتها الخاصّ الّذي، بناء على قوله، يدلّ على وجود الانسان حقيقة منذ آلاف السّنين، وكأنّه ولد من الطّين وتلوّن بالشّمس.

يسألها زوجها أن يعودا إلى الفندق بعد أن قيل له إن احتساء الشّاي على شرفة الفندق في ساعة الغروب هو من ألطف الأوقات. لكنّ سمر كانت لاتزال تدور كالبلبل الخشبيّ سواء بأفكارها أو بأعينها.. أعين لا اثنتان. لم تشعر بحيويّة وتدفّق مثل هذين منذ أعوام. كانت ترجع كسلها إلى انخفاض ضغطها الدائم والآن تكتشف أنّ السّبب كان اختفاء الحماس من حياتها.

www.ibtesama.com

عادت مع زوجها إلى الفندق مكرهة بعد أن انتشلت نفسها كسمكة من الماء، من المقهى الّذي كان قبالة الحمّام وهي تستمع إلى الشلّة وكأنّها واحدة منهم. وهم يعلّقون على النّساء والصّبايا الدّاخلات والخارجات من الحمّام، ويحكون القصص ولو كان بعضها مفبركاً أو مبالغاً به. كأنّها تحنّ الآن إلى فترة لم تعشها من قبل. لابدّ أن زوجها أراد لها العودة إلى الفندق حتّى يستفرد بها، حتّى يعودا كما كانا من قبل مجيئهما إلى هنا. فلابدّ أنّه أخذ يشعر بأنّ اهتمامها ينصبّ على كلّ شيء إلاّ عليه. لقد توقّفت حتّى عن ترجمة ما كان يدور بينها وبين الشّباب من أحاديث وضحكات.

معنى هذا أنّها تقتلع نفسها من زوجها أيضاً، لتعود إليه ما إن تغادر هنا. معناه أنّ هناك ثغرة في علاقتها به لم تتعثّر وتقع فيها إلاّ هنا. حاولت أن تقذف بهذا الشعور الجديد في زاوية ما في عقلها. تحاور نفسها من جديد، رافضة أن ينمّ شعورها هذا عن شيء معقّد. بينما الأمر في غاية البساطة تودّ أن تكون وحيدة في هذه الأجواء، بعيدة عن روح الاستشراق الّذي اتّسم به في تجوالهما. فهو رغم تمكّنه من فهم هذه الحضارة وتعمّقه فيها بقي قلبها محميّاً منه تماماً كأنّه تحت جعران الفرعوني محفوظاً من الحياة وحتّى من الموت. ثمّ أخذ الاختلاف الّذي هو بمثابة السّحر الّذي جذبهما وربطهما معاً يتبدّل هنا إلى نفاد صبر وضجر من الشّرح وتبديد سوء الفهم. حاولت زحزحة الحجارة الّتي أخذت تتكوّم أمام سير لحظاتهما بارتياح، خاصة وهما في الجامع الخرافي الجمال. فعندما وطئت عتبته لم تكن تنتظر أن ترى هذه الفتحة

www.ibtesama.com

الشّديدة الاتّساع تطلّ منها السماء الزّرقاء بعد أن عبرت باب الجامع في الطّريق الضّيقة الّتي لم تكن تبشّر إلاّ بوجود كهوف مظلمة لا قطعة من السّماء هبطت في رحاب الجامع بكل ازرقاقها وبياض سحابها وبألوانها الأخرى كأنها فسيفساء تتبدّل بتبدّل موقع الشمس وهبوب الرّيح.

دخلوا فناء يغلي بقوّة الحياة. المتوضّئون حول البركة، يزاحمهم الأطفال على نافورتها، يلعبون بالماء، يبحرون بها مراكبهم الورقيّة. بينما جلست النّساء وكأنّهنّ في زيارة، مستأنسات بقلب هذا الفراغ بعيداً عن عتمة منازلهم. يمضغن اللبان ويقزقزن اللبّ ويشربن الشّاي من الترموس.

تنهمر دموع سمر بكثرة. لماذا كان العرب يُمجّدون الحياة والآن يحاولون الاقتصاص منها؟ كان زوجها يدقّق في الفسيفساء، في عدد الأقواس، في الخطوط، يقارن الفسيفساء القديمة بالمُرَمَّمة الجديدة. يجري مقارنة بين ما يراه وما في قصر الحمراء. كان ما يراه لا يخرج عن نطاق الكمال الفنّي.

«إنّه لا يشعر بما أشعر»، تفكّر سمر، هذا الجامع كان طريقة حياة. لم يُبنَ من أجل التعبّد أو الفنّ الجمالي فقط. إنه يغلي بحياة النّاس الّذين كانوا ولايزالون يشعرون أنّهم جزءٌ منه أو أنّهم يكلمّونه ويكلّمهم.

تكبح سمر نفسَها. لا يمكن أن تقنع نفسها بأن هذا الاختلاف هو الّذي يبعدها عن زوجها، عليها أن تكون أكثر صدقاً. وتعترف بأن وجود زوجها معها كان يعوق انغماسها في هذه المدينة وحيدة،

www.ibtesama.com

وهي تودّ أن تكون وحيدة، تودّ لو أنَّ شلّة الشّباب هذه تأخذها إلى عوالم أخرى حتى تتوه في تعاريج الطّرق والشعور. لذلك فإنَّ عليها أن تخترع الحُجَج وأن لا تظهر له بعد الآن نفاد صبرها وضيقها به.

في اليوم التّالي أقنعته بأن تذهب وحدها مع أحد أفراد الشلّة للتسوّق خوفاً من أنّه إذا اصطحبها ارتفعت الأسعار وكأنّها ميزان حرارة، مصطفى هو الّذي رافقها، وكان هو لولب الشلّة.

تسير سمر وهي تكاد تقفز فرحة... حرّة، وحيدة، تشتري وتتأمّل وتُساوِم وتُفاصل.. تشتري الأشياء الجلديّة بأرخص الأثمان بعد أن اكتشفت ليونة مصطفى في مساومة البائعين. وكان ما تبقى لها هو شراء الحنّاء عندما أخذها مصطفى من منفذ إلى آخر، إلى أن وصلا إلى باحة فيها شجرتان ضخمتان من الجمّيز تظلّلان العربات الواقفة تحتها، سرّت لهذه الفسحة الّتي تكاد تكون نادرة لأنّها في الطّريق العموميّة لا تختبئ خلف الأبواب كالفسح الأخرى. تقبض بيدها ورق الحنّاء المجفّف غير مصدّقة أن مسحوقه الّذي يلفح الشّعر بالاحمرار يأتي من ورقة باهتة الاخضرار كهذه. يصافح مصطفى شاباً كان يشتري زجاجة عصير. انتبهت سمر أنّهما كانا ينظران إليها وهي تشتم الحنّاء. ابتسمت لهما، وسارت تحمل أكياس الأعشاب والحجارة الطينيّة لتقوية الشعر الّتي أصرّ مصطفى على حملها. عرّفها بصديقه جلال الّذي سار معهما باتّجاه بناء يقع عند طرف الفسحة قائلاً من غير أن يستشيرها إنّه مكان أثري وبأنّ جلال يشرف على ترميمه.

تمنّت أن يكون ما يقوله حقيقة، إذ إنّها أخذت هي وزوجها إلى

www.ibtesama.com

عدّة أماكن قيل عنها إنّها محظورة على السائحين وقيد التّرميم ولم يجدا سوى ورشات مظلمة. لكن ما إن دخلت حديقة البناء ورأت القطط تتمطّى كسولة هانئة تحت الشّمس وأشجار البرتقال تحمل الثّمر وكأنّها مصابيح نور حتى تمنّت لو تبقى في الحديقة بدلاً من دخول ورشة مظلمة لا توحي حتى الحجارة المتهدّمة والأوساخ المتكوّمة فوقها بأنَّ البناء سوف يعود إلى ما كان عليه، يحمل الماضي بين ضلوعه حتى يكمل حياته، عدا أن الشّعور بالهجر والاستخفاف بهذه الأماكن الشبيهة بالدّرر كان يدخل إليها الحزن، لا الاستفزاز كما كان يشعر زوجها. فوجئت ببرودة صديق مصطفى، فهو لم يكن كمصطفى أو كبقيّة الشّباب، طيّب الملامح، متفتّحاً، يرحّب بسمر وبزوجها طوال الوقت. كان عديم المبالاة معتداً بنفسه، لدرجة أنّه لم يسألها من أي بلد عربي هي أو استغرب معرفتها للّغة العربيّة عندما حدّثته، بل بقي يلاعب رزمة من المفاتيح وهو يتحدّث مع مصطفى عن شتّى المواضيع متجاهلاً وجود سمر الّتي سألته أخيراً إذا كانت تتطفّل عليه بوجودها. لكنه اكتفى بهزّ رأسه نافياً من غير أن يعلّق. بينما ضحك مصطفى، وعلّق بأنّ جلال يعاني ولا ريب من البكم.

يتقدّم إلى السّلالم الّتي حدست أنّها في ظلام تامّ. فوجدت سمر صعوبة في أن تعتاد على هذه العتمة، ولم تشأ كما في المرّات السّابقة أن تجعل مصطفى يساعدها بأخذ يدها أو طرف كوعها كما حاول أن يفعل أحياناً عن حسن نيّة. لم يتوقّف جلال عن تسلّق السلالم رغم أنّها كانت في شوق لترى غرف هذا القصر. لكنّ جلال أكمل صعوده إلى السّطح مهمهماً بأنّهم سيدخلون الغرف فيما بعد.

www.ibtesama.com

يبدو أنّه اعتاد على هذا الإلحاح من السّائحين إذ عاد يردّد في كلمات تكاد تكون مبهمة أنّ كلّ شيء باقٍ ولن يختفي.

ما إن وصلوا إلى السّطح حتّى تسمّرت سمر بل حلّقت فوق السّقوف الملوّنة لأن قلبها أخذ يضرب كما يضرب عادة وهي تطير في الأحلام.

أصبحت فوق الأبنية الترابيّة والعاديّة، فوق السّقوف ذات القرميد الأخضر الأزرق بلون اللازورد والزّمرّد، فوق القباب البيضاء العالية، فوق رؤوسها النحاسيّة، فوق أبنية كأنّها الحصن، فوق دوائر ملوّنة بلون الفيروز، ولون الخردل، ولون النّبيذ، ولون الكوبياء، بينما الرّجال يعصرون الأقمشة بعد أن يغمسوها بالألوان فوق ساحة التفّ فيها الرّجال بقبّعات جلابيبهم وكأنّهم جنادب في أوضاع مختلفة.. طارت خلف الطرق الضيّقة الّتي بدت وكأنّها أفاعي، فهمت من هذا الارتفاع سرّ مَنْ فكّر ببناء هذه المدينة وطرقها على هذا النّحو. كأنّها ليست للعين لتهنأ، بل لتخبّئ عن قصد متاهاتها. هذه الطرق هي لنساء الماضي الملتفّات بالبراقع.. حتّى يفشخن من عتبة إلى أخرى، ويدخلن من الأبواب العاديّة ويختفين في البيوت الواسعة، بينما الرّجال يتلصّصون عليهم من الدّكاكين والفتحات.

عادت الدّموع تنهمر من عينيها ولم تتوقّف إلاّ عندما نهرت سمر نفسها وذكّرتها بأن العودة إلى الغرب لابدّ آتية بعد يومين.. وأنّها ستعود إلى حياتها عمّا قريب وبأن هذه الزيارة سوف تصبح ذكرى. لكن؟ كيف يمكن أن تترك كل هذا وتعود إلى أوروبا؟ لابدّ أنّها تحت سطوة الخيال، إذ الحياة في هذه المدينة مستحيلة. لكنّها لم تستطع

www.ibtesama.com

أن تتزحزح عن وقوفها بمواجهة المدينة. تدور برأسها وبعينيها وتتنهّد غير آبهة بنفاد صبر كل من مصطفى وصديقه اللّذين توقّفا عن احترام صمتها وعادا يتبادلان الحديث غير آبهين بصمتها وشرودها. يأخذان في الحديث تارة ويغوصان في الوشوشة تارة أخرى، ومع ذلك لم تستطع سمر انتشال نفسها من توديع المدينة إذ كلّما فعلت هذا تشبّثت بها المدينة وأبرزت لها ما غفلت عنه العين من كثرة الألوان والأشكال. ولم تتململ في مكانها إلاّ عندما علا صوت مصطفى يذكّرها بوجوده، لكنّها أبت أن تشعر بالخجل وتهمّ بالمغادرة طائعة رغبة كلّ منهما. إنّها تعرف تماماً بأن الندم سوف يلحق بها لأنّها رضيت في الماضي بأن تفلت منها مشاعر زارتها كليلة القدر من ندرتها. لم ترض سمر بمغادرة السطح بل وجدت نفسها تقترح على مصطفى أن يتركها إذا كان مشغولاً ويعود إليها. وهي تسأل صديقه إذا كان باستطاعتها البقاء. فما كان من صديقه إلاّ أنْ هزّ برأسه موافقاً وقال لمصطفى بأنّه سوف يوصلها إلى فندقها وهو ينظر إلى أكياس مشترياتها. ولدهشتها وافق مصطفى بسرعة، الأمر الّذي جعلها تشعر بأنّه لابدّ أن رونقها قد ذبل في نظره ثمّ ذكّرت نفسها بأنّ لديه حياته أيضاً.

وما إن غادر مصطفى حتّى وجدت نفسها تنفك من ذراعي المدينة الآمنة بسرعة وتودّعها كطفل في سريره بعد أن اطمأنّت عليه.

هبطت السّلالم مع جلال إلى غرفة صغيرة عاديّة الفسيفساء، كلسيّة الأرض، ثمّ انحنت لتدخل كوّة صغيرة في وسط الغرفة، تماماً كما فعل، وإذا بها تفكّر للحظة بأنه لربّما عليها الحذر... فهي لا

www.ibtesama.com

تعرف هذا الرّجل، عدا أنّ الانحناءة وطيّ الجسم حتّى يدخل هذه الكوّة مدّاها بالضّيق، لكن ما إن نفذت منها وانتصبت في الطرف الآخر حتّى شهقت.

لأنّ الحياة تركت حياتها وأتت إلى هنا. ضباب زهري هبط على الأعمدة المرتفعة وسط البهو، على الفسيفساء الّتي دخلت في أشكال هندسيّة مختلفة. المينا المشغولة على الجدران، فوق الثريّات المعلّقة والأواني الزجاجيّة المعروضة في خزائن من المشربيّات الخشبيّة. جلست سمر على كرسيّ وحيد حتّى تستوعب ما تراه، وإذا بالسّكون يلفّها كما لفّ هذا المكان. كان هذا البهو كالكتاب المقدّس الّذي أغلق ولم يفتح بعد. كُوىً صغيرة مشغولة حفظت بها نور الماضي. أغمضت سمر عينيها وتساءلت لماذا أنا في هذه السّعادة وفي هذا الحزن مرّة واحدة؟ لم يكن يعكّر هذا السّكونَ شيءٌ حتّى وقع خطوات جلال الّذي كان يدخل الصّدى فيأكله بدوره إذ لم يكن المكان يريد سوى هذا الضّباب الزّهري أو بقايا شمس الماضي الّتي استرقت عبر الكُوى الزّجاجيّة ففضّلت البقاء في هذا الهدوء..

تشعر أنّها تلتحم مع هذه الأجواء وتصبح منها ولا تريد أن تعيش إلاّ في هذا البهو وهي تتصوّر نفسها كنساء الماضي وقد خرجت لتوّها من الحمّام وأخذت تستعدّ للعصر، للمغرب، للمساء حيث ساعة الزّمان تكمن فيما تقوم به. وإذا بها قد اختارت أن تبقى هكذا على جمودها.. كما الآن، فيتوقّف الزّمن ولا يعود يتحرّك ريثما تتململ وهي تنظر إلى الفسيفساء، متمنّية لو تحتسي الشّاي بالنّعناع وتقرّب عطر العنبر من أنفها وفمها.

www.ibtesama.com

لكن جفاء صديق مصطفى تجاهها كان يعكّر عليها صفاء هذه اللّحظات الهانئة، الثقيلة بما تحمله من كثافة ومشاعر معقّدة. كانت خطواته تنتقل بين طاولة عند الزّاوية فرد عليها خرائطه وبين طاولة أخرى وضع عليها ترموس وإبريق شاي وباقة من النّعناع. أخذت تبلع خطواته وحركته حتّى يبقى هذا المكان خارج الأمكنة والزمان خارج الأزمنة. ولا تعرف لماذا أصبح وجود جلال ملحاً عليها. تودّ أن تتصافى معه حتّى لا تجد ثغرة في هذا الانسجام الّذي تشعر به. وإذا بها تسأله، من غير أن تكون قد فكّرت في سؤالها من قبل، عمّا إذا كان بإمكانها استئجار بيتٍ كهذا البيت.

- لويش؟

- حتى آتي عدة أشهر في السنة.

- لويش؟

ترتبك ولا تعرف الإجابة، إنّما ترى نفسها متمدّدة في هذه الأرجاء الرحبة. فتجيبه بصوت منخفض كما لو أنّها لا تودّ أن يسمعها جيداً:

- حتى أعيش في هذا الجمال!

- رجلك جاي يمشي معاك؟

- «لا أعرف» لكنّها قالت:

- زوجي؟ لا أعتقد..

- ما كانش مشاكل بتصيبي الغالي والرخيص؟ ويش خصّك بالبيت.. بالغرسة ولاّ بلاش؟

- غرسة؟

- Jardin.

www.ibtesama.com

- بيت بالغرسة..
- نمشي وتشوفوها وعاد يكون خير..

تتململ سمر، كأنّها تندم على تورّطها السّريع هذا، لكن ندمها هذا سرعان ما طمره شعور بالثّقة. إنّه أخذ يظهر لها اهتمامه بها للمرّة الأولى ويسألها إذا كانت قد أحبّت هذه المدينة وعن عملها في أوروبا، وعن بلدها العربي، وأخذ يسألها إذا كان مصطفى قد أخذها إلى هذا المكان أو ذاك ووعدها بأن يأتي لها بالحنّاء من والدته. الحنّاء الأصليّة الّتي تجهّزها أمّه بنفسها، وبأنَّ عليها أن تزور بيتهم إذ سوف يروق لها، وخاصّة الحديقة. ثمّ أخذ يلفّ سيكاره مؤكّداً لها أنّها سيكارة عاديّة لكن إذا أرادت أن تحشّش... ضحكت سمر وهزّت رأسها متمنّعة أيضاً. أخذ ينفث السيكارة ثمّ تركها بين شفتيه وشرع يخبط صدره وكأنّه يضرب على الطّبل، فيبدّل الإيقاع كلّما بدّل طريقة الخبط، كلّما بدّل يده بكفّه، وكلّما بدّل الموقع مستعيناً بالتّصفير والهمهمة. وعند إعجابها الشّديد بهذا الوقع الغريب من الموسيقى الّذي كأنّه تتمّة لما تشعر به نهض ووضع لها تسجيلاً وإذا به امتداد لهذه الموسيقى التي جعلتها تغمض عينيها. هي ليست في الحاضر ولا ترنو إلى المستقبل، هي رهينة هذه الأجواء الملائمة. تفتح عينيها خائفة مما أخذت تتصوّره.. خائفة من حالتها الّتي أصبحت وكأنّها غرسة طريّة انحنى غصنها يطلب الماء والشّمس، وهي تجبر نفسها على الوقوف.

يسألها إذا كانت تودّ الذّهاب وهو ينظر في ساعته، ليقول في تردّد: «نتكلم ونهدَرْ» لكنّها تسير بثقل فوقه ثقل.. بينما

www.ibtesama.com

ينحني هو ويمسك بالأكياس، كأنّه يلامس تنّورتها بيده. يلامسها مرّة أخرى. وما إن يرفع قامته ويواجهها حتّى ينكبّ على شفتيها. لم تبتعد ولم تمانع. يهبط بيده إلى صدرها. لا تبتعد ولا تمانع.. بل تبادله قبلته بشهوة. تفتح عينيها على الفسيفساء ثم تعود لتغمضهما وتبلع النمنمة والأعمدة والضّوء الزهريّ فتطير وتحلّق في عتمة نفسها حتّى أصبح الشّعور بين شفتيه وشفتيها والأجواء الملوّنة وصورة زوجها والشلّة أيضاً.

كانت تفيق من خدرها كلّما أدخلها في حركة أخرى، فتتوجّس رهبة منها ثم تعتاد عليها ويعود الضّوء الزهريّ يذيبها ويأمرها بأن تغمض عينيها وهكذا... لم تعد من طيرانها إلى الأرائك والمساند الّتي كان يعلوها الغبار إلا عند انتهاء اللّحن والضجّة الّتي ندت عن المسجلّة. ولم تنظر إليه عندما نهض قائلاً بأنّه سوف يعدّ الشاي، بل فكّرت بزوجها. وقبل أن تتخبّط في الأفكار، تخيّلته يجلس مع مصطفى وبقية الشلّة يتسامرون عند البسين.. والخرائط والمعلومات الاضافيّة عن هذه المدينة حوله وفي مفكّرته... وأخذت عند هذا الخاطر تتململ وتحاول بهدوء أن تزيل جعلكة تنّورتها الطّويلة. ثم تنسى زوجها وهي تتأمّل جلال وهو يسكب الشّاي.. وهو يبدو كتتمّة للرّهبة الّتي فرضتها عليها هذه الأرجاء الواسعة وكلّ ما تراه بين جدرانها.

كانت في ضياع عظيم تتساءل عمّا إذا كان باستطاعتها رؤيته وحيدين مرّة وأخرى قبل أن تسافر؟ أم أنّ عليها التخلّف عن السّفر مع زوجها وتبقى وحيدة عدّة أيّام. أم لربّما من الأفضل لها العودة بعد شهر؟.

www.ibtesama.com

يأتي لها بالشّاي. تتناول الكوب منه بكلّ صمت رغم أنّها منحته ابتسامة كبيرة... ليبادلها هو بابتسامة.

فكّرت بمصطفى، وكأنّها أوشكت أن تتوسّل إليه ألا يخبر مصطفى والشلّة. لا خوفاً من أن تصل الأخبار إلى زوجها فقط بل من أجل مصطفى نفسه والشلّة. لا تودّ أن تشوّش صورتها في أذهانهم. كأنّها أرادت أن تحميهم. ينظر في ساعته. تنظر في ساعتها. تقول من غير اقتناع: «عليَّ الرّجوع إلى الفندق؟». وإذا به يهبّ وكأنّه ينتظر هذه الجملة منها. يتناول منها كوب الشّاي الّذي لم تشربه، لابدّ أنّه عصبيّ.. خائف من مصطفى.. من زوجي.. تتمنّى أن يقول لها شيئاً. تهيّئ نفسها لكنّه كان منهمكاً بتناول المفاتيح.

سارت أمامه تنزل السلالم.. وإذا به يمسك بيدها وهما يهبطان السلالم. ترتاح نوعاً ما لهذه اليد رغم أنّها شعرت بأنّها لم تعد متلهّفة عليها بدرجة عظيمة كما من قبل وهي جالسة على الأريكة تتأمّله وهو يضع الكاسيت في المسجّل. وما إن أصبحا في الخارج حتى اختفت الجدران، وكذلك الضباب الزهري، وحلّت محلّهما المارّة والجلبة. وقفت بعيدة عنه خطوات ريثما يحكم القفل. عادت وسط اللّغط، رأت النّاس تسرع، تتمهّل، تنادي وتسير صامتة أيضاً. كأن الحياة تعود إلى حياتها، فتقرأ لافتة تشعّ بالأنوار وتلاحظ رجلاً ينظر إليها.

تتأمّله عن بعد وهو يدير المفتاح مرّة ومرّتين في ثقب البّاب ثمّ يوصده بالقفل، تمالكت نفسها وهي تحدّق به وكأنّها تراه لأوّل مرّة. حاولت بجهد أن تلم صورته هذه بالّذي كان داخل هذه الجدران

www.ibtesama.com

الخارجية. لحظات خلت. لكن الالتمام كان كالماء والنّار. بقي الشّاب يحكم إقفال البّاب وبقي الشّاب الآخر ينتقل من سطح القصر إلى الغرف يعمّر الشاي، يضع لحن الخيط على الصّدور، يأخذ شفتيها، يتحسّسها بهدوء ويسأل لماذا هي تودّ استئجار بيت؟ تعود إلى الّذي يقف أمامها، المختلف بعينيه وبقامته وحتّى بصوته، ولا تصدق أنّها كانت معه قبل وقت قصير.. وإذا بها تنظر إلى النّوافذ لعلّها ترى الشابّ يطلّ عبر الفتحة ويشير إليها بتحيّة الوداع أو لعلّه ينتظرها الآن بينما الشّاب أمامها يقوم بفتح الباب لها.. أم أنّها سوف ترى ظله...

زحمة الشارع هي الّتي تصيبها بالتوتّر. كأنها ترى مصطفى والآخرين وزوجها. وإذا بها تتمنّى لو تصادفهم. تغدو كطاحونة هبّت عليها الرّياح. تتمنّى الاختفاء وهما يسيران باتجاه الفندق. تطمئنّ شيئاً ما لأنّه لا يأخذ يدها. الحرج يمسك بقدميها ويجعلهما تجرّان أثقالاً عظيمة، وإذا بها تستملك شجاعتها وتقول له إنّها سوف تعلمه برسالة عن تاريخ استئجار البيت بعد أشهر. وإذ تراه يهزّ رأسه موافقاً تخاف وتهمس لباطنها بأنّها إنّما تفعل هذا لأنّها تودّ أن تقول له وداعاً الآن. ويبدو أن هذا سوف يكون من أصعب الأمور، إذ كيف ستبرّر له أن ما حصل بينهما كان تتمّة للمكان وبأنّها لن تراه بعد الآن. يسير هو بارتباك أيضاً. هل يتحيّن الفرص حتى يكمل معها ما بدأه داخل الجنّة؟

يقتربان من ضوء الفندق وهي تزداد ارتعاشاً وهو يزداد ارتباكاً. وما إن لاح الفندق حتّى توقّف. توقّفت هي أيضاً والأجوبة

www.ibtesama.com

والأعذار تكاد تنفذ من بين أسنانها لكنّها سمعته يحدّثها بالفرنسيّة لأوّل مرّة..

ـ عاونيني.. أنا ما عنديش فلوس عشان روح الجامعة.. هذي الخدمة ما فيها فلوس..

صعقت سمر لدرجة أنّها لم تستطع أن تحرّك رأسها بعيداً عن عينيه فكأنّ طيراً ثقيلاً جثم فجأة على رأسها وضغط على رقبتها وزلعومها لكنّه ترك أذنها تتلقّى بقيّة السؤال.. بالفرنسيّة.

ـ تعاونيني؟

www.ibtesama.com

تقدّم ملحوظ

على السّرير، على غطاء السّرير الّذي قامت بتخريمه مستعملة أدقّ صنارة حتى تبدو الغرز وكأنّها رأس دبّوس، أفرغت هدى من كيس يحمل ماركة من أغلى ماركات الأحذية كومة من الحقن وعلب من الأدوية الفارغة الّتي كانت الممرّضة تستغرب إصرار هدى على الاحتفاظ بها.

لم تكن تهتمّ قبلاً بالأحذية الغالية أو بجودتها، فقط بموضتها غير مبالية للمسامير الجلديّة الّتي كانت تنبت بين الأصابع وعليها، إذ كانت قد صبّت اهتمامها وقناعتها على كل ما هو جميل ورخيص حتّى لحظة اكتشافها ما أصابها من جرّاء جرثومة لتجد نفسها بعد ذلك تنفق بتواصل من غير أن يرمش لها جفنٌ واحد وهي تدفع عدّاً ونقداً الجنيهات الانكليزيّة.. لا بطاقة الأمريكان اكسبرس الّتي يشعر المرء إزاء استعمالها وكأنّه لم يدفع شيئاً. تشتري ما ليست بحاجة إليه من مناشف موقّعة باسم مصمّم أزياء مشهور، إلى يد زجاجيّة تحمل خواتمها إلى عدّة أغطية «للماجي ميكس» إلى كل ما تبتدعه المحلّات. ولم تكن تبالي بملاحظات زوجها من حين إلى آخر وهو يصدم بمشترياتها، فلا يفهم ماذا تفعل ركيزة زجاجات النّبيذ وهما لا يكادان يشربانه، كذلك رفوف الكتب المذهّبة وهما لا يطالعان سوى المجلّات والجرائد، وأملاحاً ملوّنة للمغطس وكريمات للجسم

www.ibtesama.com

طينيّة وأكثر من آلة كهربائيّة لتخفيف الشّحم. ولم يتوقّف زوجها لحظة ليفكّر بهذا التبدّل الملحوظ، حتّى عندما أخذت هدى تعود بتساريح شعر جديدة وبألوان شعر مختلفة، لكن ما إن التحقت بمدرسة لتعليم اللّغة الانكليزيّة وبنادٍ للتّمارين الرياضيّة والرّقص حتّى فكّر قليلاً بأن زوجته تحاول التّأقلم على نمط البلاد الانكليزيّة هنا. وقد أدهشه هذا قليلاً إذ إنّه لم يتصوّر من قبل أنّها مهتمّة بأن تعيش خارج نطاق الحياة العربيّة هنا في كل شيء، سواء بتحضيرها للطّعام العربي وكيفيّة قضاء وقتها مع الأخريات والتزامها بأداء الواجبات ضمن الجالية اللبنانيّة.

تبدّل ملحوظ طرأ على هدى. لابدّ أن سببه يعود إلى دروسها الانكليزيّة، فقد أصبحت أكثر جرأة في التحدّث مع الانكليز سواء في المحلاّت أو في المطاعم الّتي أخذت تختار أجملها وأغلاها. من مطعم يحيط أطباقه بالزّهور الطّبيعيّة الّتي تؤكل، إلى مطعم يقدّم السباغتّي السوداء. ولم تكتف هدى بارتياد المطاعم بل أخذت تجبر زوجها على اصطحابها إلى المسارح الّتي تقدّم الاستعراضات الغنائيّة، لترتدي الفساتين الّتي تعادل ما كان يراه على خشبة المسرح. وعندما أخذ يتمنّع عن مرافقتها لم تتوقّف عن الذّهاب بل أخذت تصطحب معها الصّديقات. لم تعد تكتفي في أيّام «الويك أند» بتحضير المناقيش واستقبال الأصدقاء، بل أخذت تصحبه إلى مناطق خارج لندن، تتأمّل في البيوت الجميلة ذات الحدائق والأشجار، تلمّح له بأنّ عليهما شراء بيتٍ في منطقة معيّنة وهو يطرد الفكرة صائحاً بأنّها مجنونة. «هذه من أغلى المناطق.. حتّى أمّ الملكة بتعيش هون». عندما دبّ اليأس من أنّه لن يوافقها على شراء

www.ibtesama.com

منزل كبير، نسيت هدى الموضوع، وأخذت تهجس بموضوع آخر، بأمّه الّتي لاتزال تسكن في بيروت. أخذت تشدّد عليه لدعوتها حتّى تزورهما وسيل كلماتها لا يتوقّف: «أمّك لوحدها، ولندن حلوة».

ومنذ أن حلّت الأم في لندن وهدى لم تتوقّف عن أخذها إلى الأماكن السّياحية، إلى الأسواق، فتشتري لها كنزة من صوف الكشمير أو إناء من أجود أنواع البورسلين، تنتظر عودة زوجها حتّى تطلعه على المشتريات وتحدّثه كيف مرّ اليوم مع أمّه وهو في حالة امتنان يخالطه الاستغراب لمعاملتها الحنونة، فهي قلّما اكترثت بأمّه من قبل، ومع ذلك لم يفكّر في الأمر طويلاً. كان يجهل شخصيتها، فهو قد عرفها مائلة إلى الصّمت أو إلى الخجل. كانت قد رفضته فعلاً عندما تقدّم يطلب يدها بناء على إعجاب أمّه وخالاته بها، ولم يفهم سبب رفضها السابق له رغم أنّه كان يكبرها بخمسة عشر عاماً. لكنّه كان يحتلّ مركزاً مرموقاً، فهو يشغل وظيفة المدير الأعلى في بنك. لكن في غضون أيّام، عادت وتراجعت عن رفضها الزّواج به رفضاً كان سببه الخوف من السّفر وابتعادها عن أهلها وجهلها للبلاد الانكليزيّة وللغتها.

دقّ جرس التلفون ذات ليلة، تشاغلت هدى ولم ترفع السمّاعة كعادتها، بل تركتها لزوجها الّذي صاح: هدى بيروت على الخطّ، الظّاهر أهلك». أسرعت هدى تأخذ منه السمّاعة بكلّ بشاشة، ثمّ اكفهرّ وجهها للحظات وهي تحاول استيعاب ما كان يقال لها لتجيب بسرعة وهي تنظر في ساعتها: «ما في طيّارات ولا عن أي طريق.. بكرة.. دخيلكم انقلوه على أحسن مستشفى» وأخذت تبكي وهي تخبر زوجها وأمّه أن والدها في حالة خطرة.

www.ibtesama.com

وفعلاً سافرت هدى إلى بيروت في اليوم التّالي، ومن بيروت أخذت تتّصل بهما كلّ ليلة تطمئنهما عن تطوّرات صحّة والدها إلى أن أكّدت لهما بأنّ الخطر قد زال عنه وبأنه يتعافى ولتخبر زوجها كم هي مشتاقة له قبل أن تفاتحه في أمر وقوعها على شقّة تطلّ على البّحر معروضة للبيع، بسعر متهاود. ورغم رفضه في بادئ الأمر أن يدفع ولو دولاراً واحداً في بيروت، استطاعت أن تقنعه بإصرارها على سعر الشقّة الّذي يوازي سعر عدّة عشوات في مطاعم لندن أو يعادل عقد من ذهب، مصرّة بأنها لن تعود إلى لندن قبل أن تشتري هذه اللّقطة. وإذا به يوافق ويعدها بأن يحوّل لها المال.

عادت من بيروت لتهتمّ من جديد بأمّه، تصحبها إلى الأسواق، تحثّها لشراء معطف فراء وتقنع زوجها بالدّفع، ثمّ لتودع معطفها بعد موافقته بأيّام لدى خائط الفراء حتّى يجري عليه التّعديلات الّتي جاوزت ثمنها معطف أمّه، ثم لتستشير الأم في اختيار الملاعق والشوك من الفضّة الخالصة، والزوج الفخور بذوق أمّه والفخور بثرائه يسأل زوجته ماذا سوف يفعلان بطقمها الفضيّ السّابق، والسّعادة تطفح على وجهه من جرّاء الوفاق بين أمّه وزوجته، وكذلك من جرّاء شعوره بالاطمئنان بأن زوجته سعيدة، وليست وحيدة، الأمر الّذي جعله يتغيّب في المساء أحياناً ويأتي متأخّراً، لتستقبله زوجته بقبلة ما إن يدخل السّرير ولو كانت في عزّ النّوم هامسة له: «تصبح على ألف خير يا حبيبي».

تبدّل شخصيّتها الملحوظ لم يرق لأمّه الّتي رغم أنّها كانت تعلّق أهميّة كبيرة على المظاهر إلا أنّها شعرت بأن هدى أصبحت تبذّر

www.ibtesama.com

الكثير من المال إلى درجة التهوّر. . . وكانت قد لاحظت علامة التساؤل المختلطة بعدم الرضا على وجوه اللّواتي كنّ يزرنها ويزرن هدى، واللّواتي كنّ يحاولن التّلميح لها ما إن تختفي هذه لتعدّ القهوة بأنَّ شخصيّة هدى قد تبدّلت! وكأنّها انتحلت شخصيّة سواها، وبأنّها تتصرّف لا عن اقتناع بل عن تقليد، خاصّة انخراطها في دروس الرّقص الّتي أخذت تثابر عليها باهتمام شديد.

طالت مدّة إقامة الأمّ تحت إصرار هدى الّتي لم ترض لها أن تعود إلى بيروت، بل تشبّثت بوجودها وكأنّها أمّها. تتحمّل تدخّل الأخيرة في شؤونها الخاصّة بطيبة خاطر. تهزّ رأسها موافقة مهما تخطّى الانتقاد الحدود بينهما، وقد دار آخره ضدّ التحاق هدى بالصّفوف الرياضيّة لأنّها تتعب الجسم معلّقة أنّ على هدى إتمام الواجبات الزوجيّة في اللّيل. لكنّ هدى واظبت على البشاشة وعلى اصطحاب الأمّ في رحلات سياحيّة وتمضية الوقت في المحلّات التجاريّة واستشارتها في اختيار سجادّة عجميّة أصليّة، وأخذها إلى منطقة تسكن فيها أمّ الملكة، وكانت تتفقّد معها بيتاً معروضاً للبيع، لتعود في اللّيل وتخبر زوجها عن البيت الّذي رأته وأعجب الأمّ، وكيف أنّه نموذجي، وهي تعدّد مزاياه. طابق لأمّه، وطابق لهما، وطابق للأولاد. تفاجأ الأمّ بكلام هدى وتفتح فمها مشدوهة. . . هل هدى حامل فمن أجل ذلك تصرّ على استضافتها الطّويلة هذه، لكن هدى تتملّص من الموضوع بضحكة، وعندما يسألها زوجها في غرفة النّوم إذا كانت حاملاً تضحك مردّدة: «حَزر فزر».

تمّ شراء البيت بمعونة البنك بعد أن وُقّع العقد باسمها خوفاً من

www.ibtesama.com

الضرائب وبقيت هدى في تقدّمها الملحوظ كأنّها أنثى عقرب تحمل أولادها فوق ظهرها وهي تبحث عن طريدة وعن وجود المكان الملائم ذي الحرارة الملائمة لها وللعقارب الصّغيرة.

تلقي هدى نظرة أخيرة على غرفة نومها، تسحب في آخر لحظة غطاء السّرير الّذي قامت بتخريمه في بيروت من أجل سريرها مع الرّجل الّذي أحبّته وأحبّها وبدلاً من أن يتزوّجها التحق بميليشيا الحيّ. تسحبه من تحت كوم الحقن والعلب الفارغة، تضعه في كيس تحمله ثمّ تعجّل في النزول إلى الشارع، حيث كان التّاكسي الأسود في انتظارها. يترجّل السّائق ما إن يراها ليعود معها إلى الدّاخل يساعدها في نقل الشّنط والصّناديق العديدة، ثمّ لتردّ الباب خلفها كالعادة وهي تحمل معطفها المصنوع من الفراء وكيس غطاء سريرها. تستوقفها الجارة الانكليزيّة.. وتثني على تقدّمها الملحوظ إزاء تخفيض وزنها، وإتقانها للّغة الانكليزيّة، وجمال ملابسها؛ تبتسم لها هدى وتكمّل طريقها.

فقط وهي في الطّائرة تتنفّس هدى بالارتياح وهي تفتح شنطة يدها، وتطمئنّ إلى أوراق طلبها للطّلاق وأوراق المحامي الانكليزي مع نسخ من تقارير الطّبيب. تنظر في ساعة يدها، لابدّ أن أمّ زوجها قد أنهت تسريحة شعرها منذ وقت قصير وعادت إلى البيت، تتخيّلها تنادي باسمها تبحث عنها في أنحاء الشقّة قبل أن تدخل غرفة نوم هدى، لابدّ أنّ السّرير العاري من غطائه سوف يلفت انتباهها، وكذلك أكوام الحقن وعلب الأدوية الفارغة.

www.ibtesama.com

أمّ زوجها الفضوليّة ستتساءل عمّا تفعل هذه على السّرير، ستجد ورقة.. ستقرأها..: «زوجي العزيز، أمامك الحقن والأدوية الّتي أكلت نفسي ولحمي حتّى أتخلّص من جرثومتك وجرثومة العاهرات. أمامك أيضاً علب الحبوب الّتي مدّتني بالصّبر حتّى أحقّق ما خطّطت له وكذلك... الفواتير».

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

عمر الجنّة

هجمت على أمّ زوجي أعضّها من أنفها. لطالما كرهت أنفها، ثم خطفت منها حقيبة يدها وأمرت ما تبقى من السحليّة الّتي حوّل جلدها إلى حقيبة أن تنتقم من اليد الّتي تحملها. كنت البارحة قد خبطت في وجهها الباب وأفرغت عليها تنكة الزّبالة من على الشّرفة وهي تهمّ بركوب السيّارة قبل أن تغادر، نثرت عليها زهور الفتنة وغنّيت لها، وأحطت جيدها بعقد من الياسمين وأنا أشدّها إليّ وأقبّلها وأقبّل يديها وأقبّل إيشارب عنقها الحريريّ واسألها وأنا أفرده على الأرض لماذا لا نستقلّ عربات الخيل المطبوعة عليه، وهي تحاول أن تفلت منّي تارة، وتستجمع نفسها تارة أخرى. تحاول أن تهديني إلى رشدي ثمّ تصيح بي إلى أن تفقد الأمل وتميل برأسها إلى الجهتين قبل أن تنظر إلى السّماء وتنادي مستنجدة بالله حتّى يخبرها عن الإثم الّذي اقترفته من غير أن تدري.. إذ لابدّ أن الله ينتقم منها بجنوني هذا، «ماذا فعلت غير أني اخترتها زوجة لابني لأنّها تنحدر من أفضل العائلات» فأجيبها على دعائها هذا برفع قدمي إلى السّماء، أسأل الله أن يخبرني لماذا أشعر بهذا الحرّ. أطلب منه أن يرمي لي بعض القطع الثّلجيّة حتّى تمدّني بالبرودة، وأنا أرفع تنورّتي حتّى أتلقّاها، فيهجم زوجي ويحاول أن يُسدل تنّورتي ويستر لحمي، فأقاومه وأعضّ يدّه، فيكتفي بالقول وهو يحاول إدخالي الغرفة:

www.ibtesama.com

«هيك يا فاتن هيك صار بدنا نعيش؟».

يدفعانني إلى غرفتي، فأجلس أمام المرآة أتأمّل وجهي غير مصدّقة ما أرى وأضحك. اسمعهما يتحسّران على انهيار البيت وعلى سوء حظه بالزّواج منّي وعلى حزن ولدينا أمام فقداني عقلي.

تقترح أمّه أن يعرضاني على طبيب هنا، وزوجي يقترح العودة بي إلى لبنان. تتعالى الاستفهامات عن الفضيحة الّتي سوف تنتشر إذا هما نقلاني إلى لبنان ثم يقرأ لها أني بتّ فضيحة في كلا الحالتين. فأنا فضيحة حتّى في قلب البيت. في قلب غرفتي، في قلب سريري، إني أترك نفسي من غير وقاية أثناء عادتي الشهريّة، بأنّي آتي بقلم حتّى أدوّن عدد رموشي، بأني أزرع الورد في فتحة حذائي، بأني أطيح في الهواء بكل غال ورخيص، بأني حاولت القفز من النّافذة أودّ الطّيران، حاولت الهرب في شاحنة كانت تنقل أنياب الفيلة فأعانقها ولا أفكّ نفسي من عناقها إلّا بعدما يكتشف السّائق أمري ويسلّمني إلى البوليس. وهكذا أتخبّط في جنوني ولا ألتقي مع حقيقتي إلا عندما يمرّ نظري على اللّوحات المائيّة الّتي استوحيتها من الضّوء العجيب في هذا البلد الإفريقي. ضوء ينفذ من قبضة أشعة الشّمس الحارقة لوقت قصير وفي مطلع النّهار وفي آخره. هل أهجم على هذه اللّوحات لأرفعها عن الحائط وأحطّمها؟ لربّما هي الّتي تجعل زوجي يأمل بأنّي سوف أعود فاتن الماضية. فاتن الأولى الّتي لم تستطع الإجابة حتّى بكلمة نعم عندما طُلبت يدها. فإلى جانب خجلها، كانت تحت وطأة انبهارها لكون من تقدّم لها من عائلة ثريّة مهاجرة في إفريقيا.. لم أفكّر وقتها بالقبول ولا بالرفض. وإذ قلت

www.ibtesama.com

أخيراً «نعم» فإنّي رددتها لأنّي كنت أيضاً تحت وطأة سوار أمّ زوجي الذهبيّ الّذي كانت تتدلّى منه ما لا يخطر على بال أحد، من بلّوطة إلى بيت، إلى قلب، إلى جبل، إلى العلم اللبناني، إلى السلحفاة.

لا أسمع إلاّ صوتها يتساءل، يلوم ويندب لأنّه لا يعرف أن يتّخذ أي قرار في مسألتي، هي الّتي اعتادت على تسوية كلّ الأمور، بينما يكتفي زوجي بترديد جملة: «لا حول ولا قوّة إلا بالله».

ولم أستبشر خيراً إلاّ عندما أتى الطّبيب. سألهما عن تاريخ تدهور حالتي وإذا كان هناك حادثة ما. أجابت أمّ زوجي: «البحر.. منذ ذهابها إلى البحر مرّة والأمطار تتدفّق». ثم التفت إليّ يسألني عن عمري فأجبته: «عمري من عمر الجنّة». جوابي هذا جعله لا يلتفت إليّ البتّة بل يسألهما إذا كان هناك جنون في عائلتي، وعندما اكتفيا بهزّ رأسيهما علامة النّفي، تدخّلت أكذّبهما بأنهما يلمّان بأمر خالتي الّتي بقي سرّ جنونها غامضاً والّتي تنقّلتْ بين عدّة مصحّات للأمراض العقليّة، ثم أخبرته كيف زرتها ذات يوم بعد أن حمّلتني أمّي لها صحن تبّولة وإذا بخالتي تدفعني إلى الحائط وتخلع عنّي ملابسي وتحشر نفسها بها وتأمرني أن أرتدي ما كانت ترتديه، ثمّ تهدّدني بقتلي إذا فتحت فمي وتركتني هناك حتّى الآن. لتعود بدلاً منّي إلى البيت وتنام في سريري وتذهب إلى مدرستي وتلعب مع صديقاتي وتتزوّج من رجل يعيش في إفريقيا وتنجب منه مئات الأطفال وبأنّها لم تأت إلى زيارتي في المصحّ رغم زياراتها المتعدّدة إلى لبنان. ولم أسكت إلا لوقت قصير وأنا أرى الطّبيب يختفي من الغرفة، فأتمالك نفسي من جديد وأعود إلى الصّراخ والعواء والمواء

www.ibtesama.com

والنّهيق والدّفش وضرب وجهي والضّرب على النّافذة.

القصّة تطول وأنا لم أعد أحتمل مرور الأيّام. لقد أنهكت من التّعب ومن الانتظار ومن الجنون، لذلك عليّ أن أحسم الموقف أن أزيد من جنوني، وأن أصبح خطرة.

تصيح أمّ زوجي: «مجنونة أقرّ الطّبيب بهذا.. حزرت أنّها مجنونة. حتّى وهي عاقلة كانت عيناها تحملان شرايين الجنون بها... سأزوّجك من أخرى بعد أن نعيدها إلى أهلها.. دعهم يتولّون أمر معالجتها. أما الأولاد فلا بأس عليهم في مدارسهم الدّاخليّة». ثمّ لتخفض من صوتها وتقول بكلّ هدوء: «الزّواج مثل كلّ شيء في الحياة. حظّ ونصيب، من قال إنّ التّفاح الّذي ينخره الدّود ليس بأحمر وليس بشهيّ من الخارج...».

أنصت بكلّ جوارحي وأنا أسبح فوق أرض الغرفة الخشبيّ وأغرق وأحاول النّجاة. ما إن أسمع صوته يعلو على صوتها حتّى أعود فأنصت بكلّ جوارحي أنّه يتهمهما بالقسوة والأنانيّة. يقسم بأنّه لن يتزوّج، لأنّه لن يتركني، لأنّه لن ينسى فاتن المعافاة. الزّواج هو في السرّاء والضرّاء. سيعالجني. إنّه يحبّني، لن يبهدلني، لن يعيدني إلى أهلي. سيقف إلى جانبي وأنا أهزّ رأسي، أنفي ما يقوله، أرفض ما يقوله وأعوم في بحر الغرفة أكثر فأكثر، إلى أن استعارت أمّه جنوني وصاحت به «ولك بتموّتك. بتسمّمك. بتعضّك وهي أكيد صارت كلبانة، بتحرقك، بتشكّك بسكّينة إنت ونايم..».

عندها أمضي في جنوني، أعود إلى السّباحة. وهذه المرّة أعلو فوق الموج وأغوص في القاع وأعود فأطفو من العرق الّذي يتصبّب

www.ibtesama.com

منّي إلى أن أسمعه يصيح بأمّه، يطردها مقسماً ألاّ يتخلّى عنّي ولو غرزت فعلاً السكّين في قلبه. لكنّها تجيبه بصوت أعلى، تنفجر به الآن حتّى ينشل نفسه من تحت سطوتي، فأنا لابدّ قد كتبت له التّعاويذ عند السحرة في ذلك المكان الّذي كنت أزوره حتى أرسمه، وبأنّي قد رسمت له آخرته، وهو يقاطعها قائلاً: «مستحيل أتركها، مستحيل، بترك الدّنيا ولا بتركها».

عند سماعي هذا استجمعت كل قوّتي، حتّى هدّأت نفسي، تعلّقت بقارب النجاة الأخير الّذي أملكه وخرجت إليهما بعد أن غسلت وجهي، ولممت شعري، ولففت الرّوب حولي كعادتي في الماضي وخرجت إليهما بنَعْلي المطرّزة الّتي لم أنتعلها منذ أن جننت. وجلست أمامهما بكلّ اتّزان، غير مبالية بأعينهما الّتي أصبحت كائناً قائماً بذاته، إنّما في منتهى الذّعر. هدوئي جعلهما يستعدّان بأيديهما وبأقدامهما لأن يردّا الضّربات المفاجئة، أو ليهربا مني أيضاً.

لكنّي جلست متردّدة أمامهما لا أعرف من أين أبدأ. هل أخبرهما بأنّي كنت مكتفية بحياتي كأيّ زوجة وكلّي قناعة بأنّ الحياة هي زواج وإنجاب أولاد وتدبير الشؤون المنزليّة والمضاجعة بين حين وآخر، و.. الخلود إلى النّفس خفية كلّما أردت محاورة الأشياء والأحاسيس وكلّما سرّ قلبي أو حزن للحنٍ ما، فأجدني أسرق الوقت لأرسم ولألوّن الورق والأقلام إلى أن دخلني رجل آخر، دأب على مراقبتي وأنا أجلس في مواجهة البحر محاولة نقل لونه إلى الأوراق أمامي. ودأب على التقاط كلّ ما أتركه خلفي ولو بقايا أقلام الطّبشور أو

www.ibtesama.com

غبارها الملوّنة. وهو يجد في ذلك أهميّة كبرى. وحدست بأن حياتي لم تعد كما كانت وبأنّه أصبح لكلّ شيء حولي معنى. مياه البحر إذا كانت دافئة أو باردة هي الّتي سوف تلامس قدمي. ملاحظته وحبّه لظفر إصبعي المشطور، كوب عصير الفاكهة في يده، الصّمت والكلام، النّوم والقلق. لحظة أخذ يمرّر يده على وجهي من غير أن يلمسني فأشعر بحرارة وبخفقان عظيمين، ولحظة لم أستطع إجبار نفسي كما من قبل على فراقه كل هذه الأحاسيس والدّخول مجبرة إلى عالمي الآخر الّذي كان يقف على قدم وساق بانتظاري في البيت والّذي رغم أنّه كان يكمن في عروق كلّ شيء، من المملحة والمبهرة إلى أين سوف أُدفن إذا ما أتتني المنيّة.. الّذي يكمن في كلّ شيء، كلّ شيء ما عدا أن أتنفّس من القلب. قرّرت أن أفكّ خيوطي من شرنقة الزّواج خيطاً خيطاً بحرص شديد خشية أن ينقطع الخيط أو يبدّل لونه.. بل أردت أن يجد زوجي نفسه وقد اضطرّ إلى تركي.

ابتدأت بإعطائه الصّابونة بيده متناسية أن تسليم الصّابون هو الفراق.. تقبيله أثناء نومه في عينه غافلة عن أغنية: «بلاش تبوسني في عينيّ دي البوسة في العين تفرّق». منتبهة إلى بوز حذائه لأن يواجه باب الخروج دائماً... ومع ذلك بقي زوجي ملازماً حياته كالعادة سواء في البيت أو في عمله.. إذاً عليه أن يتقزّز منّي. وحوّلت نفسي بلمحة بصر إلى تنكة زبالة كبيرة. أخذت أشرب الحليب وكأني أشرب الماء ضاربة بحساسيتي من جرّائه عُرْض الحائط. أشجّع أمعائي حتّى تصاب بالانتفاخ منه ومن تناولي للملفوف والقنبيط والحبوب. أسفّ الثّوم وكأنّه حبيبات من الشوكولاتة، وأقرض البصل وكأنّه الجزر الفوّاح كلّ هذا حتّى أهمل

www.ibtesama.com

بعدها تنظيف أسناني قبل خلودي للنّوم. . استعداداً لأن يضمّني السّرير وزوجي فأتجشّأ بلا انقطاع، تفلت منّي الغازات المضغوطة وتدبّ من أنفاسي تلك الرّائحة.

مع ذلك كنت أجد زوجي إلى جانبي كلّما استيقظت في الصباح.

وجدته إلى جانبي رغم ثورتي وتساؤلاتي. لماذا لا تتصرّف الطّبيعة على عاتقها وتخفيه؟ كيف لا تنتشلني من بؤرتي هذه وترميني حرّة؟ وعندما لم يتبدّل شيء، وبعد تفكير عصبيّ وهادئ، منطقيّ ومتهوّر قرّرت الجنون. . .

لكنّي لا أفصح لهما عن كلّ هذا الآن. بل أجدني أعترف لهما بصوت منخفض فيه كل الوضوح بأني لست مجنونة، بل إني خائفة وخجولة لأنّي وقعت في حبّ رجل آخر وأودّ الطّلاق حتّى أتزوّج منه. سألتهما أن يعذراني لأنّني تظاهرت بالجنون، فطيبة قلب زوجي وأخلاقه النّبيلة منعتني من مصارحته بالحقيقة، وهي بأنّي لم أحبّه قطّ خلال السّنوات الطّويلة الّتي عشتها معه، وبأني خفت على هذه الحقيقة أن تغمد في نفسه جرحاً لا يلتئم، وبأن ضميري قد نهشني طويلاً من جرّاء خيانتي له، وبأنّي ظننت أن جنوني المختلق هذا سوف يحفزه لأن يسحبني من حياته من غير أن يحار كيف يعيش من غيري، بل إنّه سوف يرحّب به، وزدت بأنّي مصمّمة على طلب الطّلاق ولا أريد شيئاً منهما لا المؤخّر ولا حتّى شقّة بيروت المكتوبة باسمي. وعند جملتي الأخيرة هذه فهمت بأنَّ خوفي كان من أمّ زوجي في الدّرجة الأولى. ثمّ أجبرت نفسي على رفع رأسي لأواجههما. إذ كنت مطرقة إلى الأرض طوال مصارحتي لهما ثمّ

www.ibtesama.com

سمّرت نظري على وجهيهما حتّى أبرهن لهما مدى قوّتي وشجاعتي، مهما كانت ردّة فعلهما، أنتظر جوابها وجوابه، بل عتابهما، ضرباتهما، انتقامهما وأنا أؤكّد لنفسي بأنّي سوف أهرب منهما، مهما كانت النتيجة.

وإذا بأمّه تمسك بيدي وهي تلوي بشفتيها متمتمة: «مجنونة يا حرام.. ما في أمل» بينما يُهار زوجي وهو يأخذ وجهه بين يديه مردّداً بصوت حزين: «يا حرام على شبابها، أقسم بالله بأنّي سأطوف بها العالم حتّى أجد لها الدّواء الشّافي».

www.ibtesama.com

الفـهرس

فريز أحمر ٥
أرض الشّمس ١٣
لا ينبغي أن يعرف الرّجل بهذا ١٧
المقعد السّاخن ٢١
في يوم من أيّام العطلة ٢٣
الرّوح مشغولة الآن ٣٣
مدينة الملاهي ٤٧
ساحة الكاتاستروف ٥٩
لابدّ من صنعاء ٦٣
لا أريد أن أكبر ٩٩
أكنّس الشّمس عن السّطوح ١١١
قوت القلوب ١٣١
حارس العذارى ١٤٧
صريف أقلام الملائكة ١٥٧
الغاية من السّفر ١٦٣
موسم الزّواج ١٧٣
عندما تركت الحياة حياتها ١٨٣
تقدُّم ملحوظ ٢٠٥
عمر الجنّة ٢١٣

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

نسخة معالجة ومخفضة

. . . كانت تجيبني بكلٍّ بساطة وبكلِّ ألم كلّ مرّة كانت تسامحني: «قهري هو الّذي يقودني إليك». فأنظر إليها محاولاً أن أكتشف إذا كانت نبيّة أو شيطانة. لم أصدِّق أنَّ القهر لا يتوه عند التّعاريج. لا يختفي في الوديان ولا يلصق بأشواك أشجار الكاكتوس بل يصل إليَّ دائماً بصوتها شاتماً، صائحاً، باكياً، يموء كالقطّة، يعوي كالكلب، يعزّزه ركلها لأبواب الفنادق ولسيّارتي ولسيّارة المرأة وللسيّارة التي كنت أستأجرها. كانت تتحوَّل إلى صوت ذي جذور ثخينة يمسك بأرجاء المكان يهزّه ويهزّ السّرير، فأجدني أمسك بقبضتي وكلّي حنق، مصمِّماً على عدم التّوبة، بل إيجاد مكان لا يصل إليه سوى من يفرك خاتماً سحريّاً.

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com